شامل عبد القادر

الطاغية والطغيان

في تاريخ العراق القديم والحديث



((إن كل طغيان ينتهي تماما كما ينتهي جمال العاهرة. فكلما ازدادت البهرجة والزينة الخارجية ازداد الداخل فساداً، وكلما ازداد اللباس جمالا كلما أخفى جسما قذراً. وكلما ازداد الكلام عن القوة والولاء كلما ازداد الارهاب انتشارا والحكام ضعفا.. نعم، إن العاهرات والطغاة ينتهون إلى المصير نفسه.))

(ماريك هلاسكو)
صاحب رواية (المقبرة)





الطاغية والطغيان

في تاريخ العراق القديم والحديث

الكتاب: الطاغية والطغيان
في تاريخ العراق القديم والحديث
المؤلف: شامل عبد القادر

الغلاف: م. جمال الأبطح
التنفيذ والإخراج الفني: دار صفحات - دمشق

الطبعة الأولى 2012 م
عدد النسخ: 1000
عدد الصفحات: 200

دار أفكار للدراسات والنشر
سورية دمشق ص.ب 3397
هاتف: 00963112258243
Email:
afkar2011@gmail.com

مكتبة عدنان
طبع - نشر - توزيع
بغداد - شارع المتنبي
بناية المكتبة البغدادية
079017853386-07707900655
07901312029-07813515055
Email: yaser88real@yahoo.com

دار ميزوبوتاميا
طبع - نشر - توزيع
بغداد - شارع المتنبي
موبايل: 07905139941
Email:
mazinboox@yahoo.com
Mazin24@ymail.com

الطاغية والطغيان

في تاريخ العراق القديم والحديث

شامل عبد القادر



((إن كل طغيان ينتهي تماما كما ينتهي جمال العاهرة، فكلما ازدادت البهرجة والزينة الخارجية ازداد الداخل فساداً، وكلما ازداد اللباس جمالا كلما أخفى جسما قذراً، وكلما ازداد الكلام عن القوة والولاء كلما ازداد الإرهاب انتشارا والحكام ضعفا .. نعم، إن العاهرات والطغاة ينتهون إلى المصير نفسه.))

(ماريك هلاسكو)

صاحب رواية (المقبرة) ص 125

المقدمة

(1)

إن الديكتاتوريين يتفقون في أشياء كثيرة.. انهم أبناء أرامل دائما .. وان الصورة التي تسيطر عليهم هي صورة ألام.. الصورة التي تسيطر في حياتهم هي فقدان الأب والأم.. هم يتامى على وجه ما... والديكتاتور الشخصية الأسطورية الوحيدة التي أنتجتها الخرافة الإنسانية بدورتها التاريخية وما زالت نهايتها بعيدة.. والسلطة المطلقة هي الإنجاز الأعلى والأشد تعقيدا للكائن البشري وإنها تختصر كل عظمته وكل ضعته.. الديكتاتور هو من أجزاء جميع السلطات الاستبدادية.. يقول ماركيز: البطريك رجل بدائي من الناحية الجنسية، أظن إن كيسنجر هو الذي قال إن السلطة مبهجة للشهوة والتاريخ يبرهن على كل حال إن ذوي النفوذ يعيشون كأنهم في محنة بسبب نوع من السعر الجنسي.. من يبغي السلطة ويبلغها يبدو عاجزا عن الحب.. أرى إن العجز عن الحب هو الذي يدفعهم إلى البحث عن عزاء السلطة..

إن الجانب الأكثر سلبية في شخصيه الديكتاتور هو نزوعه إلى جعل أبناء شعبه ضحايا في جميع الأحوال والمناسبات..

كان ماثلا أمامي - عندما باشرت بكتابة هذه الصفحات - هو ما اعرفه وما اطلعت عليه من دروس التاريخ وتجاربه واستخلصت منها بتواضع شديد المراحل التي تمر بها أنظمة الحكم العراقية خاصة ولدورة الاستبداد في كل زعامة سياسية واتتها فرصة القيادة أو الحكم القادة والحكام يتعرضون إلى أمراض كالتي تصيب الثورات وأنظمة الحكم وتؤثر على حياتها وربما تقضي عليها.

إن قوانين وتشريعات كثيرة سنت قبل ثورة 17- 30 تموز المجيدة عام 1968 من بداية الحكم الملكي عام 1921 ومع كثرتها لم يكن لها اثر في تقييد ظاهرة الاستبداد ومنع بروز الحاكم المستبد وكان طغيان المستبد العراقي، يعرض الشعب إلى صورة بشعة من الاستهتار والفساد والفوضى ويعجب المرء إذا عرف إن الأسماء الكثيرة التي يذكرها المؤرخون بكل تبجيل ووقار كانت نموذجا للطغيان والاستبداد والظلم سواء وردت في الفترات القديمة أو في عهود الدولة الإسلامية الأموية والعباسية والعثمانية وفترة العهد الملكي وما أعقبه من حكومات وحكام في العصر الجمهوري. وكان أكثرهم من اقبح الأمثلة للرشوة واستغلال النفوذ والاستبداد والظلم.

في تموز عام 1952 كتبت (اللوموند) الفرنسية: إن مشكلة الشرق التي عاقت تطوره وتقدمه كانت في نظام الحكم القائم في الشرق الذي ربط مصير أمم بحياة وسلوك حكامه ملوكا كانوا أو أفرادا في حين يتولى أمور الغرب رجال ينفذون سياسة هي ثمرة تخطيط أجيال متتالية ودراسة مستمرة تحول دون انزلاقه إلى قرارات مرتجله سرعان ما تعصف بها الأحداث.

إن الشعب العراقي بحكم طبائعه المعروفة حريص بصفة عامة على تقصي سلوك حكامه ليتحقق من مدى التزامهم القواعد والأخلاق وتقيدهم بمقاييس النزاهة ومدى شعورهم بالمسؤولية وتفهمهم لمختلف مشاكله ومدى مشاركتهم له في آلامه وهو في ذلك أسرع إلى النقد منه إلى التقريض، يرى مواطن الضعف والاختلال والأخطاء ويتطلع إلى حلول عاجلة كمقدمة لحلول دائمة وهو حريص على ذلك لما أصابه في الماضي من عسف الحاكمين واهدارهم للقيم الكريمة.

كان الأمناء على مبادئ الثورة الفرنسية من قادتها أن يسرعوا في معالجة الاستبداد بالتشريعات المتتالية التي حرصت على وقاية الشعب من فساد وانحراف أصحاب النفوذ والسلطان فظهر التشريع الخاص بالإعلان عن الثروات وهو الشعار المشهور: (من أين لك هذا ؟) لأول مرة في التاريخ وقال أحد قادة الثورة وقتذاك: نعم فلنعلن للشعب ما كنا قبل الثورة وحالنا الآن.. ما كانت مهنتنا.. كم بلغت ثروتنا قبل الثورة وكم بلغت الآن.وبأي الوسائل زادت هذه الثروة.. ليعرف الشعب من الذي زادت أمواله ومن الذي زادت فضائله.

في أوائل القرن التاسع عشر ظهر محمد علي في مصر. وتهيأ الغرب الاستعماري لدراسة هذه القيادة الشرقية الجديدة والوقوف على مواطن الضعف في نفسية محمد علي وانصرفت لهذه الغاية دراساتهم التي انتهت باطمئنان الغرب إلى عجز محمد علي عن النهوض برسالة القومية العربية وجمع كلمة العرب والمسلمين وأدرك ساسة أوربا في ذلك الوقت نتيجة دراساتهم إن محمد علي لم يتخل عن هذه السياسة بل انه خانها في سبيل تحقيق أطماعه الشخصية التي انحصرت كلها في بقاء حكم مصر له ولأولاده ليتوارثوه بعده.

كتب (بروكش) المندوب الخاص لمترنيخ عن محمد علي: إن أحلام العظمة كانت تستبد بقلب محمد علي كما كان شديد الميل إلى الزهو والخيلاء يستهويه الثناء والإطراء شغوفا بالتبجيل مولعا بالشموخ والتعالي متظاهرا بالأبهة.

أما (اورلي) قنصل النمسا في مصر إذ ذاك فيقول في وصف الطاغية محمد علي (نموذج المستبد الشرقي): (كان يركن دائما إلى حظه السعيد ذلك الحظ الذي حالفه في مستهل حياته على صورة محببة كان من شأنها إن امتلأ محمد علي إيمانا بأنه رجل القدر الذي اصطفاه واختاره في مستهل حياته ومن ثم فقد كان محمد علي يسند الوظائف الخطيرة لمن لم يكونوا أهلا للثقة معتمدا على إن شؤون الدولة ستسير في النهاية وفقا لخطته دون أن تتأثر بفساد أجهزة الحكم كما انه كان لا يهتم بخلق القائمين على تصريف الأمور في الدولة أو كفاءتهم).

كان محمد علي يقول في هذا المعنى: (إنني لا اعلم إن هؤلاء الذين اسند إليهم الوظائف قد تجردوا من الشرف وفقدوا الحوافز النبيلة التي تحفز الموظف على العمل واعرف إن محبة الوطن لا تعرف إلى قلوبهم سبيلا وان حافزهم على العمل لا يعدو أن يكون الطمع في المكاسب والغنم).

(2)

عبد الرحمن الكواكبي (1854-1902) رجلاً عظيماً من رجال الإصلاح الإسلامي وعالماً من علماء العمران وحكيماً من حكماء الاجتماع البشري كما يقول رشيد رضا. فقد عالج الكواكبي رسالة (الاستبداد) في اخطر كتاب له عرف فيما بعد بـ(طبائع الاستبداد).

في القرون الإسلامية الأولى تعرضت الدولة الإسلامية إلى عواصف من الخلافات الداخلية كادت أن تذهب بها ثم عاشت الدولة العربية الإسلامية ضروبا من الدويلات ثم مزقتها الغزوات المغولية الوحشية التي داست كل ما هو حضاري وثقافي بسنابك خيولها.. كل شيء انتهى: قصور وكتب مكاتب وبشر ذبحوا وركامات من البيوت المحترقة والمهدمة إلا القران الكريم واللغة العربية والإنسان بقوا صامدين.

وعندما استولى العثمانيون بسطوا على الإنسان العراقي اعتى أشكال الاستبداد والطغيان والقهر الاجتماعي والسياسي. لم يبدأ الاستبداد من هذا الوقت. للاستبداد في العراق تاريخ عريق جدا يرجع إلى العصور الأولى القديمة لكن العثمانيون أضافوا إليه القوانين التي تنظم هذا الاستبداد.

في سوريا نشأ الكواكبي وأحس بالأحوال السيئة التي آلت إليها الخلافة العثمانية فكانت نظرياته التي حللت ودرست الخلافة الإسلامية التي شوهها العثمانيون الأتراك.

الكواكبي لم يكتب في الاستبداد للسوريين أو المسلمين فحسب بل عالج هذه الظاهرة السرمدية في حياة الشعوب رغم انه لم يتطرق إلى شعب معين بقدر انصباب بحثه الشهير على الشعوب الإسلامية. خلال حضارة العراق الطويلة وفترات الاحتلال الأجنبي أو في ظل الحكومات الوطنية التي تشكلت بعد عام 1921 تغلب شعبنا العراقي على نظم الحياة المختلفة من الممارسات السياسية التي اتسمت بالقسوة والعنف وان حكاما عراقيين أو غرباء حكموا العراق اخذوا بأساليب أمم أخرى أو بأساليب الأمم المحتلة لحكم الشعب وبزرت طبقات اجتماعية متباينة فيها الخليفة أو السلطان أو الملك أو رئيس الوزراء أو رئيس الدولة والأمراء والوزراء والوجهاء وعامة الشعب واشتد التباين وتجلى في أوضح صورة أواخر القرن التاسع عشر واستمر إلى نهاية العهد الملكي في 14 تموز عام 1958.. التباين بين الحاكم وطبقته والمحكومين. والحقيقة إن استمرار ظاهرة الاستبداد في حياة العراقيين طيلة عقود سواء في العهد القديم أو الوسيط والحديث ظاهرة تستدعي الدراسة والانتباه والنظر والتأمل والإصلاح أيضا. إذ ما معنى الغياب المطلق لمفهوم القائد الشعبي الجماهيري في حياة العراقيين؟ ما معنى أن يجيء كل حاكم ليحكم هذا الشعب وتصوراته تقوم أساسا على مفهوم مطلق واحد: إن هذا الشعب لا دواء له إلا القوة والحكم الاستبدادي.

من البديهي أن نجد العراقيين في أجواء الظلم والاستبداد والطغيان أن ينتسبوا إلى فئات مختلفة يرجون عندها الحماية ما دام أصحاب الحل والعقد من ولاة وزعماء ورؤساء ووزراء ومتنفذين ورجال دين يكرسون ظلم الاستبداد (وليس علماء دين لأن العلماء عادة مع المظلومين) فترى الناس قد تحولوا إلى الصوفية والانعزال أو باتوا أنصاف متعلمين ويرتادون السحرة والتكايا ويصبح تدينهم عبارة عن إيمان (لا يخلو من شرك) بالبدع والخزعبلات والخرافات في أجواء الحكم الاستبدادي وتنتعش الخرافات وينموا الانزواء والانطواء ويصعب على الناس النضال من اجل اكتشاف الحقيقة.

كان الموضوع الذي يثير العقل والضمير ويحرك الارادات حتى عام 1968 هو جور الحكام العراقيين واستئثارهم بأموال وثروات الشعب واتباعهم سياسة تجويع الشعب وبقاءه فقيرا معوزا محتاجا رغم إن الجماهير تعيش على بحر من الخيرات. إن الاستبداد لا يميت الكفاح في النفوس بسبب الخوف والموت بل يفتح الاستبداد نافذة للرشوة والذل والخنوع والتملق والرياء والكذب على مصراعيها.

في نظم الاستبداد التي عاشها العراق، خاصة أبان الحكم العثماني، لم تروج الثقافة ووسائل النشر وضآلة عدد المدارس وانتشار الأمية بين صفوف الشعب بأغلبية ساحقة

من الصحف والمجلات قليلة.. وفي ظل الأنظمة الاستبدادية لا يطبع كتاب أو تبث برامج إذاعية أو تلفازيه إلا ما يخف خطره على المستبدين وتحجب الكتب والدوريات والمطبوعات التي تساعد الشعب على أدراك حقه. في عام 1900 نشر كتاب (طبائع الاستبداد أو مصارع الاستعباد) بمصر. ويمكن تلخيص ابرز ما جاء فيه:

- إن الاستبداد الشرقي ليس كما ورد بأقوال الغربيين بأنه نتاج الاستبداد الديني أي إن الاستبداد السياسي غير متولد من الاستبداد الديني. إن الكتب السماوية لا تدعو إلى الاستبداد لكن الذين تمسكوا بالحقوق (الإلهية) افترضوا لأنفسهم القوة الغاشمة لاستعباد الناس فالإسلام مثلا هدم الشرك واحكم قواعد الحرية السياسية وكانت حكومة الخلفاء الراشدين نموذجا للحكومات العادلة رغم ما حصل في عهد عثمان بن عفان. والقرآن هو أيضا مشحون بتعاليم تقتل الاستبداد الأمر الذي يدعو إلى قراءة سور وآيات كثيرة وردت ضد الاستبداد (وشاورهم في الأمر) أو (أمرهم شورى بينهم).. لكن الحكام (المسلمين) اخذوا مما ليس في الإسلام فاقتبسوا التعظيم وطاعة الكبار العمياء وحاكوا مظاهر الأباطرة.. إن هذه المقتبسات هي أمهات الاستبداد وسلاسل للاستعباد كما يقول الكواكبي.

وفي الاستبداد تجاهل من الحكام المستبدين للشعب أو تجاهلهم لمصالح الرعية. والمستبد لا يخشى علوم اللغة أو علوم الدين ولكن ترتعد فرائصه من علوم الحياة مثل الفلسفة والأفكار النظرية وحقوق الإنسان والأمم انه يخشى كل ما هو يسهم في تعميق الوعي الفردي وتعرف الأفراد بحقوقهم. ويكره المستبد أن يرى وجه عالم ذكي ويختار المتصاغر المتملق. إن بين الاستبداد والعلم. بين الاستبداد والحرية. بين الاستبداد والديمقراطية. بين الاستبداد والعلماء الأحرار. بين الاستبداد والمفكرين الديمقراطيين: حرب دائمة. يسعى المثقف أو المفكر إلى نشر المعرفة والعلم ويسعى المستبد إلى إطفائها وكلاهما يتجاذبان الشعب إلى طرفهما فالناس هم (قوت) المستبد وهم بالنسبة للمثقف والحر والديمقراطي (قوته). إن الشعب عندما يعي قيمه الحرية والشرف والكرامة والعزة ويعمل من اجل تحقيقها انه بذلك يكسر قيود الأسر الاستبدادي.

المستبد يقع في وهم كبير عندما يتصور أن استبداده أو مركزيته تصنع له (مجدا) بل انه يقيم مكانه (التمجد). والتمجد (هو القرب من المستبد بوسام أو تشرف بلقب أو منصب والمتمجدون أعداء للعدل أنصار للجور يترامون على الرجل المستبد ويتخذهم لجاما لتذليل الرعية وهم أعوانه يشاركونه في استبداده لقاء انتفاعهم منه فهم العصابة

التي تعينه على ظلم الرعية منهم الوزراء والموظفون والقواد والعمال (يقصد المحافظين) فهم يشاركونه في امتصاص دم الأمة بأخذهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة. فالمستبد فرد عاجز لا قوة له ولا حول إلا بهؤلاء المتمجدين..).

المستبد يخضع الأغلبية المسحوقة لحفنة من الظالمين الذين يتمتعون بأموال الأغلبية الفقيرة ينفقونه في الإسراف والرفاهية.. وتتفاوت الأقوات بين سائر الشعب بينما الاستبداد السياسي وطغمته يعيش في بحبوحة مطلقة. والمستبد يحمي نفسه وعائلته وأقربائه وطغمته وأمواله بالقوانين.. يسن القوانين والأنظمة التي ترعى مكاسبهم واحتكاراتهم ولصوصيتهم فيحصل بذلك احتلال كبير وواضح في الملكية فتجد طبقة المستبد تملك الأراضي والأملاك الشاسعة بينما الجماهير لا تجد أرضا تنام عليها.

الاستبداد يفسد الأخلاق. ويقود إلى الأحقاد ونشر الجرائم والسرقات وغياب الضمائر ويسقط حب الوطن لان الفرد لا يجد أي معنى لحب وطنه ما دامه يراه بأم عينيه وطنا منهوبا محتكرا لطبقة صغيرة .. طبقة من المنتفعين تحتكر السلطة والمال والأرض.. والمواطن الذي يعيش عهد الاستبداد يود لو يفر من بلده إلى بلد آخر ذلك لأنه غير آمن في بلده. إن أسير الحكم الاستبدادي لا يملك شيئا يحرص على حفظه لأنه يملك مالا معرضا للاغتصاب أو السلب وشرفا معرضا للاهانه في أية لحظة وحياته الشخصية وحياة أفراد عائلته معرضة في أية لحظة للقتل أو السجن أو النفي في الدهاليز التي لا يعرفها إلا المستبد وأعوانه. والمواطن الذي يعيش أجواء الحاكم المستبد لا يذوق لذة الحياة غير لذة الملذات البهيمية وهنا: يختل التوازن وتتلاشى المقاييس الموضوعية وتمرض الإرادة ويسيطر خوف جمعي يشل أية حركة لتغيير الواقع الفاسد. البعض يرى في المستبد بسبب ما يراه من مظاهر الأبهة والتعظيم للمستبد: زعيما قويا.. فيذلون له وينصاعون للأمر الواقع وهو واقع متدهور أخلاقيا وسياسيا وينصاعون – مع الأسف الشديد – كما ينصاع الغنم بين يدي الجزار فتجري إلى حتفها.. والحيرة كل الحيرة إن الغالبية من المواطنين الخاضعين لحكم المستبد يرون بأم أعينهم مظالم وبشاعة الاستبداد ويراقبون كيف يتلاعب المستبد بالحقائق فيقلبها لصالحه ومع ذلك يسكتون أو يجارونه أو يبررون أفعاله الباطلة.

كم تلاعب المستبدون في قلب الحقائق عبر تاريخنا الطويل فعبثوا بالأديان وسخروها لخدمتهم وخدع بهم المؤرخون فسموهم بالعادلين ودافعوا عن استبدادهم وطغيانهم.. كم سكتوا عن جرائمهم وهم يذبحون رواد الحرية ومحاربي الباطل والظلم ؟؟ كم من جلاد تحول على أيدي مؤرخينا إلى عظيم وفاتح وغالب فجاروهم في استبدادهم؟

المستبد في العصور المختلفة يعتمد على (الخوف) في انقياد الناس. ويمارس المستبد وأعوانه وأجهزته مهمة (تعليم) الشعب الانقياد له عن خوف وجبن والتوقير عن كراهية وبغض. إن الشعب يخاف المستبد ولكنه لا يحترمه في أعماقه والمستبد لا تهمه مسالة البحث في قلوب الناس فالمهم عنده هو (التوقير) سواء كان قائما على الحب الحقيقي أو الخوف من المصير الأسود الذي ينتظر المعارض للمستبد. وفي ظل الاستبداد يألف الناس الرياء والنفاق والكذب وفقدان الثقة في أنفسهم وفي غيرهم.

الاستبداد يبقي من الأديان ما يقنع بعبارات لا تخرج عن شعار: عدم النهي عن المنكر والفحشاء.. الاستبداد مبعث حيرة قاتلة وقلق كبير للمفكرين في أجواء الاستبداد يمزقهم من الداخل.. نجد البعض من أسرة الاستبداد يتعزى بالدين ويعللون النفس بسعادة أخروية ويسلونها بالمثبطات تهون من حياتهم الذليلة وآخرون ينغمسون باللهو ومقارعة الخمر وآخرون ينغمسون بالقراءة المجردة هروبا من ضغوط الواقع الاستبدادي المرير والبعض لا يهب نفسه عبدا للمستبد لكنه لا يمانع من جعل أولاده عبيدا في أجهزة السلطة الاستبدادية.

للتخلص من الاستبداد يقترح الكواكبي رغم اعترافه بان الإنسان رغم مرور زمن طويل عليه لم يهتد إلى طريق مثالي في الحكم لان الحكم هي مشكلة قديمة وهي اقدم مشاكل البشر لكنه يصر بان الاصلح للحكم هو الجواب الحقيقي للمشكلة. هل هو المطلق أم المقيد؟

يرى الكواكبي: إن الأمة التي لا يشعر أفرادها بألم الاستبداد لا تستحق الحرية.

يقول الكواكبي في المستبد الظالم: (المستبد يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم. ويعلم من تفسه انه الغاصب المتعدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق الحق والتداعي لمطالبته.

المستبد عدو الحق، عدو الحرية وقاتلهما.. المستبد يتجاوز الحد لأنه لا يرى حاجزا فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفا لما اقدم على الظلم.. المستبد إنسان.. يود أن تكون رعيته كالغنم ذرا وطاعة وكالكلاب تذللا وتسلقا.. وعلى الرعية.. أن تعرف مقامها، هل خلقت خادمة للمستبد أم جاءت به ليخدمها فاستخدمها.. الحكومة المستبدة تكون طبعا مستبدة في كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطي الفراش إلى كناس الشوارع ولا يكون كل صنف إلا من اسفل الأهل طبقته أخلاقا. لان الاسافل لا يهمهم جلب محبة الناس إنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته

وأنصارا لدولته.. وبهذا ويأمنهم ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه وهذه الفئة المستبدة يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته. فكلما كان المستبد حريصا على العسف احتاج إلى زيادة جيش المتمجدين العاملين له والمحافظين عليه واحتاج إلى الدقة في اتخاذهم من اسفل السافلين الذين لا اثر عندهم لدين أو وجدان... أن يكون اسفلهم طباعا أعلاهم وظيفة وقربا.

(3)

من ابرز النتائج للسياسة الاستبدادية: الإرهاب.

والإرهاب، هذه الكلمة تحتمل قدرا من الخداع.. فتعريف الإرهاب اصبح جزءا من مناورة السياسية الاستبدادية وكنتيجة لها. هل يعني الإرهاب هو العنف ضد الخصوم والمعارضين؟ هل هو الوسيلة الخاصة للمستبد من اجل خلق الرعب والخوف ونشرهما..

في عام 1975 إلى 1983 ذهب اكثر من ثلثي صادرات أسلحة العالم الثالث إلى أنظمة حكم تستخدم العنف ضد مواطنيها كسياسة ثابتة لها..

الفاشية الجديدة تتمثل في إقامة ديكتاتورية استبدادية تجمع بين وجود الزعامة القوية والانضباط الصارم وترتكز على مفهوم: القوة هي الحق. وهذا الصنف من الحكام ينظر إلى الديمقراطية باعتبارها منزلقا سيؤدي إن آجلا أو عاجلا إلى.. الحرية (؟؟) والى تآكل النظام القائم وتفتت الهيأة الاجتماعية (؟؟) ويؤمن بدور النخبة العسكرية القوية.

بعض الحكومات الاستبدادية تمارس العنف (المؤسساتي) مباشرة أو غير مباشرة.. ويستهدف فرض الامتثال الاجتماعي.. ويستخدم هذا النوع من الحكومات الشعارات الفضفاضة مثل (مكافحة الشيوعية) قبل انهيار الأنظمة والأحزاب الشيوعية العالمية.. يمكن اتهام (52) دولة من بين دول العالم الثالث البالغ عددها الإجمالي (114) دولة بممارسة إرهاب الدولة.

إن نموذج إرهاب الدولة أو دول الفاشية الجديدة تتميز بخصائص اقتصادية واجتماعية متشابهة ففي اغلبها تتوفر ثروات معدنية أو زراعية هائلة وتمارس سياسة اقتصادية مفتوحة في وجه الاستثمار الخاص.. وتتميز بالنهب الاقتصادي فيها وتزايد المديونية وتحت ضغط شروط سدادها تستفحل الصراعات الاجتماعية وتتورط حكوماتها بمغامرات ذات طابع عسكري وبسبب عجزها عن توفير الحاجات الأساسية للشعب تضطر إلى فرض إلى الهروب إلى الأمام كسياسة معلنة بالقوة وكلما أوغلت في هذا السبيل كلما سارت في اتجاه إرهابي متزايد.

باحث مرموق في مجال حقوق الإنسان لخص خصائص الدول الإرهابية الحديثة:

- تتميز بدهاء واسع في استعمال الإرهاب المنظم.

- تشترك مع الفاشية القديمة في بعض الخصائص: الدولة البوليسية/ رقابة الدولة على الاقتصاد/ تحالف الطبقات المالكة وبعض شرائح البرجوازية الصغيرة ضد الفلاحين الفقراء والعمال والقوى التقدمية.

- إنها خلافا للفاشية السابقة والنازية ليست معادية للسامية بل تقيم علاقات وطيدة مع (إسرائيل).

- ولا توفر على زعماء قادرين على تعبئة وطنية والحصول على تعبئة جماهيرية عفوية أو مبدئية.

- لا تجند الفائض الوطني لرخاء المجتمع بل تسعى إلى تحطيم اقتصادها الوطني وإفقار أغلبية السكان ورهن البلاد بأيدي الدائنين.

- لا تملك أيديولوجية خاصة بل تتشبث بمفهوم الأمن القومي المرتبط بأفكار الحرب الباردة فتنظر إلى الدولة كشيء مطلق والفرد لا أهمية له وتفترض إن هناك حربا دائمة بين الحرية والديمقراطية.. بين الاستقرار والشغب.. بين الأمن القومي والفوضى.

- وتشترك هذه الدول الفاشية الجديدة في علاقات خارجية متشابهة فهي من زبائن الولايات المتحدة اقتصاديا وستراتيجيا وثقافيا ولديها ضباط يتلقون تدريبات في أكاديميات مكافحة الثورة.. خلال أواخر عقد الستينات ظهر هذا النموذج حسب رأي الباحث المذكور حين كان انتباه العالم مركزا على حرب فيتنام والصراع العربي الصهيوني وهزيمة حزيران عام 1967 حيث جرى التطور المشؤوم الذي هو ظهور هذه الأنظمة وقد ظهرت جلها اثر انقلابات عسكرية حينما تزايدت المطالب الشعبية وأصبحت تهدد المصالح الأجنبية.

تتميز هذه الأنظمة التي يسميها الباحث (سيفان اندن) بالدول الفاشية الجديدة بالتنمية المحلية والمحتلة عضويا حيث إن النموذج الاقتصادي المفروض فيها هو رأسمالية غير مرفقة بثقافة رأسمالية أو ديمقراطية رأسمالية وينتج عن ذلك نظام غير مدعم بالثقافة أو مشروع سياسيا فالسلطة السياسية والمجتمع المدني بعيدان عن بعضهما في صراع أساسي وربما ان المؤسسات السياسية يجري قمعها أو تمييع دورها كالنقابات

والأحزاب فان الثقافة والدين يمنحان أقوى وسائل التعبير عن المقاومة وهو ما يسمى مثلا في أمريكا اللاتينية بـ(لاهوت التحرير) حيث انه أمام الظلم الصارخ تجندت الكنيسة للوقوف إلى جانب المقهورين.. لقد كان سؤال الكنيسة للالتزام بالعدالة بسيطا وواضحا وحاسما : أمام هذا الظلم ماذا يقول الكتاب المقدس؟؟ والجواب واضح كالسؤال: ينبغي رفع الظلم.

وتصنف إرهاب الدولة من اخطر انتهاكات حقوق الإنسان وعلى رأسها حق الحياة. لان هذا الانحراف في ممارسة السلطة ينتشر كالسرطان في مجتمعات العالم الثالث وهو يدعم العنف البنيوي كما يذهب بأرواح الآلاف.. وهناك عدة آلاف من (المختفين؟) في سراديب وأقبية هذه الدول.. إن إرهاب الدولة يؤدي إلى سفك دماء كثيرة تضاف إلى ضحايا العنف الذي يناضل عدد كبير من (المختفين) و(المغتالين) من اجل إزالته والتخفيف من حدته.

الحكومات الاستبدادية، إن شئت تعبيرا أدق عنها فقل حكم مرده الأنس.. لما تضفيه عليها من قوة ومقدرة ومن جبروت تتضاءل أمامه الشخصيات حتى تتلاشى أو تطوي بين أصابع الحكام المستبدين.. مردة أو متجبرين.. قل ما شئت عنهم على سبيل المجاز.. هؤلاء المستبدين.. المردة والجبابرة.. عرفوا كيف يستغلون ما حولهم من ظروف وأحوال مواتية فتخطوا كل شيء.. لم تقف دونهم قوة من قانون أو تقاليد أو أخلاق بل مضوا يقبضون في صرامة على السلطة المطلقة.. حينما تنظر إلى موسوليني وهتلر وستالين لتعرف كيف حصل كل منهم على سلطته لا يمكنك أن تدرك ماذا فعلوا.. أحرفتهم الظروف فاستغلوها أم تلاعبوا بها فغيروا مجراها وفق رغباتهم؟ أم اجتمع العاملان معا على دفعهم وأمثالهم إلى قمة البغي والطغيان؟؟؟

إن صفحات التاريخ حافلة يسير الكثير من المردة الطغاة المستبدين.. لكننا لا نزال نجهل ما ينبغي أن يتوافر في المستبد من شروط وكل ما نعرف أن شخصيته ونظامه رهين كل منهما بالآخر.. الفاشية معروفة منذ فجر التاريخ ومظاهرها توجد في كل ما نسميه انقلابا في أنظمة الحكم التي تبدو بطيئة في أداء مهامها فإذا ما بدا التراخي والضعف في الحكومة وذلك ما يحدث في اكثر الديمقراطيات فهنا يظهر المارد يلهب ظهور ورجال الحكومة وسلطتها.. يقلب أوضاع الحكم من حال كانت فيها تحتضر إلى حال تبدأ فيها تنتعش.. هذا النظام الجديد قد يسمى فاشيا أو نازيا أو.. الخ.. يستند إلى قوة من حرس أو مخابرات أو أمن سياسي أو حزب أو أعوان.. الخ مما يروق ويعجب

النظام الجديد .. وأول درجة في سلم السلطة التي تطؤها أقدام المارد ليقفز إلى الاستبداد المطلق هي الأحزاب.. الأنظمة الحزبية.. وتتحول الدول تحت قبضة المارد: وزراء/ قادة حزبيون/ قادة الجيش والشرطة والأمن/ الموظفون الكبار/.. إلى مجرد تماثيل.. ممن تراهم في حركة ولكنهم لا يملكون الكلام وإذا تكلموا فإنما يفعلون ذلك لإثبات وجودهم.. رئيس الحزب هو فيه كل شيء.. اخطأ أم أصاب.. صاحب وحي يهبط عليه..

الديكتاتور والمارد المستبد هو دائما خبير بألاعيب الآخرين.. وخبير بألاعيب حزبه.. لأنه غالبا ما يقفز من بين صفوفه.. ويكون قد لمس مواطن الضعف فيه فيعرف كيف يكبح جماح الآخرين ويخنق أنفاس الطموحين.. ويتلاعب بالنفوس فيطويها تحت جناحه.. الديكتاتور القادم من صفوف حزبه، يمتلك قوته الخاصة.. وقادر على تنظيم رعاعه تنظيما يسهل عليه توجيههم وأيسرها ما كان عسكريا.. أو يعتمد على التحكم على (قوة خفيه) كسليمان الحكيم حينما سخر الجن هذا النموذج لا يهمه أن تكون أعماله وقراراته دائما على صواب بقدر ما يهمه أن تكون سريعة التنفيذ... والديكتاتوريات عامة شغوفة بالحرب وما اكثر ما كان هتلر وموسوليني يفاخران بالحرب ويهددان بويلاتها.. ذات يوم لاحظت كاترين الثانية إمبراطورة روسيا بعض القلق يساور شعبها فقالت: (دعونا نسليهم ونلهيهم بحرب صغيرة..).

الفاشية لا تؤمن بالسلام.. وهي تعتقد مثل بعض القبائل الأفريقية ترى إن عسل أسلحتهم لا يكون بغير الدماء. إن للدكتاتورية الفاشية مساوئ مريرة.. ربما اشدها تجرد الفقراء وتزيد ثراء الأغنياء.. يسلبون الفقراء الكثير من مطالبهم الإنسانية والضرورية كما فعل موسوليني حينما طالب بـ(محابس) الزواج (؟؟) أو هتلر الذي رفع شعر: المدفع قبل الزبدة.

والفاشية الجديدة تنقل الفرد من البداوة إلى أوهام الإمبراطورية.. و(تصنع) رجالها من بعضها.. وتهتم بمظاهر الابهة والعظمة والمجد حتى وان كلفها تلالا من الجماجم البشرية البريئة.

النظام الشمولي يذهب إلى تأكيد سلطان الدولة وامتداده ليشمل كل جوانب الحياة.. والأنظمة الشمولية تقوم أساسا على الديكتاتورية الفردية ومن ابرز أنواعها: النازية والفاشية والأنظمة القائمة على أساس النظرية الماركسية وهناك اختلاف واسع وعميق بين كلا النوعين.. والأنظمة السياسية في العالم الثالث تتشابه هي الأخرى في بعض ظواهرها مع النوعين السابقين.

الديكتاتورية لم تتغير إلا في بعض صورها وأشكالها عبر التاريخ.. والديكتاتورية سواء في الماضي أو في الماضي القريب أو في منتصف هذا القرن أو في الحاضر أخذت صورا متعددة.. فالسلطات المطلقة التي تمتع بها الأمويون والعباسيون والعثمانيون هي بذلك أنظمة ديكتاتورية متعددة الصور.. ما هو الأساس المشترك والخصائص العامة لجميع الديكتاتوريات؟

من الممكن القول (إن ثمة أساسا يوشك ان يكون مشتركا بين الأنظمة الديكتاتورية، للمذهب في موقف خاص أو تصور معين للدولة وموقف خاص أو تصور وهذا الأساس المشترك ساهم في إرسائه كثيرون من المفكرين ذوي الاتجاهات المعادية للديمقراطية..)

ويعتقد برتراند راسل إلى إن جذور الاستبداد والديكتاتورية تعود إلى كتاب (الجمهورية) لأفلاطون الذي حصر السلطة في أيدي أفراد معينين.. وعلى كل حال ان عبور الماضي في التاريخ السياسي العراقي والانتقال إلى العصور الإسلامية والوسيطة والحديثة فإننا نجد صورا للسلطة الديكتاتورية وبالإمكان وضع اليد على مفردات المذهب السياسي الذي يدعم الديكتاتورية.. وفي عصرنا الراهن يستمد الديكتاتور أصوله النظرية وممارساته من خلال التجارب النظرية والعملية لمكيافلي وستالين وهتلر وموسوليني.. هؤلاء جميعا وأسماء أخرى كانوا يمارسون الحكم على أساس واحد: ان السياسة لا تتقيد بالأخلاق..

هناك جملة موجزة تمثل التعبير الكامن والدلالة الواضحة عن منحى الديكتاتورية: لاشيء خارج الدولة ولا شيء ضد الدولة ولاشيء فوق الدولة ان الدولة الديكتاتورية لا تلغي الفرد بل هو كان ولم يزل جنديا في فوج.. والنظام الشمولي يؤمن بالفرد الممتاز ولا يؤمن بالمساواة بين البشر.. الناس ليسوا متساوين في نظر الديكتاتوريين وأصحاب المذهب الديكتاتوري.. ليس هناك مجالا لتطبيق القول الشهير: الناس سواسية كأسنان المشط.. الناس ليسوا كأسنان المشط في النظام الديكتاتوري..

من المضحك إن الديكتاتور في النظام الشمولي يعتقد هو والآخرون الذين يحيطون به بأنه أي الدكتاتور يجسد (أنبل) خصائص الأمة و(أعلى) سماتها وهو (البطل) الذي تتعلق به الأنظار والمنقذ الذي يعيد للامة مجدها.

يقول هيجل: إن الحرب هي التي تبرز أنبل سجايا الإنسانية.. بينما يقول موسوليني: إن السلام الدائم لا هو بالممكن ولا هو بالمفيد.. هذه نتائج التفكير في المذاهب الديكتاتورية التي تجد في العلاقات التي تحكم أممها بالأمم الأخرى هي علاقات الحرب وليس علاقات السلام..

وقد دشن هتلر الحرب العالمية الثانية وأباد الآلاف من الشباب الألماني تطبيقا للفكرة الديكتاتورية وبحروبه الدموية أنهى ألمانيا كدولة موحدة..

إن مراجعة معظم المقدمات النظرية لأصحاب المذهب الديكتاتوري ونتائجها تنتهي بنا إلى اعتبار التفكير السلطوي المستبد أو الديكتاتوري منهجا غيبيا أو محاولة للسقوط في الغيبيات وعالمها اللاعقلاني واللاعلمي والاستغراق في المحيط المثالي الغيبي على حساب الغيبيات ذاتها" وليس أدل على ذلك تلك الأوصاف التي يتفنن بإطلاقها الديكتاتوريين على الدولة..

الديكتاتور والديكتاتورية لا تؤمن بسيادة القانون ولا تؤمن بخضوع السلطة للقانون.. وتخرج هذه الأنظمة من مظلة القواعد القانونية لأنها أصلا تستخف بالقوانين لترتمي في أحضان النموذج البوليسي المخيف.. الديكتاتور يكره هيمنة القانون لان القانون سيحد من سلطاته ويعني ذلك إن القانون فوق كل مراكز القوة.. وفي النظام الديكتاتوري تبرز مراكز القوى بابشع صورها .. سواء كانت تلك المراكز نفسها قانونية كالأجهزة القائمة على التشريع والتنفيذ والقضاء أو مجموعات الضغط.. الدولة في عصر الديكتاتور لا تحتاج إلى القانون فـ(الديكتاتور) هو الدولة وارادته هي القانون والدولة تشخص تشخصيا كاملا في إرادة الدكتاتور.. ولا يمكن للقانون ان يمنع هذه الإرادة.. والأنظمة الشمولية هي أنظمة معادية للديمقراطية ولآراء الأغلبية.. والسلطة تكون في يد الفرد ومعاونيه على نحو مطلق وغير محدود .. ومن خصائص هذه الأنظمة إنها لا تسمح بوجود أحزاب متعددة وإنما تعترف بوجودها الحزبي الوحيد الذي يرتبط بشخص الفرد الحاكم.. ويقوم هذا الحزب الحاكم عادة على الإيمان الأعمى بشخص الحاكم والتعصب لكل ما يقوله ورفض المناقشة فيه واعتبار كلامه نوعا من الهدى في ظل النظام الشمولي نجد السلطة في كل ميدان من ميادين الحياة.. إذ انه لاشيء خارج الدولة أي خارج السلطة أي لاشيء بمنجاة منها .. ويترتب على ذلك إلغاء كامل للحريات السياسية ولا تبقى هناك إلا حرية واحدة مفروضة – إن جاز أن تكون الحرية مفروضة- هي الإيمان بالحاكم وما يقوله الحاكم وترديد أقواله باعتبارها الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. يذكر د . يحيى الجمل: (ويصاحب ذلك عادة انه إلى جوار وضع الهالات الضخمة حول الزعيم يشاع نوع من التوتر والرعب بين الناس يجعلهم في خوف مقيم لا يأمنون معه على أرواحهم ولا حرياتهم ولا يعرفون من اين يأتيهم الخطر وهم لا يشعرون.) صورة الرعب في النظام الشمولي: اعتقالات جماعية/ محاكمات صورية/ إجراءات تعذيب بالغة القسوة.. الخ. صورة الفرد في النظام الشمولي: فقدان الحريات

والحقوق الفردية لا يستطيع مواجهة السلطة شاملة جامعة ولا حدود لها ولا قيود عليها/ الفرد ليس هدف الدولة بل هو خادمها.

صورة أدوات النظام الشمولي: أجهزة القهر العلنية/ أجهزة القمع السرية ذلك لما للدولة من إمكانية في إثارة الرعب اكثر من غيرها ذلك لان المجهول اكثر إثارة للخوف من غيره كما إن الإنسان في مواجهة المجهول يشعر بالعجز أو بنوع منه..

في النظام الشمولي قاعدة استبدادية عتيدة أرساها الكاتب (كارل شميدت): ليس في السياسة خير وشر ولا جمال ولا قبح وإنما هناك صديق وعدو.. للصديق كل شيء ومع العدو يباح كل شيء.. وكارل شميت من كبار المنظرين النازيين وهو من أسوأ الكتاب الانتهازيين.

الحاكم الشمولي أو الديكتاتور يحتقر الشعب ويخشاه في آن واحد.. فانه إلى جوار القمع والإرهاب والرعب والخوف يعمد إلى الهاء الشعب عن حقيقة ما يعانيه (وقد يكون الإلهاء في صورة أفكار ضخمة تستحوذ على خيالات الناس وتشغلهم عن حقيقة ما هم فيه). ويمكن لي بلا مبالغة أن اسمي هذه الأنظمة بأنظمة (اجندة).. أي التي تمكنت من تنظيم ودراسة خطواتها بما يمكنها ان تبهر الناس وتعطل تفكيرهم.. والإعلام يقع في أولويات (الاجندة) العقائدية.

في بلدان العالم الثالث لا تستطيع الديكتاتوريات والأنظمة الفردية أو الشمولية أن تحقق للبلاد رغباتها الحقيقية أو إحداث تغيير جذري في شتى جوانب الحياة..

إن الديكتاتورية بما تقوم عليه من تسلط وإرهاب ومصادرة للحريات وللفكر الإنساني الحر تنتهي إلى حجر ثقيل.. نوع من حجر يمنع الشعب من النمو والانطلاق ويكرس التخلف والقصور..

(4)

في حديث مروى عن عمر بن الخطاب إن جبريل آتى إلى الرسول ﷺ بينما كان عليه السلام جالس مع رهط من الصحابة الكرام وسأله جبريل وهو على هيئة رجل شديد البياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه اثر السفر، ولا يعرفه منا أحد.. وثمة أسئلة أجاب عنها الرسول الكريم ومن تلك الأسئلة ان جبريل سأل الرسول الكريم عن الساعة:

جبريل: فاخبرني عن الساعة؟

قال الرسول الكريم: ما المسئول عنها بأعلم من السائل.

جبريل: فاخبرني عن إمارتها؟

قال الرسول الكريم: أن تلد الأمة ربتها، وان ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطالون في البنيان.. وحسب تفسير (الأزهري): يعني ان الاسافل يصيرون أصحاب ثروة ظاهرة..).

فلو كانت الدنيا جزاء لمحسن أذن لم يكن فيها معاش لظالم

لقد جاع فيها الأنبياء كرامة وقد شبعت فيها بطون البهائم

أو:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا فالظلم أخره يأتيك بالندم

نامت عيونك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقال الإمام علي:

يا أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله فان الناس قد اجتمعت على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل..

أو:

إذا تغير السلطان تغير الزمان..

أو:

لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولي عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم..

أو:

يأتي على الناس زمان لا يقرب فيه إلا الماحل ولا يظرف فيه إلا الفاجر ولا يضعف إلا المنصف..

أو:

ينبغي لمن ولي أمر قومه أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعيته وإلا كان بمنزلة من رام استقامة ظل العود قبل أن يستقيم ذلك العود..

أو:

من صحب السلطان وجب أن يكون معه كراكب البحر، ان سلم بجسمه من الغرق لم يسلم بقلبه من الغرق..

أو:

السفلة إذا تعلموا تكبروا وإذا تمولوا استطالوا والعلية إذا تعلموا تواضعوا وإذا افتقروا صالوا..

أو:

ما وجدت نعمة موفورة إلا وبجانبها حق مضيع..

أو:

عجبا لسلطان كيف يحسن وهو إذا أساء وجد من يزكيه ويمدحه..

أو:

أصحاب السلطان في المثل كقوم رقوا جبلا ثم سقطوا منه فأقربهم إلى الهلكة والتلف أبعدهم كان من المرتقى..

(5)

هل بمقدور المستبد أن يجعل الحياة جيفه والشعراء والكتاب حولها كلاب؟

إذا، على هذه الكلاب أن يقاتل بعضها بعضا..

هل تحتاج الديكتاتورية إلى كتاب وشعراء ومثقفين..

إن الديكتاتور وبكلابه.. يضللون ولا يرشدون..

والطغاة الذين يستحقون النصيحة واحيانا العقوبة كان يتملقهم الكتاب والشعراء.. الكتاب ينشرون درر الكلمات والشعراء يؤلفون القصائد الطوال في مديحهم.. من يؤيد عار الديكتاتورية؟ أهم الشعراء؟ أم الشرطة.. الشعراء الذين يقفون مع الديكتاتور، يعرفون في أعماقهم، انهم يفقدون أنفسهم.. لكنهم يتملقون الدكتاتور ولا يقودون الناس.. الناس تريد أدباء وكتاب وشعراء ومثقفين لا يرفضون تملق الديكتاتور فحسب بل يرفضون تملق جماهير الديكتاتور..

سلامة موسى كتب قبل سنوات طويلة هذه العبارة: (إن الإنسان عليه أن يمارس حياته..) الطاغية يسعد بالثراء الروحي لخصمه.. ويدرس آثار شهداء وضحايا طغاة آخرين.. باختصار يقلب صفحات طغاة سبقوه.. وضحايا مشوا إلى الثرى في زمان غير زمانه..

معاوية بن أبى سفيان تمنى أن يصاهره عروة بن الورد..

وعبد الملك بن مروان، هو الآخر تمنى أن يلده عروة وهما ما هما..

في زمن الطغاة السذج، يعيش الصعاليك.. فقراء.. وفي تاريخنا أسماء اكثر واكبر للفقراء من طغاتهم.. عروة وتأبط شرا والسليك والشنفرى.. ذئاب.. هكذا سماهم التاريخ لنا.. ذئاب الفقراء الذين اقضوا مضاجع الطغاة السذج.. فقراء لكنهم نبلاء.. لم يتملقوا ويضللوا.. جاعوا وحاربوا.. نهبوا وسلبوا.. غير انهم لم يمدوا أيديهم للطغاة.. للمال الحرام.. يختطفون حقوقهم كما تختطف الذئاب.. يعيش الطاغية مادام شعبه جائعا ولان الجوع فقرا.. فالفقر صعلكة.. يعمر الطاغية في الحكم مادام الناس لا يجدون ما يأكلون وإذا وجدوا فثمة حيز ما يحفز.. والطاغية يكره التحفيز.. في الماضي، كان شيخ القبيلة هو طاغية صغير.. يأخذ من الغنيمة حصة الأسد.. والناس لا يأكلون إلا الفتات.. ماذا يريد الطاغية من الجماهير أن تصنع بمجاعتها وفقرها وقهرها؟

اكبر ميزة لعروة، انه كان رجلا يشعر بالناس اكثر مما يشعر بنفسه..

الصعاليك أو أحرار الفقراء.. لم يطلبوا الحياة بالمديح.. لم ينقادوا وراء شيوخ القبائل وصرر المال.. الطغاة يشكون، حتى بأنفسهم.. يشكون بأقرب الناس إليهم.. والخلفاء من الطغاة، مرت بهم أيام شككوا وشكوا بقضاة دولتهم.. وبعض الطغاة في العصر العباسي، لكي يرتاحوا من هاجس الشك، ابتدعوا ديوانا سموه: ديوان المظالم يرأسه الطاغية..

الطغاة يلهون، ويبتكرون سبلا للهو.. يزيد بن معاوية، اشد طغاة بني أمية، كان كلف بالصيد.. وكان يلبس كلابه الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منها، ويهب لكل كلب أنسانا يخدمه.. والطاغية، يكون (صغير) العقل.. يروى إن الملك المنصور الأيوبي صاحب حماة لبس ملابس (الفتوة) بأمر الناصر لدين الله ومنع الرمي بالبندق في جميع البلاد إلا له.. وأجاب الناس بالعراق ما خلا رجلا واحدا راميا بالبندق من أهل بغداد فانه امتنع النزول إلى أمره وهرب إلى العراق فأرسل إليه الخليفة يغريه بالأموال الجزيلة فلم

يرضخ وقال البغدادي متحديا الخليفة: يكفيني فخرا انه ليس في الأرض أحد لا يرمي عن الخليفة إلا أنا ..

والطاغية يميل ميلا شديدا لمعارضة ما هو طبيعي في حياة الناس وقيمهم حتى لو اقتضى ذلك مخالفة تعاليم الدين.. إذا أراد أمرا كان.. وأفكاره يجب أن تأخذ مجراها.. الناصر لدين الله.. عسكر البلاد واخضع الناس في زمانه إلى الروح العسكرية.. واجبرهم على ارتداء ملابس الفتوة.. أرغم الحكام والأمراء وابناء الشعب على شرب الماء والملح واخترع (سندا) شرعيا يتصل إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) رغم إن ابن تيمية أجاب في فتوى شهيرة ببطلان ملابس الفتوة واسقاء الماء والملح وبأنها عمل باطل لا اصل له ولم يفعل رسول الله ما فعله الخليفة ولا أحد من الخلفاء والصحابة ولا علي بن أبي طالب (ع) ولا غيره من التابعين وما يذكر عن الإسناد الذي يبدأ بعلي وينتهي بالخليفة إسناد لا تقوم به حجة.. لكن الناصر كان يريد متطوعين وجنود لمواجهة الحروب الصليبية ولم يعر أهمية لفتوى ابن تيمية.. وابن الوردي هاجم الفتوة واعتبرها بدعه وفكرة وإنها من أهل الجهال والجهل والابتداع والضلالة ويجمعون لها الغلمان المرد واللوطيين.. ويروى الجبرتي إن أحد المماليك رأى على عضو زوجته كتابة فسألها عنه فقالت له قد كتبها الشيخ حامودا المنجم ليحببك في فقال لها انه إذا رضى ان يطلع على عضوك، ثم امسكه وقتله وشهر به.. وفي عهد الاحتلال الفرنسي عندما ازداد بطش الفتوة المصرية قضى عليها الفرنسيون بالعصي والسكاكين والمدافع ولم ترج هذه الأساليب سلطوا عليهم الحشيش والخمر.

كان أبو ذر الغفاري في الشام ينادي بالمساواة وينذر الذين يكنزون الذهب والفضة بالعذاب ويتلو قوله تعالى (ان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم) وقام بتأليب الناس على معاوية حتى شكاه لعثمان فنفاه عثمان إلى الربذه.

ومرة جيء بحانق من عامة الناس إلى الرشيد إذ كان دخل الأخير يوميا 100 ألف درهم فقال الحانق للرشيد : أني لا أجد نصف درهم في اليوم اعتاش به وأنت تقبض مائه ألف لا تدري كيف تصرفها؟

(6)

نسأل أنفسنا بعد هذه الصفحات: ما العبرة التي نخرج بها في خاتمة المطاف؟

نقول: إن السلطة ضرورة إنسانية عندما تكون لخير الإنسان ومن اجل تقدم

الإنسان.. ولكن المعضلة هي ذلك السؤال الخالد: كيف تكون ممارستها ؟؟ وفي التجارب الإنسانية اكثر من إجابة على هذا السؤال الخطير..

إن المعضلة الحقيقية تكمن في ذلك الفرد الذي يمارس السلطة باعتبارها (غاية) في ذاتها فيقلب الأمور إلى فواجع ومآسي..

ومن اجل أن تكون السلطة في احسن أحوالها.. يجب أن تمارس ممارسة مفتوحة وليس وراء الكواليس والأجهزة القمعية والظلام.. ممارستها تحت قيود: الرقابة والحرية الإنسانية هي الرقيب الوحيد الذي يمنع ظهور الديكتاتور الذي يعني: انهار من الدماء والمخاوف والرعب والفقر ومسخ آدمية الإنسان..

كتب الطاغية موسوليني عام 1924 تعليقا على كتاب (الأمير): حدث ذات يوم إن أفادني رجال من فرق القمصان السود إن سيفا سيهدي إلي منقوشا عليه قول ميكيافلي: (ليست المحافظة على الدول بالكلام).

كان كتاب الأمير موضوع رسالة موسوليني لنيل درجة الدكتوراه..

وكان هتلر يضع (الأمير) تحت وسادته عند النوم.. الطغاة المعاصرون قرءوا الكتاب جيدا واستوعبوا مراميه.. إن قيمة المذهب السياسي لكتاب الأمير لا تتحدد على العصر الذي كتب فيه.. ونصائح مكيافلي ذات فائدة لرجال الحكم حديثي العهد الذين يطمعون إلى الاستبداد أو انهم في الطريق إلى الديكتاتورية.. إذا كانت السياسة، في الماضي، هي فن حكم البشر، فإنها من وجهة نظر المستبدين الجدد سوى وسيلة لجعل الإنسان جوهر هذا الفن..

الطاغية يكره البشر.. هذا قانون الاستبداد.. والطاغية العنيف في سلوكه السياسي يحتقر البشر.. الطاغية ينظر إلى الناس انهم: خبثاء، أصحاب مصالح أنانية، يغيرون مبادئهم وعواطفهم ويتخلون عن قيمهم وأسرار حياتهم الخاصة بسبب تمسكهم بالمكاسب المادية التي يمنحها الطاغية لهم..

الطغاة يزرعون قيم الاستبداد الجائرة في المجتمع محل القيم الأصيلة والشريفة ومن بعد أن يتلوث المجتمع برمته يأخذ الطاغية بشتم شعبه واحتقاره باعتباره شعبا ناكرا للجميل، متقلب، متجنب للمخاطر، ناكر للجميل، شديد الطمع، يتمسكون بالحاكم ما دام الأخير يفيدهم ويبذلون الدماء والحياة من اجل الطاغية مادامت يد الطاغية في فم الشعب.. يلجأ بعض الطغاة إلى عقد الصداقة مع صنف من الشعب ليوسع من دائرة

الولاءات له.. صداقة قائمة على أساس المال والطمع، وهي بالتأكيد صداقة لا أساس لها من النبل وعظمة الروح الإنسانية.. صداقة زائفة، مرحلية، تعقد بالمال وحده وليست أمنية موثوقة.. رغم إن هذه الصداقة من وجهة نظر الطاغية ترتبط بسلسلة من الالتزامات.. كتاب الأمير، وضعه ميكيافيلي، للاستعمال.. أداة للدكتاتور.. وغدا مرجعا لكل طامح في السلطة.. وأفكار الكتاب تستهوي المغامرين السياسيين على حد سواء..

ثمة ثلاثة شروط يلتزم بها الدكتاتور ويطلب توفرها لكي يقبض على السلطة المطلقة:

1- الإخلاص لنظام الدولة

2- الكفاءة لاداء مهام الوظائف بعد اختياره العناصر المخلصة له

3- العدالة في المعنى الذي يتفق مع نظام حكمه

ويناضل الديكتاتور من اجل تعليم شعبه (حب) دولته..

مشكلة الدكتاتور انه يفترض –وهذا صحيح– إن غالبيه الناس ليسوا من المرائين والمنافقين والكذابين والمخادعين وانهم تبعا لذلك لا يشكون في نواياه.. وعندما يمارس الطامع بالسلطة المراء والنفاق والكذب والخدعة والحيلة ضد شعبه ورفاقه وأنصاره وأعوانه بدرجة عالية من الذكاء والبراعة، تتوقف هذه الجهود عند نتائج معينة وهي الحصول على سلطان مطلق، ولكن سرعان ما يفقد الدكتاتور (خيوط) لعبته عندما يلجأ أنصاره وأعوانه وشعبه كله إلى نفس أساليبه ويستخدموها بنجاح.. تلك معضلة الطاغية.

شامل عبد القادر

بغداد - صيف 2011

الفصل الأول

لما علم الله إن الطغاة وحوش كواسر، ضررها اكثر من نفعها، قلل من نسلها .. ويقال بعد خروج إبليس من طور الملائكة وصار طاغية- شيطانا، هبط من الجنة ونزل بأرض العراق نحو البصرة.. ولم يملك الدنيا من طغاة العالم القديم غير شداد بن عاد والنمرود.. وان شداد كان مولعا بمحاولات تقليد الرب ببناء جنة فخطر بباله أن يجعل له في الدنيا جنة مثل جنه الرب.. والنمرود عندما اخبره الكهنة انه سيولد هذه السنة مولود يكون هلاك النمرود على يديه فلما سمع بذلك أمر بذبح كل مولود يولد في تلك ألسنه وأمر بعزل الرجال عن النساء وجعل على كل بيت حارسا ..

أول طاغية تجبر في الأرض هو النمرود ..

وفرعون.. طاغية مصر.. في عهد موسى.. قتل اكثر من 12 ألف طفلا، فضجت الملائكة إلى ربها .. وقتل امرأة تعمل في خدمة ابنته إذ سمر يديها ورجليها بمسامير في الأرض واتى بأولادها وذبحهم على صدرها .. والمسكينة تقول: الحمد لله.. وهو يصرخ بها : اعترفي بي ربا ..

تقول الكتب المعنية بأخبار الأولين.. أم إبليسا، الطاغية- السماوي- الأرضي، بقي عشرة سنوات في طاقم الحكم ثم تحول إلى شيطان رجيم.. بعد أن استتب الأمر له.. وراح يكشف عن صلفه وغروره وجبروته.. والطغاة ينكرون في بداية أمرهم، قدرة الله عليهم، وهم يستهزأون بالناس: لم يبق في أصلاب الرجال ولا في بطون النساء من تستجاب لدعوته عند الله.. ما دمت حيا، فان الرب اعقمهم.. والطاغية يعشق المرأة قبل أن يسمع بها .. ويتزوجها قهرا..

غالبيه طغاة الشرق القديم، من أصول وضيعة.. هذا فرعون مصر.. صنع له الناس حكاية عن اصله.. تقول الحكاية التي ألفها الشعب انتفاضا من فرعون: إن فرعون مصر في عهد موسى كان شقيا صاعيا اشتغل في مهن حقيرة، وف المقابر، حتى قيض له أن يكون جنديا في الحرس الإمبراطوري ثم أمينا على حرس الملك.. ثم قتله فرعون وصار ملكا على مصر ويقال كان اسمه (فر عون) ولكثرة فراره من دياره سمي ب(فر) عون وكان يتستر بخرقه لا تواريه ومولع بالقمار ولم يتقن أي صنعه حتى يأست منه أمه في تعلم

مهنه النجارة وفشل فيها كذلك وكان يقامر حتى باع ثوبه ولم يستطع أن يتستر فاستحى من الناس فهرب على وجهه فقيل (فر) (عون)..

في عصر أي طاغية، إلى جوار ظلمه، ينمو حكيم للشعب.. احيقار، ثمرة راقية، لعبقرية عراقية قديمة.. عاش في عهد سنحاريب واسرحدون، اللذان اشتهرا بكونهما أقوى طغاة العالم القديم.. ترك احيقار كنوزا من المأثورات والحكم.. قيلت في وقت احتاج لها الشعب في ظلام العبودية والقهر.. الكلمة كالطير إذا أرسلتها فلن تستطيع اصطيادها ثانية.. وثورات المقهورين، مثل شجرة التوت، تنمو مثلها بهدوء، وتأني ورغم إنها تورق آخر الأشجار، لكنها تطعم قبلها جميعا.. وان بيت الأشرار يدك يوم الزوبعة وفي اليوم الهادي تسقط أبوابه.. وناعم لسان الملك ولكنه يكسر أنياب الافعوان كالموت الذي لا يرى.. إذا العرش قام أولا على الكذب فالكذب سيبصق بوجهه.. يا بني لا تذع كل كلمة ولا تفش كل أمر يخطر لك لان في كل مكان عيونا وآذانا فاحفظ لسانك مراقبا ولا تدعه أن يدمرك.. إن دمار الفم اشد خطرا من دمار الحرب.. ووصف أخلاق طغاة عصره بلغة أدبية رائعة وظف الحكاية كمغزى: دخل كلب إلى فرن الخزاف ليتدفأ وبعد أن دفئ نهض لينبح على الخزافين.. وكان الخنزير ذاهبا إلى الحمام ولما رأى حماة وحل نزل فتمرغ بها ودعا أصحابه أن يتمرغوا..

عاش احيقار الحكيم في عهد الملكين الآشوريين سنحاريب واسرحدون.. ومأساة احيقار تتلخص بأنه كان مستشار الملك سنحاريب ثم الملك اسرحدون، لا ولد له لذا تبنى ابن أخته واسمه نادن وراح يسعى رويدا رويدا لكي يوليه المنصب الذي يحتله لكن ابن الأخت يعمل على الإيقاع بخاله ومربيه حتى يأمر الملك بقتل احيقار ولولا رأفة الملك لقتل هذا الحكيم فعلا رغم ما قيل بان رأفة من كلفهم الملك بتنفيذ الأمر حال دون قتله وأبان هذه المحنة القاسية التي عاشها احيقار راح فكره يتفجر بالحكم والعبقرية والخواطر والتأملات التي تصلح لكل زمان ومكان.. يخاطب احيقار ربيبه نادن بألم: (يا بني لجلستك على كرسي الوقار وأما أنت فقد طرحتني من كرسيي فصرت لي يا ابني كالعقرب.. كنت لي يا بني مثل رجل رأى رفيقه يرتجف من البرد فاخذ قربه ماء بارد وجهها إليه.. كنت :أسد ربط إلى جانب الثور فالتفت الأسد وافترسه.. كسوسة الحنطة أفسدت اهراء الملوك وهي حقيرة الشأن.. كقدر ركب له قبضتان مما ذهب ولكن أسفله لم ينظف من السواد.. كتيس ادخل رفاقه إلى السلخ.. هل ربيتك أيها الثعلب لتكون عيناك ناظرتين إلى التفاح؟..)

وأخيرا يطبق احيقار إنذاره الشهير لكل طغاة الأرض قائلا: (ومن حفر حفرة لأخيه يملؤها بقامته..).

السومريون.. من اقدم شعوب الأرض التي أسست حضارة أصيلة في جنوب العراق وقد سكنوا المنطقة الممتدة من عفك وفي حدها الشمالي.. ويعرف عن السومريين انهم - من خلال ما تركوه من آثار- من سكان المناطق الجبلية في شمال العراق.. فقد لاحظ الاثاريون -كم كتب د. سامي سعيد الاحمد- وجود صور في الأختام الأسطوانية لأشجار مثل السرو والصنوبر لا تنمو في جنوب العراق بل متوفرة في شمال العراق وكذلك صور لحيوانات مثل الغزلان الجبلية والماعز الجبلي ذي القرون الطويلة وهي من حيوانات المنطقة الشمالية ولا اثر لها في الجنوب وافترض آخرون من تشييد السومريين للزقورة (البرج المدرج) في معابد، مجيئهم في منطقة جبلية، كما استعمل السومريون الرمز (كور) للدلالة على البلد والجبل بنفس الوقت مما اعتبره البعض كدليل على قدومهم من بلد جبلي، وكل هذه الأدلة تنطبق على شمال العراق وإذا أضفنا -حسب قول الاحمد- إليها حقيقة كون الحضارة السومرية امتدادا للحضارات التي شهدها العراق في عصور ما قبل التاريخ ابتداء من جرمو، حسونة، سامراء، حلف، العبيد والشبه الكتابي فيكون السومريون عراقيين انتقلوا من شمال العراق إلى جنوبه في الغالب خلال عصر العبيد.

يقول الدكتور الاحمد: قسم المؤرخون المحدثون تاريخ السومريين إلى فترتين متميزتين هما العصر السومري القديم (280-2400 ق.م) وفيه ثلاثة أدوار متتابعة ومتميزة حضاريا أطلقوا عليها عصور فجر السلالات: الأول والثاني والثالث.. لان البلاد كانت في فجر حياتها السياسية دون وحدة شاملة لدويلات المدن.. ثم العصر السومري الحديث المتمثل في سلالة اور الثالثة (2113-2006 ق.م) وسلالة لكش الثانية التي اشتهرت بحاكمها (كوديا) الذي حكم في الفترة (2153-2133 ق.م).

في تلك الفترة، عرفت قوائم بأسماء الملوك.. والحكام.. الذين تداولوا حكم المدن.. الإثبات السومرى يشيران ملوكا حكموا قبل الطوفان.. ومجمعهم خمسة ملوك.. حكموا خمسة مدن، أعطوا لهم سنوات حكم خيالية مجموعة (241/200) عاما .. يقول الإثبات السومرى: إن اريد وحكمها ملكان لمدة 64/800عاما .. (؟؟) ثم (باد تبيرا) أو (تل صفر حاليا) حكم بها (3) ملوك لمدة (108) آلاف سنة ثم (لرك) التي حكمها ملك واحد لمدة (28) ألف سنة ؟؟ ثم (سبار) قرب اليوسفية التي دام حكم ملكها الواحد(21) ألف سنة (؟؟) ثم (شروباك) قرب السماوة التي حكمها (اوبرتوتو) لمدة (28/600) سنة ؟ تلاه (زيوسودرا) وهو (اتنابشتم) بطل قصة الطوفان في النص البابلي ..

ورغم الأرقام غير المقبولة لازمان حكم (ملوك) العراق القديم لكنها تضع أمامنا حقيقة وجذر تاريخي للحكم الاستبدادي في العراق.. إن الشعوب تنسى ازمانها في عصور الطغاة. الشعوب مثل السجناء ، يفقدون الإحساس بالزمن ، في ظل الاستبداد ، فيلجأون إلى الحدس ..

إن الحاكم في كيش والمدعو (ايتانا)، اول ملك عراقي بعد الطوفان.. ومعه هبطت الملكية المستبدة من السماء لكن (ايتانا) جرح وظل ينزف دما حتى مات دون أن عليه (آلهته) التي أنزلته من السماء مع حكمه الإلهي المطلق؟؟

انتقل الحكم من كيش إلى مدينة اوروك، قرب الخضر، وحكم بها : 12 ملكا أولهم (مسكيا اكشير) ابن الإله اوتو (الشمس) مما يدل على تقديسه (؟).. ثم ابنه (انمركار).. ويذكر النص: إن الملك احتل قسما من بلاد فارس (؟) ثم جاء الملك (لوكال بندا) الذي جعلته القصص والدا لكلكامش ووضعه الكهنة في مصاف الآلهة (؟؟) ثم أعقبه (دموزي) أو (تموز) وهو صياد سمك من مدينة (كوا) ؟؟ ووضع هذا الصياد البائس أمام اسمه إشارة الإله (؟) ليضمن لنفسه سموا لمكانة حسب معتقدات العراقيين في ذلك الوقت السحيق، وجعل من شخصيته طقسا للزواج السومري وسمي باسمه الشهر الرابع من السنة ونشر الكهنة بين العراقيين قدرته على قهر الموت (؟).ثم كلكامش البطل السومري المعروف الذي خلدته الملحمة المعروفة باسمه.. وهو أيضا بذل محاولة يائسة لـ(قهر) الموت والحصول على (الخلود) لكنه فشل في اللحظات الأخيرة ؟؟... والملاحظ في فترة حكم كلكامش إن مجلسا يسمى (مجلس شباب اوروك) هو الذي كان يستشيره الملك إضافة إلى مجلس آخر يدعى (مجلس المسنين).. ثم تأسست بعد اوروك (لاور) او (الميكر) قرب الناصرية التي اسسها (ميساء نيبادا) وكان معاصرا لكلكامش فترة من الزمن.. عثر في مقبرة اور الملكية على (16) قبرا ملكيا ولكن بـ(3) اسماء ملوك فقط وملكة واحدة هي (بو آبي).. ويقول الاحمد : لقد قرأوا اسمها خطأ شبعاد (؟)... من الامور المفزعة والمروعة في معتقدات العراقيين القدامى في هذه الفترة انهم -أي الملوك- كانوا يدفنون معهم الخدم والاتباع من الرجال والنساء وكذلك الحيوانات وهم احياء جميعا (؟؟؟) لانهم اعتقدوا ان الحاكم يحتاج هؤلاء الاحياء -الاموات بعد (استيقاظه) من الموت المؤقت.. لذلك عثر المنقبون في مقابر الحكام العراقيين مثل مدفن الملك (ميس كلامدوك) على هياكل (40) شخصا (؟) دفنوا مع الملك.. وفي قبر اخر (59) هيكلا من بينها (6) هياكل جنود وبقايا عربتين (؟) ووجد هيكل الملكة (آبي) مع عدة هياكل لاتباعها ؟؟

منذ زمن سحيق والعراقي يعتقد ان حكامهم (مختارين) من الالهة، من مجلس الهي، يضم الالهة العظام ومن هذا المعتقد استمدت (الاستبدادية) في العراق جذورها، واجتهد الحكام والكهنة في تفسير وترتيب (قدسية) الحاكم المختار من الالهة ؟؟ والاله السومري الذي اتكأت عليه (الاستبدادية) هو الله نفسه اتخذ منه الامويون والعباسيون والعثمانيون غطاءا (شرعيا) للسلطة الاستبدادية في حكم العراقيين لفترات طويلة جدا.. كان الملك العراقي السومري، عادة، يورث عرشه لاولاده من بعده.. ونادرا مانجد ملكا عراقيا في العهد السوري، مثلا، لم يكن كاهنا في بداية تسلقه سلم الحكم.. فالكهانة ضرورة لاضفاء القدسية والشرعية على الحاكم العراقي القديم وهي اللقب الاول قبل ان يتخذ الحاكم لقب الملك.. ان القيادة والتاج والعرش والصولجان وشارات الملك تجلبها الآلهة للملك قبل ولاء الشعب.. ومن الصعوبة تصور كاهنا ملكا دون خلافات عميقة بين الكهنة والملك -الكاهن و(انيتارزي) الكاهن الذي صار ملكا على لكش اضاف الى صلاحياته ملك جميع صلاحيات كاهن لكش الاعلى ؟؟ وقسم رئاسة معبد المدينة بين افراد عائلته ؟؟ ولاريب هذا الجذر الكهنوتي للاستبدادية في العراق هو الذي حفز وحرض -رغم اختلاف العقائد الدينية- الخلفاء الامويين والعباسيين والعثمانيين الى كسب الفقهاء الى جانب السلطة المطلقة وعلى سبيل المثال لا الحصر يتردد على بعض الاوراق التحليلية للمذاهب الاسلامية، خاصة في الارث السياسي الفقهي للشيعة، ان العباسيين بادروا الى حث وتشجيع بعض فقهاء عصرهم الى تأسيس المذاهب.. وحكاية ابو جعفر المنصور مع مالك بن انس، تكاد تتكرر في الادبية الشيعية، على ترويج الطاغية المنصور للمذهب المالكي لامتصاص تأثيرات المدرسة الشيعية التي اسسها محمد الصادق ومن بعده ابنه جعفر الصادق في المدينة المنورة.. كما قيل ان مبرر (تأسيس) المذهب الشافعي وانتشاره بين الفلاحين جاء ايضا لكسب سكان القرى والارياف الى الحكومة (السنية) القائمة في بغداد .. وان تشجيع ابو حنيفة ونشر مذهبه بين سكان العاصمة وفئاتها الحاكمة والادارة والجيش بين ابناء المدن الكبرى، هو السياج الواقي للدولة الاستبدادية من تسرب الافكار الشيعية التي كانت تعارض وتقاطع (الدولة) ولا تسمح لابناء الطائفة بالتعامل المباشر مع مؤسسات الدولة (السنية) الا لمصلحة المذهب ومعتنقيه، وهذا ما حصل فعلا من خلال الفتوى الشهيرة التي اطلقها موسى الكاظم في عهد الرشيد ومما اشرنا الى ذلك في الصفحات السابقة..

منذ العصر السومري القديم، تمتع الطاغيه بمركز مرموق، وسلطات غير محدودة.. الطاغية العراقي القديم كان يملك في قصره الواحد، في ذلك الوقت السحيق اكثر من

(144) حامل كأس و(132) موسيقارا ومغنيا و(65) طباخا ؟؟؟ ورغم طبيعة الحاكم الاتوقراطي او الثيوقراطي للدولة العراقية القديمة فان الملك كان ارادة الالهة على شعبه.. ممثلا لاله المدينة على الارض ووكيله بين البشر؟؟... وهو الذي يعلن الحروب ويقود الجيوش وهو القاضي الاعلى والكاهن الرئيس.. واغرم ملوك العراق القدامى بالالقاب الفخمة التي اطلقوها على انفسهم.. ومن الالقاب المعروفة عنهم: ملك البلاد او ملك سومر واكد وملك الجهات الاربع.. وبعض الملوك تطرفوا واعتبروا انفسهم (الهة) وقدمت لهم النذور ونظمت التراتيل اليهم وشيدت المعابد على شرفهم؟؟

كلكامش، حاكم عراقي قديم، ارتبط اسمه بالملحمة الشهيرة التي تدور حول شخصيته وبحثه الذاتي عن الخلود .. لقد اخذ كلكامش معاني الرموز العراقية القديمة التي انطوت على القوة والبطولة والشجاعة والثقل.. وحياة هذا الحاكم غلفت، بعادة الطغاة، بالرموز والاساطير، ولم يعرف، كالعادة ايضا، عن امه شيئا .. ويقول الدكتور سامي سعيد الاحمد : (والواقع من تكون ام كلكامش... واختفت كل الادلة عن هويتها ..) وصور كلكامش بان ثلثي تكوين جسمه إلها والثلث الآخر بشرا (وهو الرأي الذي نجد صداه الان في مثل عراقي دارج فحواه ان الإنسان يكتسب ثلثي صفاته من جهة امه..) وقبل ايضا ان ام كلكامش هي نفسها الربة (ننسون)؟؟

هو الذي رأى كل شيء حتى نهايات البلاد

الذي خبر جميع الامور واعتبر الكل

....

الغزير الحكمة الذي عرف جميع الامور كلكامش

الذي شاهد الاسرار وفتح الخفايا

وحمل معارف ما قبل الطوفان

وسلك طرقا بعيدة وتعب

او:

يا ولدي يعيش في اوروك كلكامش

القوي العظيم الذي لاينافسه احد

قوته خارقة (و) ضخامته مثل مخلوقات السماء

او صفات اخرى تطلقها الملحمة على كلكامش مثل: الكامل القوة والثور الوحشي والجليل الاعمال والاوحد وذو الراس العالية فوق جميع الرجال؟؟؟

كل هذه الصفات والالقاب ربما تؤشر لنا (هيام) الطاغية العراقي الوسيط والحديث بالالقاب والتسميات... ومن الغريب ان نصوصا في الملحمة تصف كلكامش بصفات لاتليق بمكانته المعروفة وتقدمه (ظلما) لاهل اوروك.. حيث جاء في الملحمة:

هو الثور الوحشي الهائج رافعها رأسه

ليس لفتك اسلحته منافس و

رعيته مجبرة على دخول الشرك

اغتاضت ابطال اوروك في اماكنهم

لم يترك كلكامش ولدا لابيه

واستمر ظلمه بالزيادة ليل نهار

....

لم يترك كلكامش عذراء الى امها

او ابنة محارب (او) زوجة بطل

وظل (الالهة يسمعون) بكائهن باستمرار

ويقال ان هناك ابتداعا وتأليفا للملحمة غير الملحمة الاصلية.. ومهما يكن من امر فان نصا في الملحمة يشير الى يأس الهة السماء من توقف ظلم كلكامش لشعبه:

واستدعى الهة السماء سيد الوركاء (الاله آنو)

(وسألوه) الم تخلق (انت هذا) الثور الوحشي الهائج (الرافع رأسه)

(الذي) ليس لفتك اسلحته منافس

....

فاستدعى الالهة أرور (وسألوها) أأنت التي خلقت الرجل؟

او:

(ان كلكامش قد اقتحم) بيت الامة

دار مصائر الناس

وحرمة الزوجية

وجلب الى المدينة العار

حطم المدينة (و) خرب ما هو للناس

الساحة العامة والطبل

مهيأة الى ملك اوروك من اجل ان يتصل بالعروس

الساحة العامة والطبل

مهيئة الى (كلكامش ملك اوروك) كي يأخذ

العروسة

المرأة التي حتم له القدر ان يضطجع معها

هو الاسبق و

من ثم الزوج

(هذه) في الارادة التي حتمتها الالهة

وقدرتها عليه منذ ان قطع حبل سرته.

ويؤكد د. الاحمد: (ولم يرد أي نص حتى الان من العصر السومري القديم او عصور العراق التاريخية اللاحقة يشير الى ممارسة كلكامش او أي ملك عراقي نعرفه لدور السيد المطاع وبذلك لا يمكن اعتبار النص حقيقة يعكس إجراء ممارسة كلكامش).

الفصل الثاني

قال النبي ﷺ: (يرحم الله ابا ذر يمشي وحده ويحشر وحده..)

هو الرجل الذي ازعج الطغاة والمرفهين.. كان يعبد الله قبل مبعث النبي بثلاث سنين وبايع النبي ان لا تأخذه في الله لومة لائم وعلى ان يقول الحق وان كان مرا.. كان لايسكت عن مهاجمة المزهوين الفخورين المترفين ويتعرض لهم، لذلك سير الى الربذة وتوفي بها سنة 31هـ وصلى عليه عبد الله بن مسعود وجماعة معه جاءوا من العراق.. لما حضرت ابا ذر الوفاة كان في المنفى حتى استعير له الكفن الذي يلقى فيه ربه. تبلور (صوت) ابا ذر، عندما كثرت الغنائم من الفتوحات لبلاد فارس والروم واقبلت الدنيا الى افراد كانوا في المؤخرة فصاروا في المقدمة.. كان ابو ذر في ايام عمر وعمر مستريح الضمير لاسلوب ابي ذر حيث يقول لعمر اشهد اني سمعت سول الله يقول: ((من ولى احدا من المسلمين اتى به يوم القيامة على جسر جهنم فان كان محسنا نجا وان كان مسيئا انخرق به الجسر فهوى فيها سبعين خريفا وهي سوداء مظلمة)) ولما اصدر (كعب الاحبار) فتواه انه لابأس ان يأخذ الحاكم من بيت المال ما شاء لينفقه فيما يرى من امر المسلمين وليعطي منه من يشاء من الناس.. فلما سمى ابو ذر صرخ به وامسك بعصاه واعملها في صدر كعب وهو يقول: (يا ابن اليهودي ما اجرأك على القول في ديننا).. ما احوج الدخلاء والسفهاء الى عصا ابي ذر مرة اخرى.. قال الرسول الكريم ﷺ: الاسلام أسس والسلطان حارس ومالا اسس له يهدم وما لا حارس له ضائع..

((1))

يحتاج الطاغية الى (نسب) رفيع وانتساب (مجيد) للبيت النبوي الشريف.. ومن السهولة بمكان في بلد مثل العراق، حيث المنتسبين لهذا البيت يعدون بالالاف والعوام لاتدقق في الانساب جيدا. ان العزيز بالله ابن المعز الفاطمي، في اول ولايته صعد المنبر يوم الجمعة فوجد هناك ورقة فيها هذه الابيات:

انا سمعنا نسبا منكرا ... يتلى على المنبر في الجامع

ان كنت فيما تدعي صادقا ... فاذكر ابا بعد الاب السابع

ويذكر السيوطي ان جد الخلفاء الفاطميين المدعو سعيد من المجوس وان امامتهم غير صحيحة لانهم غير قرشيين. هذا في مصر. فكيف الحال في العراق؟

قيل ان الرسول الكريم ﷺ قال: ان اول دينكم بدأ نبوة ورحمة ثم يكون خلافة ورحمة ثم يكون ملكا وجبرية.. أي تجبرا وقهرا.

والامويون والعباسيون وضعوا احاديث نبوية كثيرة منذرة بخلافتهم وروى حديث عن ابي هريرة: قال رسول الله ﷺ للعباس: فيكم النبوة والملك.. وعشرات الاحاديث التي اوردها السيوطي في كتابه الشهير (تاريخ الخلفاء).. احاديث ضعيفة وكاذبة ليس الغرض منها سوى اضفاء الشرعية على الحكم الاموي او العباسي.. وكان العباسيون والامويون يتبارون في سبيل ان ينسبوا اليهم الشرعية حتى لو كانت بردة الرسول ﷺ... معاوية يدفع 20 الف درهم الى اولاد كعب بن زهير ليأخذ منهم البردة التي رفض والدهم كعب تسليمها الى معاوية مقابل (10) الاف درهم.. وكذلك فعلها ابو العباس السفاح، الذي دفع (300) دينار لاهل ابلة الذين تسلموا بردة من الرسول ﷺ مع كتابه امانا لهم.

ويعتبر معاوية، اول من استخلف ولي العهد في حياته واول من اتخذ من الخصيان لخدمته.. ومن المؤسف ان يكون عبد الله بن الزبير اول من حملت إليه الرؤوس.. والطغاة مهووسين بالالقاب.. معاوية لقب نفسه (الناصر لدين الله) ولقب يزيد نفسه (المستنصر). وخلفاء بني العباس كلهم ابناء سراري الا السفاح والمهدي والامين.. والمنصور، اول من قرب المنجمين وعمل باحكام النجوم..

((2))

معاوية بن ابي سفيان – كما يصفه علي بن ابي طالب-: واعلم يا معاوية انك من الطلقاء الذين لاتحل لهم الخلافة ولا تعقد معهم الامامة ولا تعرض فيهم الشورى.. ومعاوية، اكثر شخصية تثير جدلا في التاريخ الاسلامي، من حيث طريقة وصوله الى الحكم وتصرفاته ودهائه.. من اقواله المشهورة: اني لادفع نفسي من ان يكون ذنب اعظم من عفوي وجهل اكثر من حلمي او عورة لا اواريها بستري او اساءة اكثر من احساني.

وقوله: لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت.. واذا مدوها خليتها واذا خلوها مددتها والرجل لم يتردد باستعمال المواكب من استقبال غيره، وقد خرج في موكب يتلقى عمر بن الخطاب الذي جاء الى الشام.. فقال له عمر: يا معاوية، تروح في موكب وتغدو في مثله وبلغني انك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك ؟

فاجاب معاوية عن الشطر الاول قائلا: يا امير المؤمنين، ان العدو بها قريب منا ولهم عيون وجواسيس فاردت يا امير المؤمين ان يروا للاسلام عزا. وتحدث بعض الناس في مجلس عمر عن دهاء كسرى وقيصر فقال عمر: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية؟

الغريب في مسيرة معاوية ان الامويين اللاحقين الذين تسلموا زمام السلطة بعد مروان بن الحكم، لم يعيروا اهتماما له، حتى ان بعضهم كان يجهل قبره.. فقد مر عبد الملك بن مروان بقبر معاوية فوقف عليه وترحم فقال رجل: قبر من هذا ؟

ولد معاوية عام 13 ق.هـ./608 م واشهر اسلامه بعد فتح مكة عام 8 هـ/629.. عاش في كنف بيت جاهلي معاد للاسلام.. بقيم بإليه واعراف متهرئة وتكوين روحي ممزق.. يعتبر من الطلقاء الذين عفا رسول الله ﷺ عمن آذوه وقاوموه فقال مقولته الشهيرة: اذهبوا فانتم الطلقاء..

بدأ حياته كواحد من كتاب الوحي.. أي الى جانب الرسول مباشرة.. لكنه لم يتعلم منه الا شيئا قليلا.. ويتضح من سيرته السياسية اللاحقة انه لم يقتدي بالرسول ﷺ او السير على هداه.. جذوره موغله في القدم والزعامة وتنتابه روح الامارة وبلغة عصرنا: رجل يكابد من عقدة الرئاسة والتفرد والزعامة.. داء العظمة القاتل.. وسعي سعيا شديدا وبكل الوسائل الى الخلافة.. ومعاوية يذكر (حادثة) يقول عنها هي التي جعلته يطمع في الخلافة.. قال: اتبعت رسول الله ﷺ بوضوء فلما توضأ نظر الي فقال: يا معاوية ان وليت امرا فاتق الله واعدل.. ويضيف معاوية: ما زلت اطمع في الخلافة مذ قال لي رسول الله ﷺ: ان وليت فاحسن.

التربة التي عاش عليها معاوية، هي بيت جاهلي معاد للاسلام قولا وفعلا.. وتفتح على الحب والحرب معا.. حب عقائد الاباء والاجداد القديمة التي حاربها محمد ﷺ.. والحرب الطاحنة التي مولها وشارك فيها ابويه معا.. لم يكن قادرا لا هو ولا والديه على اشهار اسلامهم بعقولهم وقلوبهم.. رغم ان اضواء الرسالة المحمدية كانت تغمر كل الارض العربية وقتذاك.. ولم تستهو العقيدة الجديدة، فؤاده وهو الذي عاش طفولته وصباه وشبابه في اجواء شركية خالصة وحاقده ومدمرة للتوحيد لولا الهزيمة المنكرة التي الحقها الاسلام ببيته وسحقت كبرياء ابو سفيان وزوجته هند.

ابو صخر بن حرب، زعيم المشركين وعدو رسول الله ﷺ وقائد قوات الكفرة والسياسي القرشي الذي فتش عن طرق الخبث للنيل من نور الرسالة الجديدة.. وامه

هند بنت عتبة، من اشد الناس عداوة للرسول والمسلمين، لكنهم كلهم، الاب والام والابن، اضطروا الى اعلان اسلامهم، بعد فتح مكة.. عاش معاوية الى جانب الرسول وروى عنه (163) حديثا .

هو اول ملوك المسلمين.. واول من ابتدع الوراثة في الحكم الاسلامي بعد وفاة علي بن ابي طالب.. واول طاغية (مسلم)، طبق افكاره السياسية قبل افكاره الاسلامية..

لاندري (صحة) الاحاديث المروية عن النبي ﷺ بخصوص معاوية.. يقال ان النبي ﷺ دعا له بقوله: اللهم اجعله هاديا مهديا .. واللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب..

ومعاوية، مهد لاحكام قبضته على السلطة، بسلسلة من الاحاديث والوقائع التي (تتبيء) – كما اراد هو من ذلك– عن (سيادته) على (قومه). كما اشتهر معاوية، وهو القرشي الاموي الذي عاش في الظل ولم يمتلك ماضيا اسلاميا مبكرا يشرف سيرته وحكمه فيما بعد، اشتهر في التاريخ بـ(الهاء) المسلمين في قضيه بالغ فيها واتخذها ذريعة للتقرب من الملك، وليس بـ(الدهاء) كما عرف عنه، اشتهرت امه الملقبة بـ(آكلة الاكباد)، بلقب (عظيم) بعد تعاظم نفوذ ولدها اذ عرفت بـ(صانعة الرجال). وهند، شاركت في معركة احد .. عندما خرجت قريش في السنة الثالثة للهجرة، تحارب رسول الله ورفاقه، وتنتقم لقتلاها في (بدر).. وكان ابو سفيان هو قائد جموع الكفار.. ومعه زوجته (صانعة الرجال) هند، وهذه الاخيرة في كل اوقات المعركة التي جرت بضراوة كان معها (وحشي)، وهي قد هيأته لاغتيال البطل المسلم (حمزة)، عم النبي ﷺ، تركض امامه وتحثه: ايه ابا دسمة، اشف واشتف؟؟

وقتل حمزة بمكيدة هند .. ودفعت ثمن الجريمة الى وحشي.. اعطته قلائدها وقرطها .. ثم انطلقت مع نساء المشركين، بعد هزيمة المسلمين، يجدعن الآذان والانوف، حتى اتخذت هند (ام خليفة المسلمين فيما بعد) من آذان الرجال وانوفهم خلائل وقلائد، وبقرت عن كبد (حمزة) فلاكتها فلم تستسيغها فلفظتها .

كانت هند ترتجز في (احد) وحولها النساء يضربن بالدف تقول:

ان تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق

او تدبروا نفارق

فراق غير وامق

او تقول بصوت عال:

ويها بني عبد الدار ويها حماة الادبار

ضربا بكل بتار

واثارت هند بتصرفها مشاعر المسلمين وكانت العرب تستنكر المثلة –التمثيل بالقتلى– وغضب عمر بن الخطاب (رض) فدفع حسان بن ثابت لهجاء هند في قصيدة فاحشة جاء فيها:

اشرت لكاع وكانت عادتها لؤما اذا اشرت مع الكفر

لعن الاله وزوجها معها هند الهنود عظيمة البظر

اخرجت ثائرة مبادرة بابيك وابنك يوم ذي بدر

واعتذر ابو سفيلن لعمر عن (فعلة) زوجته: انه قد كان في قتلاكم مثل والله ما رضيت ولا سخطت ولا نهيت ولا امرت.

دخلت جيوش المسلمين، مكة، في سنه 8 هـ وارتفع هدير الحق: لا اله الا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده..

كانت هند ترتجف خوفا ورعبا من دخول جيوش المسلمين الى مكة، ذلك انها كانت في عداد من اهدر الرسول دمهم وان وجدوا تحت أستار الكعبة..

ثم جاءت متنكرة، متقبة، خائفة من ان يأخذها الرسول ﷺ فلما دنون منه ليبايعنه قال الرسول ﷺ: تبايعني على الا تشركن بالله شيئا..

قالت هند: والله انك لتأخذ علينا امرا ما تأخذه على الرجال وسنؤتيكه..

قال: ولا تسرقن.

قالت: والله ان كنت لاصيب من مال ابي سفيان الهنة والهنة وما ادرى اكان ذلك حلالي ام لا؟

وكان ابو سفيان واقفا، شاهدا، فقال: اما ما اصبت فيما مضى فانت منه في حل.

ثم قال رسول الله ﷺ: وانك لهند بنت عتبه؟

فقالت: انا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف عفا الله عنك.

قال: ولا تزنين؟

قالت: يا رسول الله، هل تزني الحرة؟

قال: ولا تقتلن اولادكن.

قالت: قد ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا، فانت وهم اعلم.

فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب وبالغ في الضحك (رض).

قال: وتأتين ببهتان تفترينه بين ايديكن وارجلكن.

قالت: والله ان اتيان البهتان لقبيح ولبعض التجاوز امثل.

قال: ولاتعصينني في معروف.

قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد ان نعصيك في معروف.

قال الرسول ﷺ لعمر: بايعهن واستغفر لهن.

فبايعهن عمر.

ابو سفيان طلق هند فيما بعد.. واشتغلت هند في التجارة في خلافة عمر. توفيت – على الارجح– خلال فترة قريبة بين عهدي عمر وعثمان..

يعتبر المؤرخون ان تأثير صخر بن حرب (ابو سفيان) على معاوية كان كبيرا.. تأثيرا اسهم في تكوين معاوية وتنشئته.. فمعاوية عاش في كنف رجل سياسي وتاجر كبير.. في بيئة سياسية وتجارية خلطت بين المال والزعامة.. بين جني الارباح من المتاجرة وبين نتائج الحنكة السياسية..

كان أبو سفيان اكثر المشركين أذى للرسول حتى إن الرسول ﷺ بعث عمرو بن أمية ورجلا من الأنصار وقال لهما: " ائتيا أبا سفيان بن حرب فاقتلاه ". ولكن أهل مكة اكتشفا أمر عمرو فلم يتمكن من قتل أبي سفيان..

ثم شارك أبو سفيان في معارك المسلمين وأصيب يومئذ عينه فأخرج السهم من عينه أبو حثمة.. حصل ذلك في اليرموك وقد استعمل عمر أبناء أبو سفيان.. مات أبو سفيان في سنة 31 وعمره 88 عاما.

ثمة مواقف وموروثات وصفات مشتركة بين أبو سفيان وهند ومعاوية.. تتحدد بـ: الطموح للسيادة أولا ووسائل تحقيق ذلك: الكرم والحلم وهما غطاء: الهاء الآخرين عن

طموحات الابن الذي عرف بعد ذلك بالدهاء.. من ابرز صفات الطاغية معاوية: اكتسابه القدرة العظيمة على التكيف مع المواقف المختلفة..

السؤال الكبير: ما الذي أبقى معاوية تلك السنوات الطويلة على ولاية الشام ؟ ترى هل انتبه عمر بن الخطاب لـ(مكانة) معاوية في الشام ؟ لماذا لم يعزله بعد ما رآه في أبهة ومواكب (رومية) لا تنسجم مع التواضع الإسلامي؟ هل يمكن الاستنتاج إن معاوية كان على (صلات) طيبة مع (أعداء) المسلمين: الروم.. الذين كانوا يجاورون ولاية الشام وفلسطين التي كانت من مسؤولية معاوية ؟ هل تحسب معاوية لعمر وقراراته (الثورية) بإزاحته عن الولاية على حين غرة ؟ ترى ماذا كنا نتوقع من رد فعل معاوية لو قيض لعمر أزاحته من ولاية الشام ؟ أكنا نتصور إن معاوية، كان سيستنجد بـ(حلفائه) الرومان ويقاتل عمر كما قاتل علي فيما بعد وتفتضح هويته!

ولماذا (سكت) الرومان ولم يتحركوا طيلة (الفتنة) التي جرت أبان ولاية علي وإلحاح معاوية بالمطالبة بدم عثمان ؟ كان من الممكن وهي الفرصة التي لا تفوت إن يهجم الرومان (أعداء) معاوية ؟ على سوريا وبلاد الشام ما دام حاكمها مشغولا بالصراع السياسي من هامة رأسه إلى اخمص قدميه ؟؟ ويبدو إن هدنة ما عقدها الطرفان من اجل عدم اشغال والي الشام(؟) بصراعات جانبية والتفرغ للخلافة في الصراع مع علي.. والروم، يعلمون تماما إن مجيء معاوية، خليفة على المسلمين، افضل بكثير من علي، بمقتضيات المصلحة الاستراتيجية وهم يعلمون قبل غيرهم إن معاوية هو انسب (حاكم) للمرحلة و(يفهم) مصالحه الدولية، بالعكس من علي الذي إذا قيض له السيطرة الكاملة على السلطات ومنها حكم بلاد الشام وعزل معاوية سيسبب لهم حربا لا تنطفئ جذوتها إلا بإزالة ملكهم وان قوافل المجاهدين لن تتوقف ضدهم..

دخل معاوية، دمشق تحت إمرة اخيه يزيد بن أبي سفيان الذي قاد (7) آلاف مجاهد لفتح الشام في خلافة أبي بكر الصديق، وكان معاوية قد التحق بجيش اخيه يزيد بن أبي سفيان، وربما فضل الالتحاق بجيش اخيه بعد ما اجتمع إلى أبي بكر الصديق ناس فامر عليهم معاوية وامره باللحاق بيزيد . ولم يمارس معاوية عملا قياديا مستقلا.

ووصلت رسالة من عمر بن الخطاب، بعد خلافته، إلى معاوية وفيها: فاني قد وليتك (قيسارية) فسر إليها .. وقيسارية بلد على ساحل بحر الشام وتعد من أعمال فلسطين..

واستطاع معاوية إن يدخل قيسارية التي لم تكن سوى بلدة تحميها البحرية البيزنطية وفيها عدد من الجند المهزومين من معارك سابقة..

وربَ ضارة نافعة.. إذ داهم المسلمون (طاعون عاموس) وحصد ارواحا كثيرة من القادة والجند، وكان معاوية بعيدا عن اثار الطاعون ولم يصل إلا بعد إن ذهب الطاعون بارواح أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان.. وهنا حدث التطور المفاجئ : إذ اصدر عمر امره بتعيين معاوية على جند الشام وخراجها.. وكان معاوية في نظر الخليفة عمر، اقوى رجل في المسلمين ببلاد الشام، وعمر قال ذلك علانية أمام شرحبيل بن حسنة عندما استفسر الأخير منه عن (سبب) عزله عن (الاردن) فقال عمر له: ولكني اريد رجلا أقوى من رجل..

وصارت، منذ تلك اللحظات، بلاد الشام كلها تحت قيادة معاوية.. فلسطين والاردن ودمشق.. بينما يقف العدو التقليدي للمسلمين على حدود معاوية الشمالية..

في سنة 22 هـ ولد يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان.. وكان مع معاوية، بعض كبار الصحابة، مثل عبادة بن الصامت وابو ايوب خالد بن يزيد وأبو ذر الغفاري وشداد بن اوس.. وطيلة تلك الفترة استخدم معاوية اسلوب (الاكل المنتظم) لبلاد الرومان.. أي الغزوات المنتظمة التي تنطلق من الثغور على الحدود الاسلامية على بيزنطة فتقوم بالتوغل داخل الامبراطورية فتدمر وتقتل وتأسر وتعود، وعرفت هذه المجاميع القتالية باسم (الصوائف) ولم يشترك معاوية أو يقود بنفسه قتالا مباشرا مع الروم.. وفي سنة 25 هـ قاد معاوية قوات الصوائف، ولم يعد إلى ذلك مرة أخرى، وفتح بعض المناطق البسيطة وعاد (منتصر).. معاوية استخدم قوات متحركة، هي الصوائف، للرد على الهجمات البرية.. وقصة محاولات معاوية مع عمر في موضوع (ركوب البحر) قصة معروفة.. ولم ييأس معاوية، وكرر محاولته ببناء صناعة بحرية مع عثمان بعد رفض عمر لمقترحه.. وبنى معاوية بيتا لصناعة السفن في عكا.. ولم يكن معاوية، الوحيد الذي بادر بتأسيس البحرية الاسلامية، فقد عكف عبد الله بن سعد والي مصر على بناء قوته البحرية وفعلا التقت القوة المصرية مع اسطول الشام في غزوة قبرص عام 28 هـ / 648 م.. وكذلك ساهم عبد الله بن سعد بأكبر قوة بحرية مصرية اسلامية انطلقت من الإسكندرية وسارت بمحاذاة الشاطئ السوري فالتقت باسطول الشام ثم انطلق الاسطول الإسلامي الموحد نحو هدفه.. وفي مياه رودس التقى الاسطول الروماني بالاسطول الإسلامي ودارت معركة طاحنه.. وحملت هذه المعركة التي جرت عام 34 هـ / 654م اسم (ذات الصواري). اعتمد معاوية (وهذه اول نعرة تفرق بين المسلمين لاغراض سياسية خاصة بمعاوية وطموحاته بالهيمنه على مقاليد الحكم) على القبائل اليمنية بالدرجة الأولى.. وزاد من شأن اليمنية على حساب القيسية بل واضعف من القيسية.

واعترف معاوية بذلك أمام أهل اليمن عندما خطب فيهم في عكا، وقد سمح لهم بالعمل في سلاح البحرية وعدم السماح لغير العرب المسلمين العمل: اني أيمن بكم واعرف طاعتكم، وقيس فيهم خلاف ونكد في غزو البحر وكان معاوية لا يفرض في الديوان من العطاء إلا لأهل اليمن وهم عامة جند الشام وغالبيتهم، حتى كثرت اليمن وضعفت القبائل العدنانية في الشام.. ثم فرض معاوية لاربعة الاف من القيسية في ديوان الجند.. واستخدم معاوية أهل اليمن في غزواته البحرية استعان بالقيسية في معاركة البرية وتمكن معاوية خلال فترة وجيزة إن يبني (قوة) بحرية خاصة بالشام بعيدة عن مركز الخلافة الاف الاميال وتحت امرته المباشرة.. وضع تحت امرته (1700).. سفينة لحماية ملكه.. وقيل إن البحارة العرب، خلال معركة ذات الصواري دب بينهم الخلاف بسبب الموقف من عثمان بن عفان وحصل جدل عنيف بين محمد بن أبي حذيفة وعبد الله بن سعد قائد القوة البحرية المصرية، وهدد الثاني الأول بتقييده بالاغلال وتحداه محمد إن يفعل ذلك وكان يحث البحارة على الرجوع ويقول لهم: أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقا.. فيتساءل البحارة: واي جهاد؟ فيجيب: عثمان بن عفان.. وكان محمد مع محمد بن أبي بكر يحرضان ويعتقدان إن أم الصواري وهي المعركة الحربية القادمة ليست هي الجهاد المطلوب بل رأس عثمان الذي فعل كذا وكذا كما رددا أمام البحارة المسلمين..

استتب الامر لمعاوية عام 40 هـ/ 660 م على حدوده الشمالية.. بعد اكتمال بناء قوته البحرية الضاربة.. لدرء الخطر الروماني..

في عام 32 هـ فشل معاوية دخول القسطنطينية بغزوة كبيرة شاركت فيها زوجته وفي عام 50 هـ كرر محاولته وعين ابنه يزيد قائدا للحملة لكن يزيد تظاهر بالمرض وعدم الرغبة بمرافقة (المجاهدين) وترك له معاوية حرية مرافقة الجيش أو التخلف عنه.. وتقدم الجيش الإسلامي في الاراضي الرومانية ونظم عملية حصار العاصمة لكنها صمدت وتكبد المسلمون خسائر كبيرة وانتشرت الامراض وتناقصت المواد التموينية والغذائية.. وكان يزيد مقيما في (دير مران) مع زوجته (أم كلثوم ابنة عبد الله بن عامر) وعندما بلغه ما اصاب جيش المسلمين اثناء حصاره للقسطنطينية انشد يقول:

ما إن ابالي بما لاقت جموعهم   بالفرقدونه من حمى ومن موم

إذا اتكأت على الانماط مرتفقا   بدير مران عندي أم كلثوم

وبلغ ذلك معاوية فاقسم عليه ليلحقن بسفيان بن عوف قائد القوات البرية في ارض الروم ليصيبه ما أصاب الناس.. فسار ومعه جمع كثير اضافهم إليه ابوه.. وكانت هذه

القوات بمثابة قوات من الدعم.. وان معاوية جعل ابنه المستهتر بدماء المسلمين على رأس الحملة التي انطوى تحت رايتها : ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وابو ايوب الانصاري وعدد كثير من صحابة رسول الله ﷺ.

كان سعيد بن العاص امير الكوفة، وعثمان بن عفان امير المؤمنين.. وكان نفر من أهل الكوفة: مالك بن الاشتر وثابت بن قيس وكميل بن زياد النخعي وصعصعه بن صوحان وعمير بن ضابئ وزيد بن صوحان وجندب بن زهير الغامدي وجدب بن كعب الازدي وعروة بن الجعد وعمرو بن الحمق الخزاعي.. يطعنون بامير الكوفة الاموي وقريب الخليفة.. فوصلت الاخبار إلى عثمان فكتب إلى معاوية.. وابعدهم اليه.. والتقى بهم امير الشام ودار حوار طويل بينه وبينهم.. وفي الليلة الثالثة من الحوار بينهم قال له المبعد صعصعة: لست باهل ذلك ولا كرامة لك إن تطاع في معصية الله.. وقال له آخر: امرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي ﷺ.. ثم طلب منه صعصعه: فانا نأمرك إن تعتزل عملك فأن في المسلمين من هو احق به منك.. واجاب معاوية مدافعا عن مشروعية بقاءه طيلة هذه الفترة في الحكم وان أبو بكر وعمر وعثمان رضوا له هذه المسؤولية: ليس في زماني أحد اقوى على ما انا فيه مني لم يكن لي عند عمر هوادة ولا لغيري ولو رآى ذلك امير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب الي بخط يده فاعتزلت عمله.. ولعمري لو كانت الامور تقضي على رأيكم وأمانيكم ما استقامت الأمور لأهل الاسلام يوما ولا ليلة ولكن الله يقضيها ويدبرها.. بعد هذا الحوار المضني الذي اكتفينا بنقل مقاطع منه، هجم عليه المبعدون فأخذوا بلحيته ورأسه وصرخ بهم: مه، إن هذه ليست بأرض الكوفة والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بي وأنا أمامهم ما ملكت إن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم. ثم غادرهم وكتب إلى عثمان ووصفهم بأنهم أقوام يتكلمون بالسنة الشياطين.. وطعن بإسلامهم.. واتهمهم بالفتنة واشعال نارها ثم طلب من الخليفة: ولست آمن إن اقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم فارددهم إلى مصرهم..

وبعثهم معاوية إلى الكوفة.. وفي الكوفة شكاهم سعيد بن العاص مرة أخرى فسيرهم عثمان إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي كان واليا من قبل معاوية على حمص.. وعاملهم عبد الرحمن بقسوة حتى قيل انهم تابوا.. وأختار معاوية (ابن الكواء) أحد المتمردين الذين تابوا.. إلى جانبه باعتباره – على حد قول معاوية – اعقل أصحابه فسأله معاوية ذات يوم: أي رجل انا ؟ ؟

هذا السؤال الذي يدفع من اجله الطاغية، كل طاغية، ملايينأ من الدنانير لكي يحصل على اجابة يرتاح لها قلبه وتطمئن إليه نفسه وتداعب انانيته.. من انا ؟؟

- بعيد الثرى، كثير المرعى، طيب البديهية، بعيد الغور، الغالب عليك الحلم، ركن من اركان الاسلام، سدت بك فرجة مخوفة..

هل هو معاوية حقا، كما وصفه ابن الكواء.. ؟؟

في احداث الفتنة الكبرى (34 هـ) حذر معاوية الخليفة من الاغتيال.. رغم انه اقترح عليه ابقاء قوة مسلحة بالقرب من المدينة لكن الخليفة رفض ذلك.. وغادر معاوية المدينة بعد إن قابل طلحة والزبير وعلي فاستوصاهم بعثمان.. وكان عثمان، بعد إن عقد مؤتمر الأمراء الجند الذي حضره معاوية قابل نسوة الرسول ﷺ واستشارهن بالامر.. فاقترحن عليه: تؤمر عمرو بن العاص وعبد الله بن قيس وتدع معاوية فانما امره امير قبلك فانه مصلح لارضه راض به جنده.. ليس المجال هنا للدخول في تفاصيل الفتنة وقد نرجع اليها لاحقا..

وعندما يضيق الثائرون الخناق على عثمان، يسرع الخليفة، بعد إن اصبح وحيدا، بالكتابة إلى معاوية ويطلب إليه ارسال من مقاتلة الشام على كل صعب وذلول لكن معاوية الذي قرأ رسالة الخليفة يتوقف ويتمهل في ارسال الدعم.. ويرسل الخليفة المحاصر (استغاثة) إلى معاوية مرة اخرى.. ويسرع جند الشام، ويسرع جند العراق فيلتقيان في وادي القرى والربذة وهناك يصل الجميع نبأ مصرع الخليفة عثمان بن عفان.

وبمقتل أول خليفة تندلع ألسنة الفتنة..

وبويع علي بن أبي طالب خليفة جديد.. وبايعه من بايع وامتنع من امتنع.. واقترح عليه المغيرة بن شعبة إن يبقي (عمال) عثمان سنة فاذا بايعوا لك واطمان الامر لك عزلت من احببت واقررت من احببت.. فيرد علي: والله لا اداهن في ديني ولا اعطي الدنئ في امري.. ولم يتركه المغيرة فاقترح عليه اقتراحا آخر: فان كنت قد ابيت علي فانزع من شئت واترك معاوية فان لمعاوية جرأة وهو في أهل الشام يسمع منهم ولك حجة في اثباته، كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام كلها.. فاصر علي قائلا: لا والله.. لا استعمل معاوية يومين ابدا.

لا ادري هل كان علي يملك معلومات واقعية وصحيحة عن (قوة) معاوية.. حتى يتشبث بقراره؟ ولماذا يصر علي على إعفاء معاوية.. إن الاوراق القديمة لم تحدثنا عن صراع خفي بين الرجلين.. كما لم تظهر من معاوية تجاه علي إلا المودة والاحترام.. ثم إن معاوية سبق عليا بالولاية.. هل كان علي يعرف تمام المعرفة جذور معاوية بين أهل

الشام.. وبمعنى آخر هل كان علي يدرك حجم القوة العسكرية البشرية الشامية التي اطاعت معاوية طاعة عمياء اكثر بكثير من طاعة المؤمنين لعلي ثم ما الذي يخسره عليا في ابقاء معاوية في منصبه لسنة واحدة – وحسب اقتراح المغيرة – ومن بعد ذلك يعزله بهدوء.. كان علي تنقصه الاساليب بينما كان يمتلك الهدف في حين كان معاوية بلا هدف محدد ولديه عشرات البدائل السياسية.

لكن المغيرة عاد إليه بعد يومين واعترف أمامه: نظرت في الامر فاذا انت مصيب.. ودخل ابن عباس وهو اقرب الناس إلى علي وسأله بعد ان غادر المغيرة مجلس الامام بماذا نصح المغيرة فقال علي ما تحدث به المغيرة.. فقال ابن عباس: أما المرة الأولى فقد نصحك واما المرة الاخيرة فقد غشك..

. ولم نصحني ؟

سأل علي

اجابه ابن عباس: لانك تعلم إن معاوية واصحابه أهل الدنيا فمتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولي هذا الامر ومتى تعزلهم يقولوا: اخذ هذا الامر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فينتفض عليك أهل الشام واهل العراق.. اطعني وادخل دارك والحق بمالك بينبع واغلق بابك عليك فان العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء ليحملنك الناس دم عثمان غدا..

وبدلا أن يستجيب علي إلى اراء ابن عباس يأبى ما قاله ثم (يعينه) واليا على الشام لكن ابن عباس يتردد في قبول المسؤولية، وهو محق في ذلك، ويقول لعلي:

●ما هذا برأي..

ويضيف قائلا:– معاوية رجل من بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام.. ولست آمن إن يضرب عنقي لعثمان أو أدنى ما هو صانع إن يحبسني فيحتكم على؟

قال علي: ولم ؟

قال: لقرابة ما بيني وبينك وان كل ما حمل عليك حمل عليّ ولكن اكتب إلى معاوية فمنيه وعده..

ابى علي وقال: والله لا كان هذا ابدا.. لا والله لا اعطيه إلا السيف..

وبهذه الجملة اختفى الحوار وبرز السيف كلغة بين الخليفة الجديد وبين اقوى عامل

ﻓﻲ الدولة الاسلامية وقتذاك.. وكرر علي، ارادته السياسية، فبعث سهيل بن حنيف واليا على الشام.. محل معاوية.. وفي تبوك اعترضت قافلة سهيل قوة من الفرسان ودار الحوار التالي بين الامير الجديد وقوة الفرسان:

من انت ؟

●امير..

على أي شئ ؟

على الشام..

إن كان عثمان بعثك فاهلا بك وان كان بعثك غيره فارجع ؟؟

أو سمعتم بالذي كان ؟

بلى..

ورجع سهيل إلى المدينة واخبر علي الخبر.. وكتب علي رسالة إلى معاوية بطلب فيها منه البيعه.. وحمل سبرة الجهني الرسالة إلى معاوية.. فاخذها معاوية واحتجز المراسل ولم يجب علي.. وفكر معاوية بمكر.. بعد ثلاثة اشهر على مقتل عثمان استدعى معاوية رجلين ودفع إلى احدهما (طومارا) مختوما عنوانه: من معاوية إلى علي.. ثم اوصى رجله: إذا دخلت المدينة فاقبض على اسفل الطومار ثم اوصاه بما يقول.. واطلق سراح المراسل مع حامل الطومار فقدما المدينة فلما دخلاها رفع الرجل وهو من بني عبس، الطومار كما امره معاوية وخرج الناس ينظرون إليه فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا إن معاوية معترض..

دخل العبسي على علي ودفع إليه الطومار ففض خاتمه فلم يجد في جوفه كتابه فقال لرسول معاوية:

●ما وراءك ؟

❖آمن انا ؟

●نعم، إن الرسل آمنه لا تقتل.

❖ورائي اني تركت قوما لا يرضون إلا بالقود (الانتقام والثأر)..

●ممن ؟؟

❖من رقبتك.. وتركت ستين الف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم، قد البسوه منبر دمشق؟؟

●امني يطلبون دم عثمان ؟ نجا والله قتلة عثمان إلا إن يشاء الله.. اخرج

❖وانا آمن ؟

تلك اول (قنبلة) فجرها معاوية في معسكر علي السياسي..

كان معاوية قد تسلم قميص عثمان المخضب بالدم واصابع نائلة المقطوعة من النعمان بن بشير الذي قدم بهم على دمشق ووضع معاوية القميص على المنبر وكتب بالخبر إلى الاجناد وثاب إليه الناس وبكوا سنة وهو على المنبر والاصابع معلقة فيه واقسم الرجال من أهل الشام إلا ياتوا النساء (؟؟) ولا يمسهم الماء للغسل إلا من احتلام ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان.

جهز علي جيشا لغزو الشام ولكن حصل وقتذاك تطور مفاجئ دراماتيكي إذ إن عائشة وطلحة والزبير، طالبوا بدورهم بدم عثمان... وخرجوا إلى العراق.. وقاتلهم علي وكانت موقعة (الجمل)... هذه المعركة لم تزد عليا إلا ضعفا وزادت معاوية قوة.. وهي معركة ارغم عليها الامام علي..

ثم انزلق علي إلى فخ آخر نصبه معاوية له.. إذ زور رسالة باسم (قيس بن سعد بن عبادة الانصاري) الذي كان واليا على مصر من قبل علي.. وكان قيس دبلوماسيا وذكيا بالتعامل مع اعوان معاوية في مصر إذ كف عنهم وهادنهم ولم يكرههم على البيعة (حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس) على حد تعبير هذه الجماعة لقيس..

وكان قيس اثقل الناس على معاوية لقربه من الشام مخافة إن يقبل عليه في أهل مصر ويقبل علي من جهة أخرى فكتب معاوية رسالة سرية لقيس لاستمالته ولكن قيسا امتنع.. فلجأ معاوية.. إلى الرسالة التي اشرنا لها أعلاه.. اختلق معاوية رسالة من قيس فقرأها على أهل الشام ومما جاء فيها: اني قد القيت اليكم بالسلم واني اجبتك إلى قتال قتلة عثمان.

واشاع معاوية ذلك بين انصاره وانتقل خبر الرسالة المزورة إلى معسكر علي.. وأتهم علي قيسا وطلب منه مقاتلة أهل خربتا (الموالون لعثمان) البالغة عددهم (10) الاف

مقاتل.. ورفض قيس مقاتلتهم.. وابى علي إلا قتالهم وابى قيس ذلك محتجا في رسالة بعثها إلى علي: انهم وجوه أهل مصر واشرافهم.. وقد علمت إن هواهم مع معاوية وهم اسود العرب ومنهم نسر بن ارطاه ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج..

وكان الخطأ القاتل الآخر الذي ارتكبه علي، إذ عزل اقوى انصاره، قيس بن سعد، وعين الأشتر لولاية مصر، والغريب إن الاشتر متهم بأنه أحد قتلة عثمان.. فبعث معاوية من دس السم للاشتر في منطقة السويس ومات.. ثم عين علي لمصر محمد بن أبي بكر وذهب قيس إلى الكوفة.. يقال هنا أكتشف علي الخديعة التي أوقعه فيها معاوية.. التي يسقط قيس بن سعد ضحية لها.. وفشل محمد بن أبي بكر في محاربة أهل خربتا فانتصروا عليه.. وارسل معاوية جيشا لفتح مصر بقيادة عمرو بن العاص ففتحها وبذلك حسم معاوية الموقف وخسر علي اخطر جبهة سياسية وعسكرية صارت إلى جانب معاوية الذي امن مصر وهي جبهته الغربية..

نجح معاوية نجاحا ساحقا في مجال الحرب النفسية التي دارت قبل صليل السيوف.. وصمد معاوية طويلا.. ثم بعد إن عمل معاوية على تمزيق معسكر علي نفسيا.. دارت الحرب.. واسرع معاوية فقاد الشاميين إلى الفرات واقام معسكره ومنع الماء.. لكن جنود علي حصلوا على الماء بسيوفهم.. وجرت مفاوضات بين الطرفين لتجنب القتال لكنها فشلت قبل إن يكمل أبو عمرة بشير بن عمرو - موفد علي لمعاوية - كلامه قائلا لمعاوية: اني انشدك الله عز وجل إلا تفرق جماعة هذه الامة ولا تسفك دماءها بينها.. فقطع عليه معاوية الكلام وقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك ؟؟

وبدأت الحرب.. واستمرت شهرا، عاد الطرفان إلى المفاوضات.. وانتهت إلى الفشل.. ولكن معاوية طلب من علي تسليم قتلة عثمان.. وارسل وفدا بذلك لعلي واخبرهم علي: لا اقول انه – يقصد عثمان– قتل مظلوما ولا انه قتل ظالما ؟

في محرم 37 هـ استنفرت القوات.. وبايع أهل الشام، على الموت فعقلوا انفسهم بالعمائم.. وبدأ القتال.. واستمر سبعة ايام بلا حسم.. ووصل علي بهجوم حاسم إلى قلب معسكر معاوية.. وبالمناسبة لم يقاتل معاوية بل رفع قبة عظيمة تحيطها مجموعة من الحرس الانتحاري (الذين بايعوه على الموت) والخيالة..

- وفي اليوم الثامن.. اخترق عبد الله بن بديل مع قوة من أنصار علي، المقر الشخصي لمعاوية ودنا من حرس الطاغية وفي يد عبد الله سيفان.. وقتل سبعة من حرس معاوية.ودنا من معاوية إلا إن الناس المحيطين به امسكوا به لكنه لم يستسلم

وقاتل حتى قتل.. وقاد الاشتر هجوما مرعبا ضد قوات معاوية فمزق الصفوف الاربعة المحيطة بمعاوية ولم يبق أمام الاشتر إلا صف واحد، اضطر خلال هذا الهجوم العارم، إن يفكر معاوية في الانتقال من موقعه لكن معاوية بقي في مكانه بعد إن تذكر إن عفته وحياءه تمنعان عليه الهزيمة.. واعاد تنظيم قواته وهجم على الاشتر وارغم على الانسحاب.. في ذلك اليوم قتل عمار بن ياسر، وتردد بين المعسكرين قول رسول الله ﷺ: تقتلك الفئة الباغية وبوجل اخبر عمرو بن العاص، معاوية بمصرع عمار فقال: انك شيخ اخرق ولا تزال تحدث بالحديث وانت تدحض في بولك، ونحن قتلنا عمارا انما قتل عمارا من جاء به ؟

وهكذا راحت عبارة معاوية كالنار تحرق.. وخرج الناس من فساطيطهم يصيحون: انما قتل عمارا من جاء به ارض صفين، غطت بجثث المسلمين من الجانبين.. وتكسرت الرماح وفرغت النبل ولم يبق إلا السيوف.. ولم تبق للطرفين إلا قوات ممزقة ومتناثرة لم يفلح معها الاشتر في هجومه الاخير الذي وصل به إلى حدود معسكر معاوية. وفي تلك الساعة العصيبة، اقترح عمرو بن العاص على معاوية بالتحكيم.. ورفعت المصاحف.. فاحدث انشقاقا خطيرا جدا في صفوف معسكر علي..

ووجه معاوية جهوده كلها إلى التحكيم..

سيطر معاوية على اكثر اقاليم العالم الإسلامي بينما احتفظ الخليفة الشرعي بالعراق والحجاز.ولم يكتف المتمرد بذلك فارسل جيشا للسيطرة على الحجاز، يتألف من ثلاثة الاف مقاتل، ولنزع بيعة اهلها لعلي وارغامهم على مبايعة معاوية.ودخل بسر بن ارطاة، قائد جيش معاوية إلى المدينة بعد هروب واليها أبو ايوب الانصاري إلى علي في الكوفة.. صعد على المنبر وهدد أهل المدينة: يا أهل المدينة والله لولا ما عهد الي معاوية ما تركت بها محتلما إلا قتلته ثم بايع أهل المدينة لمعاوية ثم دخل مكة فخافه أبو موسى الاشعري لكن بسر لم يقتله.. ومضى إلى اليمن ومن هناك فر عبيد الله بن عباس واليها من قبل علي واستخلف عبد الله الحارثي على اليمن فأتاه فقتله وقتل ابنه وقتل بسر ابني عبيد الله بن عباس والرجل الذي كان عنده بعد هروب ابيهما وفي طريقه، قتل بسر جماعة كثيرة من شيعة علي، وعلم علي بافعال بسر فارسل قوتين من الفي مقاتل.. وقتل عدد كبير من أنصار عثمان في اليمن والحجاز وارغموا أهل مكة والمدينة على بيعة علي من جديد..

خلال هذه الفترة القاسية، اقترح معاوية على علي: أما إذا شئت فلك العراق ولي الشام وتكف السيف عن هذه الامة ولا تهريق دماء المسلمين..

ففعل وتراضيا على ذلك.. لكن الذي حصل فيما بعد صنع انعطافا خطيرا في مسيرة الامة الاسلامية..

اغتيل الامام علي ومات اثر جراحه. ونجا عمرو بن العاص واصيب معاوية بضربة سيف في اليته. بعد مؤامرة الخوارج التي نجم عنها استشهاد الامام علي، اتخذ معاوية المقصورات وحرس الليل وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد.. إن ازاحة علي بهذه الطريقة المؤلمة من المسرح السياسي وخروج معاوية سالما من مؤامرة 17 نيسان، صار الطريق للسلطة ممهداً بلا عقبات رئيسية بعد اغتيال علي اقوى خصوم معاوية.. لم يبق في طريقه سوى عقبات ثانوية واخذ معاوية يتعامل بكفاءة واضحة..

بايع الناس الحسن بن علي ونزل بجيش قوامه 12 الف جندي بقيادة قيس بن سعد في المدائن واقبل معاوية في أهل الشام وبث معاوية اشاعة بين صفوف جيش الحسن بإن قيس قتل.. فاسرع الناس الى سرادق الحسن فنهبوه حتى نازعوه بساطا كان تحته، واصيب الحسن بطعنة.. وعندما علم بالقوة الكبيرة التي جلبها معاوية كتب للاخير يسأله الامان.. فصالحه معاوية وخصص له نصف مليون دينار من بيت مال الكوفة ثم انصرف مع الحسين وعبد الله بن جعفر إلى المدينة.. ثم فرغ معاوية من عبيد الله بن عباس وتهيأ للتعامل مع خصمه قيس بن سعد.. وارسل معاوية (ورقة على بياض) لقيس وفي اسفل الورقة توقيع معاوية وختمه وقال له: اكتب في هذا السجل ما شئت فهو لك.. ثم قام معاوية بارسال المغيرة رسولا للتفاوض مع زياد بن ابيه الذي اعتصم في قلعته في فارس واستطاع المغيرة من اقناع زياد وجلبه إلى دمشق واستقبله معاوية وضمه إليه ولم يمض فترة حتى استلحق معاوية نسب زياد ابن سميه بابيه فاصبح اسمه زياد بن أبي سفيان.

وهكذا اجتمع مع معاوية ادهى العرب:عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وقيس بن سعد وعبد الله بن بديل وزياد بن (أبي سفيان)، واصبحوا تحت قيادته المباشرة.. وباجتماعهم برهن معاوية بذلك انه ادهى دهاة العرب بلا منافس.. معاوية، في ذلك العصر، اخضع من اخضع بالسيف، وتألف قلوب من تألفهم بـ(كرمه) أو بـ(دهائه) وهيمن على ذوي العقول بعقله.. هذه حقيقة امتاز بها الطاغية الأول في الاسلام، بعد انقضاء حكم الخلفاء الراشدين باغتيال الامام علي.. والا كيف نفسر (جرأة) معاوية تلقيب نفسه ببلاد الشام بـ(الامير) في الوقت الذي كان علي بن أبي طالب هو امير المؤمنين الشرعي ولكن معاوية سرعان ما تلقب بلقب الخليفة – امير المؤمنين – بعد مصرع علي.. ولم يتردد أو يقلق أو حتى إن يفكر بردود افعال الصحابة والمسلمين الاوائل ؟؟

مما يذكر عن الاحداث الخطيرة التي عاشها العراق بعد استتباب الأمن لمعاوية اندلاع ثورة الحرورية بقيادة فروة بن نوفل الاشجعي عام 41 هـ / 661 م، وقد هدد معاوية أهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم، رغم إن الذين اعتزلوا وعددهم (500) شخص بشهرزور دخلوا الكوفة ومزقوا فرسان معاوية الذين ارسلهم لمحاربتهم وتحت التهديد خرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم وان هؤلاء قالوا لاهل الكوفة: ويلكم ما تبغون منا أليس معاوية عدونا وعدوكم، دعونا حتى نقاتله.. لكن الكوفيين اصروا على القتال وهزموا الحرورية.. واندلعت ثورات وحروب كثيرة في عهد معاوية، كان مسرحها ارض العراق.. ومن ابرز الاحداث العراقية في عهد الطاغية قتله لحجر بن عدي 51 هـ / 670 م، وكان من أنصار علي ورجلا تقيا، وكان حجر يستفز والي الكوفة: زياد بن ابيه.. وكان زياد قد اعتقله وارسله إلى معاوية وقام الاخير بقتله بعد إن علم بتجمع اقاربه والتوجه إلى الشام ثم دفع معاوية (100) الف درهم إلى مالك بن هبيرة السكوني، ابن عم حجر لقاء سكوته فسكت الرجل وطابت نفسه للمال.وانتقدت عائشة، معاوية، عندما زارها في موسم الحج وقالت له: يا معاوية أما خشيت الله في قتل حجر واصحابه ؟؟

من الحقائق المعروفة إن ثبات ملك معاوية ترجع معظم دوافعه إلى القبضة القوية لولاة معاوية في العراق..وكان الطاغية الصغير زياد بن ابيه، حاكم العراق وقتذاك، اول من شد أمر السلطان واكد الملك لمعاوية الزم الناس الطاعة بالقوة والأرهاب والقتل وهدم الدور أو احراقها.. وجرد السيف وعاقب على الشبهة بتشجيع معاوية ودعمه للطاغية الصغير.. وتقول الروايات إن الطاغية زياد الذي اعقب المغيرة بن شعبة الذي مارس الحرية مع العراقيين إلى حد مارس سياسة تخويف الناس حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى ياتيه صاحبه فياخذه وتبيت المرأة فلا تغلق عليها الباب.. كان معاوية ينتقي من الولاة للعراق اكثرهم قسوة واجراما وكانوا يقلدون معاوية تقليدا فيعتمدون على اكثر الرجال خسة في مراكز مهمة كالشرطة مثلا.. كان معاوية لا يتوانى عن سحق أية بادرة ثورية أو معارضة تهدد حكمه لكنه كان يرضخ بمذلة للروم ولا يحاربهم وعندما شعر إن قيصر الروم يزحف على بلاد الشام قام معاوية فصالحه ودفع له (خاوة) قدرها (100) الف دينار.. ومعاوية اول من صالح أعداء الاسلام عندما تصالح مع الروم.. كان مبدأه الأساس هو الحفاظ على الحكم بأية وسيلة وبأي ثمن.. وكان اول حاكم اسلامي خرج عن مبدأ الجهاد ضد أعداء الدين عندما عقد الهدنة مع الروم ودفع لهم تلك الاتاوة الضخمة.

لقب معاوية بـ(ملك العرب)، ودخل عليه ذات يوم، سعد بن أبي وقاص فقال له: السلام عليك ايها الملك ؟ فضحك معاوية مختالا واجاب سعدا: ما كان عليك يا أبا اسحق لو قلت: يا أمير المؤمنين ؟

ومعاوية يعلم تماما إن اللقب الاخير هو الذي يكسبه (الشرعية) أمام المسلمين وليس لقب آخر اعتاد العرب على معرفته إنها القاب كسروية أو رومية ليس معاوية بحاجة إليها على الاطلاق.. ثم إن لقب الخليفة يعني (التكليف) بينما (الملك) يعني (التشريف والسيادة).. ومعاوية يعرف إن لقب (أمير المؤمنين) ذي قيمة معنوية وشرعية ثم إن الرجل يعرف، كذلك إن حصوله على هذا اللقب لم يكن ليحصل بوجود علي بن أبي طالب فكيف الحال وقد اختفى الامام الشرعي وهو أمير المؤمنين الحقيقي –علي – من الحياة..

لذا فان اسراع معاوية باضفاء هذا اللقب عليه يجنبه الكثير من التساؤلات.. ثم من المحال إن يحرز معاوية لقبه هذا مع وجود علي.. كما كان حريصا في ذات الوقت على إن يظهر بمظهر ملك الملوك.. أليس الرجل لصيق الدولة الرومانية ؟؟

الوقائع تقول إن معاوية طموح للجاه والسلطان.. وخطط لهذا الامر منذ حياة عمر بن الخطاب (رض) عندما تولى ولاية الشام وكيف انه استقبل عمرا في الشام بمظاهر (ملوكية) انتبه لها الخليفة العادل ابن الخطاب..

ان الطاغية الأول جمع امارة المؤمنين بعقيدتها وادارتها مع مظاهر الملوكية في ابهتها ووجاهتها .. لذلك فليس غريبا إن نقرأ في كتب الأولين إن معاوية: هو آخر الخلفاء الراشدين وأول ملوك العرب في الاسلام ؟؟

وكان الرجل ذكيا جدا إذ استطاع إن ينظم الدولة الجديدة التي انشأها من اجل استمرار التقاليد المعروفة في عهد الخلفاء الراشدين بل دولته هو.. نظم الشرطة وعين لها قائدا استعان بالعيون بشكل لم يسبق له مثيل.. كان له حرس خاص.. كاتب خاص.. حجاب خاصون.. اتخذ ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم من قبل.. اتخذ المقصورة في الجامع.. أول من استخلف بالبيعة.. وأول من بايع لولده يزيد .. ثم ولاته القساة المتنفذون والمنفذون لتعليماته الصارمة حرفيا وبدقة عجيبة.. في عهد معاوية تأسس التنظيم الشامل للدولة البوليسية الاستبدادية، ودخل العرب والمسلمون في نفق الطغيان والاستبداد الظالم ولم يعد للعدالة والديمقراطية التي عرف بها عهد الخلفاء الراشدين من مكان ...

في عام 56 هـ / 675 م، كان معاوية السلطان المطلق في الدولة الاسلامية التي اسسها النبي ﷺ ثم آلت بشكل غريب إلى (الطلقاء) أعداء الاسلام الحقيقيين.. دورة عجيبة للزمن الذي انهى الحكم النقي بميلاد الحكم الاموي الوراثي.. في تلك السنة كان معاوية وحيدا وقد احس باقتراب اجله.. فكر مليا في تهيئة الظروف الملائمة لضمان البيعة ليزيد .. وطريقة معاوية في (البيعة) معروفة ولسنا بحاجة إن نخوض في تفاصيلها لكن يجب الإشارة إلى بعض (الامور) التي تكشف (اسلوب) معاوية في ادارة المعضلات السياسية التي تواجهه وكانت بيعة يزيد (معضلة) حقيقية ادارها معاوية بخبثه ولؤمه الذي عرف به.. يعتبر المغيرة بن شعبة صاحب فكرة البيعة والاستخلاف ليزيد .. وقد طرحها مباشرة على يزيد بعد ما احس المغيرة إن (نية) معاوية تتجه نحو اعفائه من ولاية العراق ثم بعد إن علم معاوية بالحديث الذي دار بين المغيرة ويزيد عن طريق الاخير الذي اخبر اباه قام معاوية وكتب إلى والي المدينة المنورة (مروان بن الحكم – طريد رسول الله ﷺ – وقال له بالحرف الواحد: (اني قد كبرت سني ودق عظمي وخشيت الاختلاف على الامة بعدي وقد رأيت إن اتخير لهم من يقوم بعدي وكرهت إن اقطع امرا دون مشورة من عندك فاعرض ذلك عليهم واعلمني بالذي يردون عليك) ونفذ مروان ما جاء برسالة سيده وقام في الناس واخبرهم بنية (امير المؤمنين) فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال له: - كذبت والله يا مروان وكذب معاوية، ما الخيار اردتما لامة محمد ولكنكم تريدون إن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل..

واعترض الحسين بن علي (ع) وكذلك ابن عمرو الزبير.. وكان معاوية قد حرض عماله في الامصار إن يروجوا ليزيد ويمتدحوه غير إن معاوية فوجئ بمجيء محمد بن عمرو بن حزم من المدينة والاحنف ابن القيس من البصرة فقال محمد لمعاوية: إن كل راع مسؤول عن رعيته فانظر من تولي أمر أمه محمد. فبوغت معاوية حتى انه عانى صعوبة في تنفسه ولم يفعل سوى إن يحسن إليه ويسكت.

وقرر معاوية إن يرسم خطته بمكر. أمر بالوفود .. فاجتمعت عنده وقال للضحاك بن قيس الفهري: أني متكلم فإذا سكت فكن أنت الذي تدعو إلى بيعة يزيد وتحثني عليها .. وهكذا (اخرج) معاوية (مسرحية) البيعة بإتقان إذ راح يمدح يزيد وعظم أمر الخلافة فانبرى الضحاك – حسب الخطة الموضوعة – وقال مخاطبا معاوية: لابد للناس من والي بعدك.. ويزيد ابن امير المؤمنين.. وهو من أفضلنا علما وحلما وأبعدنا رأيا فوله عهدك وأجعله علما بعدك ومفزعا نلجأ إليه ونسكن في ظله... وتكلم عمرو الاشدق بنحو من

ذلك.. ثم قام يزيد بن المقنع العذري فقال حاسما الموقف: - هذا امير المؤمنين – وأشار إلى معاوية فان هلك فهذا –وأشار إلى يزيد –ومن ابى فهذا –فأشار إلى سيفه فأثنى عليه معاوية قائلا: اجلس فأنت سيد الخطباء..

وطلب من الاحنف بن القيس إن يبدي رأيه فقال: نخافكم أن صدقنا ونخاف الله لأن كذبنا وتفرق الناس وهم يرددون قول الأحنف.

أخذ معاوية البيعة من اهل العراق والشام ولم يبق أمامه سوى اهل المدينة المنورة توجه إلى المدينة بألف فارس فلما دنا من المدينة لقيه الحسين (ع) أول الناس فلما نظر إليه قال: لا مرحبا أهلا بدنة يترقرق دمها والله مهريقه.. أجابه الحسين: مهلا.. فاني والله لست بأهل لهذه المقالة.. قال له معاوية: بلا ولشر منها... وقابل ابن الزبير فقال معاوية له: لا مرحبا ولا أهلا، خب ضب تلعه، يدخل رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله إن يؤخذ بذنبه ويذق ظهره.. وطلب من مرافقيه إن يبعدوه عنه.. ثم لقي عبد الرحمن بن أبي بكر فقال له: لا أهلا ولا مرحبا، شيخ قد خرف وذهب عقله.

ويتضح من ذلك إن معاوية لم يبال بأولاد الصحابة الكرام وبروحه الحاقدة قابلهم بهذا الفجور والعقوق..وبتجبره كطاغية لم يتمكن من اكتساب احترامهم وطاعتهم رغم قساوته وجبروته..

وكذلك تكلم بجفاء وحقد مع ابن عمر بن الخطاب لكن أولاد الكرام غادروا المدينة إلى مكة احتقارا وازدراء لمعاوية الذي جمع الناس وخطب بهم مذكرا إياهم بـ(مزايا) يزيد .. وقد قال معاوية دون إن يخجل أمام أهل المدينة الذين كانوا يعرفون (حقيقة) يزيد ..

●من أحق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه ؟؟

وكان معاوية قد هدد الحسين وأصحابه بالقتل.. وزار عائشة التي انتقدته على تهديده لهم وقالت له: بلغني انك تهددهم بالقتل..

انكر معاوية قائلا: يا أم المؤمنين هم اعز من ذلك..

لكن عائشة لم تكن حازمة معه فأجابته: ارفق بهم فأنهم يصيرون إلى ما تحب أن شاء الله

ثم ذكرته بمقتل أخيها محمد في مصر وقالت: ما يؤمنك إن أقعد لك رجلا يقتلك وقد فعلت بأخي ما فعلت ؟

فقال معاوية: أني في بيت آمن ؟

وفعلا (غير) معاوية من أسلوبه.. إذ قابل الحسين في مكة وأحسن إليه وفعل بالباقين مثل ذلك.

كان معاوية يشك إن الحسين هو الذي يتولى (قيادة) المعارضة ضد بيعة يزيد وصارحه بذلك.. لكن الحسين أجابه: فأرسل إليهم فأن بايعوا كنت رجلا منهم.. وطلب معاوية منه عدم إخبارهم بما دار بينهما .. واجتمع بهم ولم يحصل على شيء.

بعد إن أحس معاوية باقتراب اجله المحتوم، لما بلغ وهن الشيخوخة.. طلب من أهله تزيينه حتى كأنه في قوته وشبابه.وأمام النهاية القاسية، وهي الألم الممض لكل طاغية، ينشد معاوية مخاطبا ربه:

إن تناقش يكن نقاشك يا رب   عذابا لا طوق لي بالعذاب

أو تجاوز فأنت رب صفوح   عن مسيء ذنوبه كالتراب

ويضع الطاغية رأسه في حجر ابنته (رملة) وينشد مودعا:

لقد سعيت لكم من سعي ذي نصب   وقد كفيتكم التطواف والرحلا

ثم يوصي الطاغية أهله أن يلبسوه قميص رسول الله ﷺ إذا مات.

هذا القميص الذي قال عنه معاوية في لحظاته الأخيرة أن الرسول ﷺ كساه إياه فحفظه تلك المدة الطويلة وقال لهم:

أن رسول الله ﷺ قلم أظافره يوما فجعلتها في قارورة.. واسحقوا تلك القلامة وذروها في عيني وفمي فعسى الله إن يرحمني ببركتها .. وأنشد أيضا:

إذا مت مات الجود وانقطع الندى   من الناس إلا من قليل مصرد

وردت الف السائلين وامسكوا   من الدين والدنيا بخلف مجدد

وكان معاوية يدري إن هناك من يفرح بنهايته فقال:

فهل من خالد إن ما هلكنا   وهل بالموت يا للناس عار

ومات الطاغية معاوية..

معاوية لم يكن خليفة أو ملكا ..

انه اكبر من هذين اللقبين.. لقد تجاوز دور الحليفة.. والملك.. انه حاكم وطاغية.إن معاوية كما عبر عنه افضل تعبير الكاتب بسام العسلي: علم من أعلام السياسة والحكم والإدارة، انه لعبة القدر وصانعة في وقت واحد.. انه لعبة القدر، فقد جاء إلى الشام كقائد ثانوي من قادة الفتح فيها ثم اخذ القدر في التمهيد لبروزه فأزال له من طريقه مجموعه من القادة لولا غيابهم (أبو عبيده بن الجراح، خالد بن الوليد، يزيد بن أبى سفيان) وسواهم كثير.. ترى ماذا كان يحدث لو وجهه الخليفة أبو بكر لجبهة العراق ؟ أو لو عينه واليا في اليمن أو في أي عمل آخر من أعمال المسلمين ؟

أمضى معاوية – يا للمصادفة الغريبة – عشرين عاما تقريبا وهو وال على الشام قبل إن يبدأ بشق طريقه نحو القمة في مجتمع العرب المسلمين، فهل كانت كفاءة معاوية وحدها هي التي ساعدت على توحيد الشام تحت قيادته ليشكل قاعدته الصلبة والقوية ؟ حتما لا لقد عمل القدر على مساعدته وبعد ذلك الم تكن نجاته من المؤامرة التي ذهبت بأقوى منافسيه في ليلة 17 رمضان هي ضربة قدر محكمة ؟

لم يكن معاوية مجرد لعبة صماء وإنما كانت لعبة لها دورها وكان معاوية يتفاعل مع قدره فكان له دوره الكبير أيضا في صنع ((ما هو مقدر له)) وتلك هي المسألة الصعبة في الخيار بين ((الجبرية والقدرية))..

خلاصة القول، والعودة إلى البداية، توضح لنا تمسك معاوية بهدفه: تسلم الخلافة بأي ثمن.

كان معاوية يكتب لرسول الله ﷺ وينظر إليه الرسول يوما وقال له: يا معاوية إن وليت أمرا فأتق الله وأعدل.

ويقول معاوية: فما زلت أظن أني مبتلى بعمل.. وما زلت أطمع في الخلافة منذ قال رسول الله ﷺ: (إن وليت فأحسن)..

وعمر بن الخطاب الذي قال عنه عندما شاهد معاوية مقبلا إليه في موكب مهيب: هذا كسرى العرب

والسؤال الكبير الذي يجابه الباحث في السيرة السياسية لمعاوية: هل كان الرجل متجردا من القيم الأخلاقية ؟؟ من الصعب الإجابة إجابة قاطعة وحاسمة ولكن معاوية لم يعط وزنا أو اعتبارا أخلاقيا لبعض ممارساته السياسية.. لم يتورع عن استخدام ما نهى عنه الإسلام.. والواضح إن معاوية لم يهدف إلى بناء الدولة الإسلامية فحسب بل

لتحقيق الأغراض التي تشبع طموحه الشخصي.. وهو طموح أتضح بشكل جلي في صراعه مع علي.. ولم يكن حريصا على حقن دماء المسلمين رغم علمه إن كبار الصحابة كانوا مع معسكر علي، وعمار بن ياسر نموذج واحد يدلل على عدالة المسألة التي يقاتل من اجلها الخليفة الشرعي علي بن أبى طالب..

ابرز ضحايا معاوية الذين تخلص منهم بطرق (ميكيافيلية):

- الاشتر النخعي، والي مصر، الذي أرسله علي وقام معاوية بمراسلة المسؤول عن خراج مصر (الجايستار) كاتبا له: إن الاشتر قد ولي مصر فأن (كفيتنيه) لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت وفعلا عندما وصل الاشتر للسويس استقبله (الجايستار) واتاه بطعام فلما اكله جلب له بشربة من عسل قد جعل فيه سما فسقاه اياه فلما شربها مات -

●أمر معاوية (ابن ناثال النصراني) إن يحتال في قتل والي حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي مال إليه اهل الشام.. فخافه معاوية وضمن للنصراني إن يضع عنه خراجه ما عاش وان يوليه جباية خراج حمص فلما رجع عبد الرحمن من بلاد الروم دس إليه ابن اثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص فوفى معوية بما ضمن له

من أقوال معاوية التي كان كثيرا يرددها : إن لله جنوداً من عسل ترى كم هم (ضحايا) شربة العسل ؟؟ بالاغتيال السياسي، أزاح معاوية إعدادا من منافسيه أو الذين استشعر منهم الخطر لمشاريعه المستقبلية أو كانوا عقبة كاداء أمام جموحه السياسي.. هناك حقيقة أخرى يجب إقرارها بلا تحيز ضد معاوية بان الرجل كان قاسيا وعنيفا في تعامله مع خصومه وأعدائه ومنافسيه.. قاسيا وعنيفا في تصفيتهم على نحو غريب عن الخلق الإسلامي المبكر في ذلك الوقت..

ان (شربة العسل) تبقى لصيقة بمعاوية وقد اشتهر بها للوصول إلى أهدافه. ويبقى سؤال اخر، هل كان معاوية مخلصاً لتعاليم الإسلام وهو لم يترك وسيلة شريرة لتأجيج القتال بين المسلمين في معارك صفين مثلا ؟؟

إن معاوية باختصار شديد النموذج السلبي للردة والقائد الفعلي للحرب الأهلية التي أشعل فتنتها ضد أمير المؤمنين على بن أبى طالب.

ما عرف من خصال هذا الطاغية الذي حكم العراق من بلاد الشام هي معرفته الدقيقة بالرجال الذين قادهم أبان الفتنة في صفين.. لقد اختار الرجال الذين آمنوا به

إيمانا (دنيويا) معروفا للجميع.. رجال لم يسألوا معاوية لماذا يقتلون عليا .. إلى أين يذهبون.. من هو علي.. ومن يكن معاوية.. و و و و... معاوية ليس شجاعا كما يروج له البعض.. فسيرته في الحرب لا تدلل على ذلك.. كما إن الرجل كان يفضل الموت على معاناة الألم.. حتى انه قال لطبيبه الذي عالجه من اثر الضربة التي أصيب بها في إليته: لي في يزيد ما يكفيني... والمقصود في ذلك إن الطبيب خير معاوية بين جرعة تقتل نسله وبين احتمال الم الحديد المحمي (الكي).

من الملاحظات المهمة عن شخصية معاوية إن قراراته كانت مبنية على معلومات دقيقة وصحيحة.. يجمع المعلومات ثم على ضوئها يقرر.. يجيد الإصغاء والاستماع وذاكرة قوية والصبر الطويل.. الأناة والتمهل.. تكتيكي جيد بلغة عصرنا .. مناور بارع لخصومه.. متابع دقدق لقراراته التي يصدرها . يسعى إلى توفير كل الوسائل التي تساعد على نجاح قراراته وتنفيذها بدقة.. ومع كل هذه الصفات الذاتية لا يمكن إنكار إن معاوية كان محظوظا .

وأخيرا هل ننسى ونحن في مجال تشخيص دهاء هذا الطاغية ما تناقل عنه في رسالته إلى علي: لقد جئتك بمائة ألف مقاتل لا يميزون بين الناقة والجمل.

((3))

في بعض الأحيان يكون الاعتداد بالرأي نوعا من الاستبداد الفردي وقد لا يكون صفة للحاكم بقدر ما يكون خطأ في قراره الذي يعكس إلى حد بعيد رأيه الفردي الذي يؤذيه أولا ومن ثم الجماعة... فمما زاد الخرق اتساعا بين علي ومعاوية مثلا، إن أمير المؤمنين لم يقبل نصيحة المغيرة بن شعبة حين دخل عليه وقال: انزع من شئت واترك معاوية فان لمعاوية جرأة في مركزه ريثما تهدأ الأحوال وتستقر الأمور ولكن عليا أصر على عزله من ولاية الشام ورفض الأخذ بتلك النصيحة فاتهمه ابن عباس بضعف الرأي حين قال له: (أنت رجل شجاع ولست صاحب رأي).

معاوية هو القائل: (لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو إن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. قيل: وكيف يا أمير المؤمنين؟ قال: كانوا إذا مروها خليتها وإذا أخلوها مددتها).

وصية معاوية هو القائل: (لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفي لساني ولو إن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. قيل: وكيف يا أمير المؤمنين؟ قال: كانوا أمروها خليتها وإذا أخلوها مددتها).

وصية معاوية لولده يزيد بشان اهل العراق: (وانظر اهل العراق فان سألوك إن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل ايسر من ان يشر عليك مائة ألف سيف..)

((4))

كان زياد بن أبيه (يعري) نساء الخوارج الثائرات ويقتلهن فلم تخرج النساء بعد ذلك على زياد وكن إذا دعين إلى القتال قلن: لولا التعرية لسارعنا.

واستخدم زياد أسلوب هدم الأحياء والدور وتقتيل القبائل التي تثور عليه وكتب مرة متباهيا إلى معاوية: (دوخت لك العراق وجبيت لك برها وبحرها... وحملت إليك لبها وقشورها..)

وبلغ خراج العراق في عهده (120) مليون درهما.. عين ابنه عبيد الله خلفا لأبيه سنة 674 ميلادية بعد عزل واليين على البصرة تعاقبا اثر وفاة زياد. واستخدم خطة جديدة مع خصومه حيث قام باطلاق سراح المسجونين من الخوارج في سجن أبيه في البصرة وبعد اقل من ثلاث سنوات عادوا إلى نشاطهم السابق فاعتقلهم وسجنهم ثم عرض عليهم إن يقتل بعضهم بعضا على إن يخلي سبيل القاتلين من منهم فنجحت خطته حين تولى بعضهم قتل إخوانهم فأطلق سراح هؤلاء المقتلة. وكان ابن زياد يقتل على الشبه والظنة.. وكان يعبر عن نتائج (انتقامه) من الخوارج وهم اشد خصومه: (ما ادرى ما اصنع بهؤلاء الخوارج؟ كلما أمرت بقتل رجل منهم اغتالوا قاتله فلم يعلم مكانه..)

((5))

يلخص أبو حمزة كبير قادة الخوارج رأيه بالأمويين فيقول: (وأما بنو أمية ففرقة ضلالة، بطشهم بطش جبيرة، يأخذون بالظنة ويقضون بالهوى ويقتلون على الغضب ويحكمون بالشفاعة ويأخذون الفريضة من غير موضعها ويضعونها في غير أهلها..).

((6))

كان يزيد غائبا عندما مات معاوية وقدم إلى دمشق بعد عشرة أيام من رحيل الطاغية وانشغل على حد تعبيره بـ (نقل الخلافة وفقد الخليفة) في رسالته التي كتبها إلى خالد بن الحكم عامل المدينة... شعر يزيد بخيبة أمل كبيرة من مواقف رموز اهل المدينة من أمثال الحسين وابن الزبير ثم إن اهل المدينة أنفسهم لم يحققوا للطاغية الجديد أماله رغم اغراءاته الكثيرة التي قدمها متنازلا في سبيل الحصول على البيعة منهم.. وقرر يزيد

استخدام القوة.. فسير جيشا بقيادة مسلم بن عقبة وأوصاه الطاغية: إن حدث بك حدث فأمر الجيوش إلى حصين بن نمير فانهض باسم الله إلى ابن الزبير واتخذ المدينة طريقا إليه فان صدوك أو قاتلوك فاقتل من ظفرت به منهم وانهبها ثلاثا (أي اجعلها مباحة ثلاثة أيام لعسكرك يفعلون بها ما يشاءون).. وودعه الطاغية وهو يقول له: (فالسيف السيف أجهز على جريحهم واقبل على مدبرهم وإياك إن تبقى عليهم) وصل جيش بن عقبة إلى وادي القرى وهناك التقى بالعوائل الأموية التي خرجت من المدينة ولم يعد معه إلا مروان بن الحكم ومعه ابنه عبد الملك وكان مجدورا.

واجتاحت الجيوش مدينة رسول الله ﷺ والنساء والصبيان يصيحون ويبكون على قتلاهم.. وكان مسلم قد أعلن أمام جنوده: من جاء برأس رجل فله كذا وكذا.. وكان اهل الشام يقتلون بأهل المدينة من كل وجه.. وقتلوا يومئذ عبد الله بن زيد بن عاصم صاحب رسول الله ﷺ.. ضربه شامي بفأس بيده على رأسه فسقط ميتا وكان الصحابي في يومه ذلك صائما.. وقتل كثير من الصحابة وكان مسلم يحز رقابهم وهم موتى ونهب اهل الشام الأثاث والحلي والفراش.. حتى الحمام والدجاج كانوا يذبحونها وأقام الجند مذابح لأهل المدينة. ومما يرويه الدينوري في كتابه (الإمامة والسياسة): إن مجموعة من الجنود الشاميين دخلوا على أبو سعيد الخدري وقد لزم بيته وبالرغم من علمهم إن الصحابي لم يشارك في القتال إلا انهم طلبوا منه إخراج ما لديه وما عنده فقال لهم: والله ما عندي مال. فنتفوا لحيته وضربوه ثم سرقوه واخذوا حتى الكوز الذي يشرب به وزوج حمام كان له. وأمر مسلم بالأسرى فغلبوا بالحديد ثم اخذ ينفذ فيهم أحكام الموت بالتدريج.. قتل يزيد بن عبد الله بن زمعة من بني اسد، ثم قال لمعقل بن سنان حامل راية قومه يوم الفتح مع رسول الله ﷺ: أعطشت يا معقل؟ قال: نعم قال: حيسوا له شربة من سويق اللوز الذي زودنا به امير المؤمنين، فلما شربها قال له: رويت؟؟ قال: نعم فقال مسلم: أما والله لا تبولها من مثانتك أبدا.. فضربت عنقه.. وقتل عبد الله بن الحارث.. من وجوه المدينة.. بعد حوار قصير اتهم فيه بتحريضه على قتل الأمويين فأجابه عبد الله: قد قلت.. وايم الله لو أطاعوني ما أشرت به عليهم ما تحكمت فيهم أنت أبدا.. وكان مسلم قد اتهم عبد الله بأنه القائل: اقتلوا (17) رجلا من بني امية لا تروا شرا أبدا..

بلغ قتلى (الحرة) من جيش الأنصار والمهاجرين (1700) وعدد آخر من سائر الناس يقدر بـ (10000) وعدد كبير من النساء والأطفال والصبيان..

وكان أهل الشام في عهد الطاغية يزيد يطلقون على اهل المدينة اسم (اهل الخبيثة)؟ ويذكر الدينوري انه قتل يوم الحرة من أصحاب النبي ﷺ ثمانون رجلا ولم يبقى بدري

بعد ذلك ومن قريش والأنصار (700).. وكانت المذبحة التي صنعها الطاغية لأهل المدينة عام 63 هـ.. وعندما خرج مسلم عن المدينة يريد ابن الزبير توقف قرب جبل وأحس بأجله فدعا الحصين حسب وصية يزيد.. مات مسلم ودفن إلى جوار الجبل ولما غادر الجيش هبطت أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة وكانت تراقب عسكر مسلم وتترقب موته.. فنبشت قبر مسلم وانتهت إلى لحده فوجدت اسودا منطويا على رقبته فاتحا فاه لكن الأسود تنحى لها عنه فصلبته وكان الناس يرمون مسلم، وهو مصلوب، كما يرمى قبر أبي رغال.

وعرف أهل المدينة بعد مذبحة الحرة ارتداء الملابس المصبوغة بالأسود ومكث النوح في دورهم سنة لا يهدءون.. اشتهر يزيد في الصفحات الإجرامية في كتاب التاريخ بكونه قاتل الحسين بن علي وان حادث كربلاء المفجع لم يقل مأساوية عن جريمة (الحرة) التي ارتكبها يزيد وهو يد شن (خلافته) الإسلامية في الدولة الجديدة كوريث لأبيه معاوية.. لكن الذي حصل إن يزيد (انتقم) لـ (نفسه) لشعوره بالضعف والانحطاط من قبل المجموعة الإسلامية في الحجاز.. هذه المجموعة لم تكن احتراما يليق بـ(عقدة) يزيد.. كان الرجل يدري جيدا ويدرك انعزاله في المدينة ومكة.. كان يعلم إن رجالا مثل ابن الزبير والحسين وابن عمر غير قادرين على (هضم) البيعة أو في الأقل (الاعتراف) بشرعيته كـ(خليفة) للمسلمين وقد بذل معاوية جهوده لـ(انتزاع) البيعة لابنه الذي اتهم بسلوكه وسمعته، لكنه لم ينجح ومات معاوية وفي قلب يزيد أحقادا كبيرة على رجال المدينة ومكة.

كان عمرو بن سعيد بن العاص هو والي المدينة أو أميرها في عهد يزيد وأراد هذا الأمير الأموي إجبار الناس على مقاتلة ابن الزبير أو جلب البديل وقيل إن الحارث بن مالك بن البرصاء جاء ببديل له استأجره بـ(500) درهم للذهاب مع جيش بن العاص إلى مكة وقال للأخير: قد جئت برجل بدلي.. وكان الحارث قد قال للرجل البديل: هل لك إن أزيدك خمس مئة أخرى وتنكح أمك ؟ فقال البديل: أما تستحي ؟ فرد الحارث عليه: إنما حرمت عليك أمك في مكان واحد وحرمت عليك الكعبة في كذا وكذا مكان من القرآن.. وجاء به إلى ابن العاص وقال له: قد جئتك برجل لو أمرته إن ينكح أمه لنكحها

في تلك الفترة العصيبة من حكم يزيد جاءت الرسائل من العراق إلى الحسين.

ووصلت المعلومات إلى الطاغية عن تحرك اهل العراق فعزل أميره على الكوفة وعين عبيد الله بن زياد بناء على اقتراح من بعض أكابر اهل الشام الذين استمع إليهم يزيد فأشاروا عليه بوصية معاوية.

بايع الحسين أمام مسلم بن عقيل اكثر من ثلاثين ألف من اهل الكوفة.. وتحرك عبيد الله إلى الكوفة.. ونهض المبايعون للحسين يتقدمهم مسلم يريدون ابن زياد.. وكانوا كلما اشرفوا على زقاق انسل منهم ناس حتى بقي مسلم في شرذمة قليلة.وكان البعض يرمونه بالآجر من فوق البيوت فاضطر مسلم إن يدخل دار هانئ بن عروة المرادي وحاول هانئ إقناع مسلم باغتيال ابن زياد في داره بعد إن يدعي المرض.. وتمارض وزاره ابن زياد.. وكان هانئ قد أخفى قتلة ابن زياد واتفق معه على إشارة معينة إذا قالها ضربوا عنق ابن زياد.. (إذا قلت لكم اسقوني، فاخرج إليه فاضرب عنقه).. فقال هانئ حسب الاتفاق: اسقوني.. فابطؤا عليه.. فقال: ويحكم اسقوني.. وغادر ابن زياد.. ولم تنفذ العملية.. لكن هانئ دفع رقبته ثمنا باهضا لتردد ابن عقيل ومن ثم قتل الأخير أيضا بعد إن القي القبض عليه وقد تسببت (وصيته) أمام ابن زياد كارثة كبرى للحسين الذي كان قد تحرك بأسرته نحو الكوفة.. قال مسلم لعمرو بن سعيد، حليف ابن زياد: ما أرى ها هنا من قريش غيرك فأدن مني حتى أوصيك أو حتى أكلمك.. ولما دنا منه همس له: إن الحسين ومن معه وهم تسعون بين رجل وامرأة في الطريق فارددهم واكتب إليهم بما أصابني لكن بن سعيد لم يحتفظ بالسر فأباحه لابن زياد الذي قال له: أما والله إذا دللت عليه لا يقاتلهم أحد غيرك.

نجد إن مسلم بن عقيل، بضعف شخصيته وتردده تسبب سببا مباشرا بكارثة كربلاء ... إذ كيف يمكن إن نصدق عقولنا وهي تقرأ إن بن عقيل (يشي) بالحسين ك(وصية) قبيل مقتله بلحظات عدوه. هذا ما يجب التصديق به بكل أسف واسى لان الذي حصل من ابن عقيل هو فعلا ما حصل

لما شعر الحسين ب(المصيدة) التي أوقعه فيها مسلم بن عقيل طلب أو بالأحرى وضع أمام قائد جيش عبيد الله بن زياد المدعو عمرو بن سعيد ثلاث خيارات أحلاهن مر: الموافقة على رجوعه من حيث أتى أو تسييره إلى الترك لمجاهدتهم حتى الموت أو تسييره إلى يزيد ليضع يده بيده.. لكن ابن زياد رفض ذلك واشترط على الحسين إلا إن ينزل على حكمه فأجاب الحسين ردا على شرط الطاغية قائلا:

- انزل على حكم ابن زانية لا والله لا افعل، الموت دون ذلك هو أحلى.

وقضي الأمر واستشهد الحسين ومعه عدد من آل علي.

ادخل ما تبقى من مجزرة كربلاء وهم (12) غلاما مغللين بالحديد وعليهم قمصان، على الطاغية يزيد.. ودار حوار التشفي من يزيد. قال لهم محاولا إلقاء مسؤولية ما

حصل على العراقيين متناسيا القتلة الحقيقيين لـ آل البيت: أخلصتم أنفسكم بعبيد اهل العراق ؟

أجابه علي بن الحسين: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل إن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور)

فغضب الطاغية واخذ يعبث بلحيته وقال متهكما: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) يا اهل الشام ما ترون في هؤلاء ؟

وكثرت اقتراحات المنافقين وقطعت فاطمة بنت الحسين نفاقهم قائلة للطاغية: يا يزيد بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رضخ يزيد للأمر ولم يعد حاجة لقتل الغلمان والنساء فهو قد (ارتاح) من خصمه اللدود: الحسين.. فما الذي يمنعه من إبداء (حسن) السيرة والموقف لمن تبقى من آل علي ؟؟ ليست هناك خسارة قط.

وهكذا (حفظ) التأريخ لنا تلك الساعات الدقيقة التي (تصرف) فيها الطاغية بـ(نبل) و(شرف) أمام أحفاد النبي ﷺ.. فأمر بإخلاء سبيلهم والذهاب بهم إلى الحمام ليغتسلوا وتقديم الطعام لهم ثم قال كذبته الشهيرة التي يذكرها الدينوري: لو كان بينهم وبين عاض بظر أمه نسب ما قتلهم ؟؟ والمقصود بقول الطاغية الكذاب هو الكناية عن أحط الناس لان الذي يعض بظر أمه يكون أحقر الناس حسب تفسير الدينوري.

مات الطاغية يزيد واستخلف ابنه معاوية. وكان في الثامنة عشرة من عمره وكان تقيا ورعا ومن خطبته الأولى استشعر بنو أمية الخوف.. الخوف من زوال الخلافة منهم.. لم يكن لدى معاوية بن يزيد ميلا شديدا للحكم والسلطة ومظاهرها فقد ترك للمسلمين الخيار بين استخلافه أحد المسلمين أو إخراجه من الخلافة.وكان رأيا خطيرا على أسماع بني أمية..

وتدبر كبار رجال بني أمية الأمر فلم يلبث معاوية أياما حتى طعن ومات الرجل العاقل ولم يستخلف أحدا.. وبعد دفنه وقف مروان بن الحكم وبنو أمية حوله، قائلا: الملك بعد أبى ليلى لمن غلبا.

بعد موت الطاغية يزيد كان الصراع يتمحور بين ثلاث مراكز تتهافت لتسلم السلطة: الحجاز والكوفة ودمشق.. لكن الذي حصل إن مروان بن الحكم تولى زمام الأمور في

دمشق واستعد لفرض هيبة الدولة (الأموية) ثم كان مروان يخشى منافسه – وهو في قمة السلطة – خالد بن يزيد بن معاوية فأقترح عليه إن يتزوج أم خالد (وانك إن تزوجت أمه كسرته) وتزوجها مروان في العراق، في تلك الفترة الحرجة، سيطر ابن الزبير مما اضطر عبيد الله بن زياد إن يخطب ويتودد في خطبته للعراقيين واخبرهم إن لا معنى لأي شيء بعد موت الخليفة يزيد .فقام أحد العراقيين وقال للطاغية ابن زياد: الحمد لله الذي أراحنا من بني أمية وأخزى ابن سمية ثم نهض العراقيون وضربوا ابن زياد بالحجارة وسبوه.. وتعالى تأييد لابن الزبير.. وأطلقوا سراح السجناء من سجون ابن زياد الذي اختفى في قصره ومنع أحد إن يدخل عليه وزاد الحراسات خشية إن يقتلوه.. ثم استجار الطاغية بالازد وطلب من الحارث بن قيس الازدي إن ينقذه.. وهكذا انتهى أمر الطاغية ابن زياد إن لبس لباس امرأة في (خمرتها وعقيصتها) فاردفه الحارث خلفه فخرج به على الناس فقالوا: يا حارث ما هذه ؟ قال: تنحوا رحمكم الله، هذه امرأة من أهلي كانت زائرة لأهل ابن زياد أتيت اذهب بها ..وهكذا تم (إنقاذ) الطاغية وتهريبه من نقمة العراقيين..

قام المختار في الكوفة فقتل عمرو بن سعد بن أبي وقاص وابنه حفص انتقاما من دوره في مجزرة كربلاء.. وفي دمشق نصب عبد الملك بن مروان على كرسي الخلافة.. وأرسل هذا الأخير جيشا كبيرا بقيادة عبيد الله بن زياد يريد المختار.. ووقعت المعركة وقتل عبيد الله ومن معه ممن شارك في مجزرة الحرة.

ثم قام عبد الملك باستدراك عمرو بن سعيد إلى دمشق وقتله ثم رمى رأسه مع الدنانير والدراهم فانشغل اتباعه ونسوا قائدهم القتيل.. والطريف إن أبو جعفر المنصور أعاد تمثيل هذا المشهد كرة أخرى مع أبى مسلم الخراساني.

ثم جاء الحجاج إلى عبد الملك قائلا له: أنى رأيت في المنام كأني اسلخ عبد الله بن الزبير. فقال له: أنت له فأخرج إليه.

كان قتالا غير متكافئا بين جيوش الحجاج وجيش عبد الله ابن الزبير، فدخل الأخير على أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق وهي عمياء من الكبر، وقد بلغت من العمر مئة سنة.. فقال لها: يا أماه ما ترين قد خذلني الناس وخذلني اهل البيت.. فقالت السيدة أسماء: يا بني لا يلعبن بك صبيان بني أمية، عش كريما، ومت كريما .وقاتل لكن حجارة من أحجار المنجنيق أصابت قفاه فسقط فاندفع نحوه جند الشام واحتزوا رأسه..

((7))

من اشهر (شهداء) طغاة العراق هو.. الإمام الحسين (ع)..

عندما كانت فاطمة قريب عهد بولادة الحسين، زارها الرسول الكريم فجعل الحسين في محجره وبكى ﷺ فقالت له أسماء بنت عميس التي روت الحادثة: فداك أبى وأمي مم بكائك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: بني هذا يا أسماء انه تقتله الفئة الباغية من امتي لا إن لهم الله شفاعتي.. يا أسماء لا تخبري فاطمة فأنها قريب عهد بولادة..

ما لقبه الرسول الكريم ﷺ في قوله الكريم عنه وعن أخيه الحسن (أنهما سيدا شباب اهل الجنة) وقوله ﷺ: حسين سبط من الأسباط أي أمة من الأمم.. أو قوله ﷺ هذان ابناي وابنا ابنتي: اللهم أني احبهما فاحبهما وأحب من يحبهما ... وكثير جدا من الأحاديث المروية عن حب الرسول الكريم ﷺ للحسين والحسن.. ورغم كل ذلك قتله الطاغية يزيد قتلة شنيعة.. والحسين قال في المعركة التي اختارها الله له: أني لا أرى الموت إلا سعادة ولا أرى الحياة مع الظالمين إلا جرما.. وقوله (ع): شر خصال الملوك الجبن على الأعداء والقسوة على الضعفاء والبخل على الإعطاء.. ومن شعره:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقا وجاهد مسلما

اقدم نفسي لا أريد بقائها لتلقى خميسا في الوغى عرمرما

فان عشت لم أندم وان مت لم آلم كفى بك ذلا إن تعيش فترغما

والعجيب إن أولاد الحسين من الذكور قتلوا جميعا في المعركة إلا واحداً منهم استنقذته العناية الإلهية من جنود وأعوان الطاغية.. هو الإمام السجاد علي بن الحسين (ع).. الذي نجا من الذبح بأعجوبة، فقد كان مريضا، طريح الفراش يوم قتل أبوه الحسين وبقية اخوته وأولاد أعمامه وأقاربه وأنه لما قتل الحسين قال عمر بن سعد، قائد في جيش الطاغية عبيد الله بن زياد، لا تعرضوا لهذا المريض..

وأمر الطاغية الصغير ابن زياد بتسفير من تبقى من عيال الحسين إلى الشام.. إلى الطاغية الكبير يزيد.. ولما صاروا عند يزيد قام رجل من اهل الشام فقال: إن نسائهم حلال.. فقال علي بن الحسين: كذبت ما ذلك إلا إن تخرج من ملتنا..

وعادة الطغاة القديمة، انهم بعد إن يصفون معارضيهم جسديا، يأخذون بالتملق إلى من تبقى ممن لا يعتبرهم الطاغية خطرا على سلطانه فيتودد لنسائهم وأطفالهم

وعجائزهم وهكذا نجد الطاغية يزيد لا يخالف شريعة أسلافه فيطرق رأسه مليا ثم يخاطب علي بن الحسين بمودة كاذبة: إن أحببت إن تقيم عندنا فنصل رحمك وان أحببت وصلتك ورددتك إلى بلدك..

ورجع أفراد العائلة المنكوبة إلى بلدها ورفضت الإقامة إلى جوار الطاغية..

والحسين مقاتل من طراز المجاهدين الأوائل إذ حارب في القسطنطينية من بلاد الروم وفي طبرستان في بلاد فارس وفي شمال أفريقيا..

كان يزيد غير مؤهل للخلافة وأمتنع من بيعته الحسين وعبد الله بن الزبير وكلاهما استقرا في مكة..

سمي العام (61) هـ الذي قتل فيه الحسين بعام الحزن..

((8))

كانت (وصايا) أغلبية طغاة بني أمية غريبة ولا صلة لها بأحوال المسلمين بقدر ما كانت تأكيدات على أهمية عدم الفرقة بين أفراد (البيت الاموي) ومن طريف ما يذكر، الوصية – النموذج التي حفظها التأريخ لنا عن الطاغية عبد الملك.. لما حضرته الوفاة جمع بنيه وقال لهم:

انظروا أخاكم مسلمة..

اصلحوا ذات بينكم..

ليجل صغيركم كبيركم..

وكبيركم صغيركم..

مسلمة أخاكم فأنه شيخكم وسيفكم الذي به تضربون..

وبينما كان الطاغية يحتضر أومأ بيده نحو مصلى عندما لمح خالد وعبد الرحمن ابنا يزيد بن معاوية وهما يدخلان عليه.. امتدت يد الطاغية تحت السجادة الصغيرة وقال لهما: أتحبان إن أسألكما بيعة الوليد وسليمان..

فقالا بدون تردد: معاذ الله من ذلك..

ثم اخرج الطاغية سيفا.. وقال لهما: والله لو قلتما غير ذلك لضربت أعناقكما بهذا السيف..

كان عبد الملك قويا حتى في لحظاته الأخيرة.. وهو يحتضر طلب ابنه الوليد وخاطبه:

●اسمع يا وليد قد حضر الوداع وذهب الخداع وحل القضاء..

●فبكى الوليد .. فوبخه الطاغية: لا تعصر عينيك علي كما تعصر الأمة الوكساء (أي الخسيسة)..

●ثم أوصى بخبث: إذا مت ... اخرج أنت إلى الناس والبس لهم جلد نمر واقعد على المنبر وادع الناس إلى بيعتك فمن مال بوجهه عنك كذا فقل له بالسيف كذا وتنكر للصديق والقريب.. أوصيك بالحجاج خيرا فأنه هو الذي وطأ لكم المنابر وكفاكم تقحم تلك الجرائم

نصح سليمان الخليفة الجديد الوليد بعزل الحجاج عن العراق.. قائلا له:

●اعزل الحجاج عن العراقيين فأن الذي افسد الله به اكثر مما اصلح.

قل الوليد مذكرا سليمان: إن عبد الملك قد أوصاني به.. خيرا ؟

قال سليمان: عزل الحجاج والانتقام منه من طاعة الله وتركه من معصية الله.

أجابه الوليد : سنرى في هذا الأمر..

وكان هذا الحوار يجسد كراهية سليمان للحجاج ومخالفته لوصية أبيه..

كان آل مروان يلقبون الحجاج، طاغية العراق، بـ(ملعون ثقيف)، وقد وردت هذه العبارة على لسان خالد بن ابان وهو يحث موسى بن نصير إن لا يمكن نفسه من الوقوع بين يدي (ملعون ثقيف)..

لم يحفل طغاة آل مروان بـ (رجالهم) الذين سفكوا الدماء في سبيل تدعيم ملكهم.. وليس غريبا إن نقرأ النهاية المحزنة لموسى بن نصير على يد الطاغية سليمان وتعذيبه له رغم إصابة بن نصير بمرض الربو..

لقد كانوا يستبدلون (رجالهم) كما يستبدلون نعالهم وجواريهم وغلمانهم إلا عمر بن عبد العزيز.

كان سليمان كما يصفه عمر: لحوح..

وسليمان يكره الحجاج وموسى من زمن ليس قصير.. كان احنق الناس على هذين الرجلين.. رغم الاختلاف الكبير بين شخصيتهما..

((9))

حكاية عمر بن عبد العزيز مع الخلافة لا بد إن تذكر..

في عام (99 هـ) مات سليمان.. وقبيل وفاته دعا بنينا له صغارا بحضور عمر بن عبد العزيز الذي كان يتمتع بمكانة جليلة بين آل مروان وبني سفيان في الوقت نفسه.. ولما كان أولاد الطاغية المحتضر صغارا علق الأخير ساخرا: قد افلح من كان له بنون كبار.. لكن عمرا رد عليه: ليس هكذا قال الله.. قال الله تعالى (قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى).

وعرض سليمان الخلافة على عمر. قال عمر: لا حاجة لي بذلك.

سليمان: ولم ذلك ؟

عمر: لأني لا أريد اخذ أموالهم (يقصد المسلمين والناس أجمعين) فإذا لم أرد اخذ أموالهم فما الذي يدعوني إلى ضرب ظهورهم ؟

سليمان: لا بد من هذا.

عمر: ولم ذلك ؟ ولك في ولد عبد الملك سعة فاعفني من هذا يعف الله عنك.

سليمان: والله لا اوليها غيرك بعدي.

عمر: وما الذي يدعوك إلى هذا ؟

سليمان: أنى قد رأيت في منامي قائلا يقول لي: إن عمر بن عبد العزيز لك جنة ووقاية وجسر تتخطاه فأوليت ذلك إن شاء الله إن أوليك الأمر من بعدي لتكون توليتي لك جنة من النار وجسرا اركبه لأنجو عليه من عذاب يوم القيامة ثم ليزيد بعدك فأنه ارشد ولد عبد الملك.

عمر إن هذا الأمر لا يسعني بيني وبين الله عز وجل إن أتقدم على أمة محمد وفيهم خير مني.

سليمان: أما في آل أمية وعبد شمس فلا اعلم خيرا منك

عمر: ففي آل عبد مناف وآل هاشم من هو خير مني

سليمان: لا

وبعد حوار طويل بين عمر وسليمان اقترح الأول اسمين هما القاسم وسالم للخلافة.. كان عمر يبذل محاولات كثيرة ليبعد عنه مسؤولية الخلافة فالرجل عرف بإسلامه الحسن وإيمانه الشديد وهو زوج فاطمة ابنة عبد الملك وكان الأخير يحبها كثيرا وفضل تزويجها من عمر لاجلاله لشقيقه واحترامه لابنه عمر..

اعترض سليمان على الاسمين المقترحين بحجة كونهما لا يصلحان للملك ولا الملك لهما ولا من معدن الملك لهما وهما ليسا لزمان هذه الخلافة لان هذا الزمان – على حد تعبير سليمان – "ملك وسيف في وجه ذئاب تعدو ليست على غنم تؤمن" سكت سليمان وظن عمر انه اقنع الخليفة بإعفائه دعا سليمان بصحيفة ثم كتب بيده المرتعشة من شدة المرض ولا يعلم عمر ما خطه الخليفة على الورق.. ثم دعا سليمان برجاء بن حيوة وقال له: من كان اسمه في كتابي هذا فهو الخليفة بعدي فمن نزع عن ذلك وأباه فالسيف السيف والقتل القتل..

في تلك الساعات الحاسمة جاء وصيف يسعى ليعلن نبأ وفاة سليمان فرجع عمر إلى المسجد والناس يسلمون على عمر بالخلافة وهو يقول: لست به..

ثم قام رجاء إلى جانب المنبر وخطب واخرج العهد ففضه بمحضر منهم ثم قرأه عليهم.. ومما جاء في (وصية) سليمان الطويلة: (... وصاحب أمري بعد موتي في كل من استخلفني الله عليه، الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ابن عمي... ثم ليزيد بن عبد الملك من بعده..) ؟

وقيل إن سليمان كسب بتعيينه عمرا، الاستحسان من قبل جميع المعارضين والمناوئين للحكم الأموي فقد أيد الخوارج هذا التعيين.. وقيل أيضا إن بيعة عمر هي البيعة الوحيدة التي كانت بيعة تامة جامعه طيبت بها النفوس ولا يشوبها الغش ولم يخالطها الدنس..

والعجيب ان يبدأ عمر خلافته، في أيامه الأولى، بيع أموال سليمان ومزارعه وثيابه وجميع ما كان يملكه أي مجموع ما باعه عمر من ممتلكات سليمان بقيمة (24) ألف دينار وجعله في بيت مال المسلمين.. ثم دخل على زوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وكان عمر شديد التعلق والحب بها وأخذ يبكي ثم قال الرجل: اختاري الثوب الذي عمل لك أبوك أو اختاريني؟ وكان أبوها قد صنع لها ثوبا منسوجا من الذهب منظوما بالدرر والياقوت وأنفق عليه (100) ألف دينار.. ثم قال عمر:

●إن اخترتني فأني آخذ الثوب فأجعله في بيت المال وأن اخترت الثوب فلست لك بصاحب.

أجابت فاطمة:

●أعوذ بالله يا أمير المؤمنين من فراقك لا حاجة لي بالثوب ؟؟

وحكاية عمر مع الشعراء مشهورة، خاصة لقاءه المعروف بجرير.. إذ اعتاد هذا الشاعر الشهير إن يدخل على الخلفاء الذين سبقوا عمر بلا تأخير لكنه أمضى وقتا طويلا بانتظار ان يدخل على عمر لكن الأخير فضل إن يدخل عليه أولا عون بن عبد الله الهذلي وكان من زهاد زمانه.. وقد توسط جرير هذا الزاهد بالدخول على عمر ومن الطريف إن عمرا استقبل جرير وأنشده قصيدة طويلة أختتمها :

أنت المبارك والمهدي سيرته   تعصى الهوى وتقوم الليل بالسور

بكى عمر وهملت عيناه.. ودار الحوار التالي بينهما :

جرير: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله.. إن الخلفاء كانت تتعاهدني فيما مضى بجوائز وصلات، وقد أصبحت إلى ذلك منك محتاجا .

عمر: ارفع حاجتك إلينا يا جرير ؟

جرير: ما عودتني الخلفاء قبلك.

عمر: وما ذلك ؟

جرير: أربعة آلاف دينار.. وتوابعها من الحملان والكسوة.

عمر: أمن أبناء المهاجرين أنت ؟

جرير: لا

عمر: أفمن أبناء الأنصار أنت ؟

جرير: لا

عمر: أفقير أنت من فقراء المسلمين ؟

جرير: نعم

عمر: فأكتب لك إلى عامل بلدك إن يجري عليك ما يجري على فقير فقرائهم.

جرير: أنا ارفع من هذه الطبقة يا أمير المؤمنين.

عمر: انصرف.

ثم طلب عمر برده فلما رجى جرير قال له عمر: قد بقيت خصلة أخرى، عندي نفقة وكسوة أعطيك بعضها ثم دفع إليه بأربعة دنانير فقال جرير: وأين تقع مني هذه يا أمير المؤمنين؟

قال عمر: إنها والله لمن خالص مالي ولقد أجهدت لك نفسي.

جرير: والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال كسبته.

ثم خرج.. ولقيه الناس فقالوا له: ما وراءك ؟

قال جرير عبارته الشهيرة: جئتكم من عند خليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وأني عنه لراض؟؟

لقد كان عمر بن عبد العزيز، قفزة نوعية وسيرة متميزة في الدولة الأموية، فلقد امتاز هذا الخليفة بحب الفقراء والتمسك الشديد بالعدالة وإنصاف المظلومين وتروى عنه قصص ومواقف تثير الإعجاب والفخر في تأريخ الأمويين.

وكان عمر – كما ترد عنه الروايات – لا يميل إلى الحجاج بن يوسف الثقفي.. وان عمرا حدث زوجته عن رؤيا تلخصت بأنه وجد نفسه مع النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي.. ويمضي عمر في سرد رؤياه قائلا: (فبينما أنا سائر فإذا بجيفة قد علا نتنها الخلائق فضربتها برجلي وقلت لمن معي: لمن هذه الجيفة ؟ فقيل لي: هذا الحجاج بن يوسف الثقفي، فضربته برجلي فقلت له: ما أفعل بك يا حجاج ؟ فقال: يا أمير المؤمنين والله لقد قتلت بكل قتيل قتلته بسيف من نار ولقد قتلت بسعيد ابن جبير اثنين وسبعين قتلة. فقلت: فآخر أمرك ما هو ؟ قال: أنا ها هنا انتظر ما ينتظر من وحد الله وآمن برسوله).

بعد هذه الرؤيا مرض عمر.. ودعا أولاده وهم (14) غلاما فنظر اليهم وقد لبسوا الخشن فاغرورقت عيناه بالدموع وقال لهم: أوصيكم بتقوى الله العظيم..

ويقال إن عمرا لما مات ودفن، كشف عن وجهه وهو في القبر فإذا وجهه مثل ليلة البدر وعلى صدره كتاب ليس من خط البشر فيه الكلمات التالية: (بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب بالقلم الجليل، من الله العزيز العليم، براءة لعمر بن عبد العزيز من العذاب الأليم) والله اعلم.

تركت وفاة هذا الخليفة العادل الذي قل نظيره بالعدل والإنسانية، آلاما كبيرة في نفوس الناس الذين ذكرتهم سيرة عمر بعدالة الخلفاء الراشدين ونزاهتهم وتمسكهم القوي بتعاليم الإسلام.. ومن شدة إعجاب الناس وحبهم لعمر إن قصصا وحكايات كثيرة جاءت في صفحات التأريخ عن أصداء رحيل عمر في الأمصار الإسلامية.. فقد اختلطت الحقائق بالأساطير من شدة تمسك الناس حبا بالرجل العادل الذي كان بحق (فلتة) زمانه في العهد الأموي الاستبدادي الدموي.

((10))

من الطبيعي إن تكون قلوب بني أمية مع الخليفة الجديد بعد تنفسهم الصعداء بعد رحيل عمر بن عبد العزيز ومجيء يزيد بن عبد الملك الذي سار على منوال سيرة الوليد حتى ظن الناس إن الوليد لم يمت. وحكم يزيد (101هـ) ومات سنة (106هـ) وقتل في هذه الفترة القصيرة من حكمه الكثير من أشراف قريش بتحريض عمه محمد بن مروان بن الحكم.

استلم الخلافة هشام بن عبد الملك سنة (106هـ) وقيل إن أباه تشاءم من ولادته عندما بشر بذلك ولعن زوجته التي ولدته وكانت مخزومية وقال للساعي الذي بشره: فما سمته ؟ قال: هشاما . قال: هشم الله رأسها . وسأله أحدهم عن سر تشاؤمه فأجاب عبد الملك: اخبرني أبي مروان انه سمع بشرة بنت صفوان تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (راحة أصحابي معاوية، ولا راحه لهم بعد معاوية، وراحة العرب هشام، ولا راحه لهم بعد هشام).

مما يذكر عن سيرة هشام انه كان محبا لآل هاشم وآل عبد المطلب وعندما ثار في عهده زيد بن علي بن الحسين في الكوفة ثم مصرعه على يد ابن هبيرة عامله في الكوفة دون رأي هشام، عظم عليه قتله وقال قولته الشهيرة: مثل زيد بن علي في شرفه وفضله يقتله ابن هبيرة إن هذا لهو البلاء المبين.. ثم أمر بعزل ابن هبيرة عن الكوفة وأغرمه ألف ألف..

وامتدت فترة حكم هشام عشرين سنه ومات سنة (126هـ).

((11))

وتولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك.. وكان فاسقا، سفاكا للدماء.. أباح الحرمات.. لاهيا .. لاعبا .. ولم يكن مأمون الجانب من اقرب الناس والأعوان اليه.. وفعلا قام بإهانة وتعذيب وإذلال أحد ابرز (رجالهم) وهو خالد عبد الله القسري.. الذي قتل ابشع قتلة عندما وضع حجر ثقيل على صدره حتى زهقت روحه رغم إن الوليد يعلم

تماما الخدمات (الجليلة) التي قدمها القسري من اجل ترسيخ الحكم الأموي.. وهكذا نجد إن الرعيل القديم اخذ يتهاوى تدريجيا أمام نزوات صبيان الخلافة الجدد في أواخر العهد الأموي..

إن الوليد استعدى عليه أقاربه ومعارفه.. ثم ثار أهل دمشق عليه.. وبلغ من جبن الطاغية انه استسلم لجميع شروط الثوار الذين طلبوا منه إن يفعلوا به مثلما فعل بالقسري عندما عذبه واركبه حمارا بلا سرج والبسه قميصا فقط.. وقبل الوليد شروطهم لكنهم تراجعوا وطلبوا رأسه.. قال لهم الطاغية بذل: اخلعوني بقميصي هذا.. هجم الثوار على قصره يقودهم يزيد بن خالد بن عبد الله القسري ...

ودخل عليه ثلاثين رجلا فضربه رجل واحتز رأسه.

بايع الناس يزيد بن الوليد الذي استمر ستة اشهر في الحكم ثم ولي إبراهيم بن الوليد فمكث ثلاثة اشهر ثم خلع وهرب ثار مروان بن محمد بن مروان بن الحكم يطلب الخلافة.. سنة (127هـ)..

((12))

لم يشتم العراقيون طاغية حكم العراق مثلما شتموا الحجاج بن يوسف الثقفي..

ولم ينل غير عراقي تولى حكم العراق من الاتهامات التي شملت كل ناحية من نواحي حياته الشخصية وسيرته السياسية وأسلوبه في الحكم مثلما نالها الحجاج..

الطريف في التأريخ العربي، إن الأمويين لم يكتبوا تأريخهم.. فقد كتبه العباسيون.. وان معظم المؤرخين الذين كتبوا تأريخ الأمويين عاشوا في العصر العباسي..

أعداء الحجاج. الزبيريون في الحجاز والعراق لأنهم ثاروا عليه فقضى على حركتهم.. العلويون.. المهالبة، لأنه عزل عميدهم يزيد بن المهلب عن خراسان.. الخوارج، بشعرائهم وأدبائهم ورواتهم ومقاتليهم..

كتبوا عن الحجاج: انه قتل لما يزيد على 70 ألف رجل من المصلين في جامع واحد هو جامع البصرة..

تألق نجمه في عهد عبد الملك بن مروان (684م –705م) ومهد السبيل له لقتال عبد الله بن الزبير ومن ثم منحه ولاية العراق.. وكتب البعض، يدافع عن الطاغية الحجاج: بأنه كان رجلا متدينا إلى درجة لا يرقى إليها الشك لما كان مستقيما لا تأخذه في قول

الحق لومه لائم، عفيفا عن أموال الغير وأعراضهم.. مات ولم يخلف وراءه سوى دراهم معدودات..

سياسة الحجاج في العراق حملت الكثير – في رأي المؤرخين القدامى والمعاصرين – من الخطأ والزلل والحق أضرارا بأهل العراق..

جلب أهل الشام (من مؤيدي السلطة الأموية) وأسكنهم في العراق وزاد في أعطياتهم بالنسبة لما يأخذه أهل العراق.. تعصب للقيسية وعادى العلويين وقتل الكثير من أهل العراق وسجن مئات الآلاف من الناس.. اصل الحجاج ونسبه تعرض إلى نقد شديد وحملة تشكيك قوية الغرض منها الحط من هذا النسب.. ولأنه شخصية ظالمة كرهها العراقيون، فقد ارجعوا اصله إلى ثمود، والحجاج، نفسه تصدى لهذا الاتهام ورد عليه في مناسبات كثيرة محاولا نفيها أو التقليل من أهميتها..

كأية طاغية، نجد أخبارا قليلة عن والده ... يوسف بن الحكم ... ونالت أمه (الفارعة بنت همام) نصيبا كبيرا.. من روايات المؤرخين.. ولعل السبب يرجع للظروف التي أحاطت بها ولكونها تزوجت اكثر من مرة.. وهكذا أصبحت هذه النقطة في حياة أمه، مادة للروايات المناوئة للطاغية، وللحط من قيمته الشخصية وتشويها لصورة أسرته... معلومات قليلة جدا تسربت عن حياة والد الحجاج.. ويروى إن الوالد وابنه الحجاج انهزما في معركة الربذة وركبا على جمل واحد.. وسجل هذا الحادث عيبا كبيرا على الوالد وعلى ابنه الحجاج.. والربذه، اسم مدينة التقى فيها جيش عبد الله بن الزبير بقيادة الحنتف بن السجف بجيش مروان بن الحكم بقيادة حبيش بن دلجة القيني، الذي قتل وانهزم جيشه عام 65 هـ / 684هـ..

وتختلف الروايات عن أم الطاغية، فيسميها البلاذرى الفارعة بنت همام بينما يطلق عليها ابن حزم فريعة.. ولا يقتصر الخلاف في اسمها فحسب.. بل يتعدى ذلك إلى الرجال الذين تزوجتهم قبل يوسف بن الحكم.. فيذكر الجاحظ والبلاذرى والاصبهاني إن زوجها الأول كان المغيرة بن شعبة وقد طلقها فتزوجها يوسف أبو الحجاج فاولدها الحجاج.. ويقال إن المغيرة تنازل عنها ليوسف قائلا له: (تزوجها فأنها لخليقة إن تأتي برجل سوء فتزوجها..) والمسعودي يذكر إن زوجها الأول هو الحارث بن كلدة.. ويروي المسعودي شيئا عن ولادة الحجاج ويقول بأنه كان والغا بالدماء منذ اليوم الأول لولادته وانه لم يرضع من ثدي أمه إلا بعد ما لطخ بالدماء..

ولا تتوفر عن فترات الطفولة والصبا التي عاشها الحجاج معلومات مضبوطة.. لكن

الشعراء الذين هجوا الحجاج افصحوا شيئا عن ماضيه: بأنه كان دباغا وكان فقيرا مقترا وان اباء الحجاج كانوا ينقلون الحجارة بالطائف ويحفرون الآبار والمناهل بأيديهم.. وان أهم ما تركه التأريخ لنا إن الحجاج اشتغل معلما بالطائف.. وقد عيره بعض الشعراء بهذه المهنة، ومنهم مالك بن الريب الذي يقول:

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبد من عبيد أياد

زمان هو العبد المقر بذلة يراوح صبيان القرى ويغادي

وكان اسم الحجاج قبل إن يعرف هو كليب، لذا قلل الشاعر من مكانة الحجاج قائلا:

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر

رغيف له فلكه ما ترى وآخر كالقمر الأزهر

ويذكر عند موت الحجاج سئل أحد المنجمين: هل يموت ملك اليوم؟ قال: نعم، ولكن اسمه كليب، فذكر الحجاج إن أمه سمته كليبا وهو صبي الحيوان والكوثر، قرية قريبة من الطائف، كان الحجاج معلما فيها، وروى (ياقوت) البيت بالشكل الاتي:

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه صبية الكوثر

ويشير الشاعر إن سبب اختلاف الأرغفة لكون أرغفة المعلمين تأتي من بيوت صبية المدرسة وهم مختلفي الأحوال المادية. وقيل أيضا إن الحجاج فشل في التعليم وتركه وأخذ يبحث عن مهنة أخرى وكان مساعدا في كتاب لمعلم قوي الشخصية اخفت معه شخصية الحجاج.. كالعادة، تكون الحياة الخاصة للطاغية مغلفة بالأسرار والألغاز والأكاذيب والمبالغات وكثرة الروايات، لكن مما عرف عن الحياة الخاصة بالحجاج قبل توليه إمرة العراق: تزوج عددا من النساء.. هذا السعر الجنسي الذي لا يفارق طغاة العراق في مختلف المراحل والحقب.. وكما ذكر الرواة فان الطاغية تزوج حوالي ستة نساء وانه كان يختار نساءه حسب مواصفات معينة أبرزها تركيز سلطته في العراق من خلال الأصهار إلى اسر شريفة وقوية..

برز اسم الحجاج لأول مرة عند اشتهاره كظالم عديم الرحمة في معركة الحرة، في جيش يزيد الذي قتل من أهل المدينة المنورة مقتلة عظيمة ونهبت ثلاثة أيام.. لكن الحجاج لم يصمد في المعركة إذ اعترف فيما بعد بفراره منها هو وأبوه ثم شارك في معركة الريذة.. ثم ظهر اسم الحجاج على مسرح الأحداث تدريجيا منذ تولى عبد الملك الخلافة سنة 684م وتولى شرطة أبان بن مروان عندما كان الأخير واليا على فلسطين

لأخيه عبد الملك ثم صار أحد اتباع روح بن زنباع، وهو تابعي جليل كانت منزلته عند عبد الملك كالوزير لا يكاد يفارقه، وكان روح على شرطة الخلافة وقد أشار الأخير على الخليفة بتعيينه آمر العسكر أثناء قيام الخليفة بحملاته الحربية.. ومن الغريب الذي يذكر، إن الحجاج بدأ قسوته بأعوان سيده السابق روح بن زنباع الذين كانوا يتأخرون فجلدهم بالسياط وطوفهم بالعسكر واحرق خيامهم مما دعا روح إن يشكوه إلى الخليفة فأجاب الحجاج: انه لم يفعل شيئا إنما الخليفة هو الذي فعل ذلك، لان يده وسوطه إنما هما يد الخليفة وسوطه وطلب من الخليفة إلا يمحو الأثر العظيم الذي تركه عمله بالجند وتعويض روحا عما أصابه من خسارة في غلمانه وخيامه.. من هذه الحادثة اكتسب الحجاج ثقة الطاغية الأكبر عبد الملك.. ومن ولاء الحجاج المطلق لسيده الأكبر انه رفض إن يصلي وراء زفر بن الحارث عندما أرسله الخليفة بكتاب يدعو زفر إلى الطاعة، على اعتبار إن الأخير كان من الخارجين على الخليفة وقد كافأه عبد الملك على (إخلاصه) وولاه ولاية تبالة وتردد معظم المصادر تعيين الحجاج لولاية تبالة وكيف انه أبى أن يليها لكونها صغيرة فقيل في المثل: (أهون من تبالة على الحجاج) وأبتكر الحجاج أساليبا وحشية في التعامل بما تتفق مع أهواء الطاغية عبد الملك وقسوته، فقد كان الحجاج مثلا لا يمر على باب رجل من أهل الشام قد تخلف عن الخروج ألا أحرق عليه داره وبعثه الخليفة على رأس 20 ألف مقاتل لمقاتلة عبد الله بن الزبير عام 691 م فحاصر ابن الزبير في مكة ونصب عليها المجانيق وقضى على ثورة ابن الزبير بالنار والدماء الغزيرة وبقسوة لم يعرفها العرب من قبل وكافأه عبد الملك أن جعله واليا على مكة والمدينة والحجاز واليمن واليمامة ثلاث سنين.

والغريب أيضا أن بعض المدافعين عن الطاغية الحجاج برروا ضربة الكعبة بالمنجنيق بأنه ضرب الزيادة التي كان قد بناها ابن الزبير في الكعبة وأن هذا البناء لم يكن قائما في حياة الرسول لذا فهو ليس مقدسا وتناسى هؤلاء أن مجرد التفكير في ضرب أي جزء من الكعبة هو تطاول حقير وبادرة مرفوضة وسابقة خطيرة لا يمكن التسامح معها مهما حاول البعض تبريرها للطاغية الحجاج الذي كشف عن خواء روحه من الأيمان والإسلام بضربه الكعبة بالمنجنيق.. وهي الحادثة التي تؤكد أن الحجاج تسلم موافقة سيده عبد الملك قبل أن ينتهك حرمة الحرم المقدس وبسبب هذه الحادثة المؤلمة لقب الحجاج بالمحل لأنه أحل الكعبة ولقب أيضا بالجحاد.. وحاول الطاغية أن يثبت للناس احترامه لتقاليد المسلمين فأمر بإعادة بناء الكعبة وكساها بالديباج ثم كان أول من أطاف الناس حول الكعبة للصلاة وبنى مسجدا عرف باسمه في المدينة..

وتذكر الروايات أن معاملة الطاغية لأهل المدينة كانت معاملة قاسية شديدة وأساء إلى أهلها وأستخف بهم وختم على أيدي وأعناق بعض الصحابة بالرصاص ويقول الواقدي بأنه قد أظهر الاحتقار والاستخفاف بقبر رسول الله ﷺ ومنبره.

بعد هذه الأعمال الإجرامية التي ارتكبها الحجاج في أرض الرسالة المحمدية الطاهرة، نقل إلى العراق.

وفي العراق حكم الطاغية عشرين سنة وتوفي في مدينة واسط في رمضان سنة 95هـ / 714 م وعمره (53) سنة..

وتفنن العراقيون في رسم نهاية الطاغية.. وتعددت الروايات حول موته.. فقد قيل أنه مات بمرض (الآكلة) وأن الطبيب استخرج الدود من بطنه.. أو مات بالبرد الشديد.. أو توفي لان خنفساء لسعت يده (فقتله الله بأضعف مخلوقاته وأهونها).. أو مات بمرض السل.. روايات كثيرة مثل أعمال مسرحية درامية صورت نهاية الطاغية الظالم.. وتبارى فيها الشامتون بالحجاج.. صوروا ما عاناه من الآم قاسية في لحظات سكرات الموت.. وقالوا إنما هو جزاء من الله (على سوء سيرته).. روايات تصور عذاباته وهو يموت.. والناس الذين ظلموا في عصره أنتقصوا منه حتى في الطريقة التي مات فيها وكان سرور العراقيين كبيرا بيوم وفاته بحيث أطلقوا عليه أسم (عرس العراق).

من غرائب الطغاة أنهم لا يحملون صفات جسمية مميزة.. أي ليسوا أقوياء البنية وتجد أغلبهم من أصحاب الأوزان الضعيفة ونحيفي الأجسام فهذا الحجاج، مثلا كان صغير الجسم، دقيق الصوت، قصير القامة، صغير العينان.. أو كما يقال عندنا (أبو عيون الشرح) أي كانت عيناه تدمعان كثيرا.. وان عينيه وساقيه غير طبيعية وأنه اخفش العينين، والاخفش دون العمش، وقد وصف الحجاج نفسه، ذات مرة أمام سيده عبد الملك، بأنه (حقود حسود وذو قسوة)....

بعد نهايته، أنتقم يزيد بن المهلب، عندما تولى حكم العراق،من آل الحجاج وقتله لهم.. وابن المهلب يدري تماما ما فعله الحجاج لامرأة من آل المهلب عند محاسبته لهم على ما اختانوه من أموال فقد أمر مسؤول شرطته إن يقول لها إن تسلم مال الله الذي تحت (ذيلك) فقال لهم مدير الشرطة بوقاحة: أدي مال الله الذي تحت (استك) وأن المرأة التي تعرض لها مدير شرطة الحجاج هي زوجة عبد الرحمن.

ومن (شعارات) الحجاج الشهيرة: أعطي على البلاء والظرف واحرم على العجز والضعف.

وكان يقيم المآدب الفخمة لأهل الشام ومن قوله: قد جعلت رسولي إليهم في كل يوم الشمس إذا طلعت فليحضروا وعرف عنه انه كان نهما أكولا.. أن الحجاج شوهد وهو يأكل نحو ثمانين لقمة، فيأكل لقمة سمكة ثم أتبعها لحما وثريدا وحلوى.. وكعادة الطغاة، كان نهما بالطعام والنساء.. وكان عبد الملك بن مروان يغريه بشراب خاص، هو نبيذ الرمان، لزيادة الباه فيرد عليه الحجاج: حسب الرجل أن يصرع في الشهر مرة وهذه رواية تحاول إن تطرد عن الحجاج شبهة ولعه بالجنس.

كأي طاغية يرى أن طاعته واجبة على الناس.. وان سياسة الشدة انفع معهم من اللين لأن الناس: عبيد العصا وكان حسودا حقودا باعترافه هو، إذ كان فخورا بنفسه لا يحب إن يرى أحدا يتعالى أو يفخر بنفسه أمامه.. ويبني أحكامه على الظن.. وقد تعمق لديه هذا الهاجس المخيف في تعامله مع العراقيين.. وربما كانت لتجاربه الشخصية ما يبرر له هذه الهواجس، إذ أعطته دليلا أن حسن ظنه لم يكن في محله مع بعض الشخصيات التي احسن إليها..

المصيبة التي عاناها الحجاج إن اقرب مساعديه يتآمرون عليه ويكرهون أساليبه في الحكم.. فعروة بن المغيرة بن شعبة، ولاه الحجاج على الكوفة، نيابة عنه، لكن عروة لم يقدر على تحمل ظلم الحجاج للعراقيين فكتب إلى عبد الملك كتابا ذم فيه الحجاج ونسب إليه العجلة والتسرع في القتل.. وسعيد بن جبير الذي جعله الحجاج اماما في الكوفة ومن سماره ومسؤولا عن عطاء الجند التحق مع ابن الاشعث في ثورته ولم يقبل لنفسه إن يستمر مع الطاغية..

إن عدم اقتناء الحجاج للمال لا يدل على عفته.. ورغم انه ترك وراءه (300) درهما لكنه ترك وراءه الآف الضحايا من القتلى والمسجونين.. وترك الحجاج لبيت المال (17) مليون درهم وقدره آخرين بـ(200) مليون درهم من أموال العراقيين، حملت إلى الوليد بن عبد الملك.

بعد رحيل الحجاج غير المأسوف عليه، اختلف المؤرخون في مسألة خطيرة هي: مدى أيمان الحجاج أو كفره ومما تشبث به أنصار فكرة (الحجاج كافرا) هو القول الذي نسب إليه عندما رأى الناس يطوفون بقبر رسول الله ﷺ ومنبره فقال: إنما يطوفون بأعواد ورمة بالية، وروى سعيد بن جبير: والله ما خرجت عليه حتى كفر وقال عامر بن شرحبيل الشعبي الذي تولى قضاء الكوفة لفترة في عهد الحجاج، بان الحجاج مؤمن بالطاغوت كافر بالله العظيم.. واعتبر البعض مقررا سلفا إن الحجاج من أهل النار..

وعرف عنه انه كان يتعمد تأخير صلاة الجمعة ويمنع من يحاول إن يؤديها قبله ويعاقب من يذكره بفوات وقتها .. لقد بات اسم الحجاج في تأريخ العراق مقرونا باللعنات والصفات القبيحة.. والشيعة مارست دورها في الزيادة على اللعنات وتشويه سمعته وكذلك فعل الخوارج والزبيريون وأتباع ابن الاشعث..

ولا نعتقد إن اغلب هذه الروايات مفتعلة فالحقبة التي حكم خلالها الحجاج كانت محنة كبيرة لأهل العراق والمدينة.. ومحنه قاسية لتيارات سياسية عديدة تشتتت بسبب قسوة الحجاج وأن عشرين عاما من الظلم والقهر والتعسف والقتل والسجن تكفي لاختراع آلاف القصص عن ظلم الطاغية الحجاج.. الذي ارتكب افظع الجرائم وزرع الإرهاب بين المسلمين..

لا يستطيع الطاغية إن يمنع انتشار الروايات والقصص في مجتمعه مهما حاول بوسائله الذاتية منعها أو تغيير مسارها أو إرهاب الناس بعدم تداولها .. والطاغية لا يقدر على منع المجتمع من تقبلها .. وتنتشر الأخبار المضادة للطاغية ويزيدها عنفا ومصداقية هو تقبل المجتمع لها بدون تحفظ وتصديقها على اعتبار إنها حقائق واقعية.. طالما ذكرها العلماء والرواة الثقاة في نظر الناس..

من البديهي إن إسراف الطاغية بالظلم وسفك الدماء وقسوته تحمل الناس، عادة على اتهامه بدينه..

والطاغية، في مرات كثيرة، يقع في وهم، إن الناس لا تجيد الأفعال البسيطة التي يفعلها هو، فيقوم بأداء الحركات المسرحية المستهجنة أمام خلق كثير، إذ طلب الحجاج مرة وهو على المنبر، إناء وإبريقا، ونزل من على المنبر وراح يتوضأ أمام الناس مذكرا إياهم بالطريقة الصحيحة التي يتطلبها الشرع.

انشغل الامويون في حرب طاحنة مع الخوارج. والولاة الامويين عانوا من سلبية العراقيين وموقفهم غير المشجع.. كان هذا الموقف العراقي يثير حفيظة الولاة الامويين في العراق.. لانهم لم يتجاوبوا مع اهدافهم الحربية.. واتهم هؤلاء الولاة، أهل العراق، بالتقاعس عن الحرب.. والعراقيين لاناقة لهم ولاجمل فيها .. وكان بعض الفقهاء يشجعون العراقيين على عدم الدخول في لعبة الأمويين الدموية ضد الخوارج.. ومما يروى أن عراقيا أتى إلى الحسن البصري فقال له: يا أبا سعيد إن هؤلاء استنفروني لأقاتل الخوارج فما ترى ؟ فقال: إن هؤلاء أخرجتهم ذنوب هؤلاء وإن هؤلاء يرسلونك تقاتل ذنوبهم فلا تكن القتيل منهم فان القوم أهل خصومة يوم القيامة ؟

وتقاعس العراقيين له مبررات – وان وجد مثل هذا التقاعس – هو كراهية العراقيين للحروب غير المجدية ومقتهم لحياة المعسكرات القاسية وعامل التعب الذي تسببته الحروب الطويلة التي أرغم العراقيون على خوضها .. وكان الولاة الأمويين في العراق يستخدمون أقسى أنواع العقوبات ضد المتخلفين، فمثلا كان بشر بن مروان إذا ظفر بالعاصي سمر كفيه في الحائط بمسمار وتركه إلى أن يموت.. وبعد موته، ترك قسم كبير من العراقيين جيش المهلب ورجعوا إلى ديارهم متخلفين عن القتال.. ومثلما فعلها أهل الكوفة، جربها أهل البصرة، لكن المهلب توسل بهم وقال لهم: أنكم تقاتلون عن بلادكم وحرمكم ولا تقاتلون لبشر ولا لخالد.. وخالد بن عبد الله، خليفة يشر، حاول تدارك الأمر فأخذ يهدد وتوعد الهاربين بالعقوبة الصارمة.. وقال في كتاب له بهذا الخصوص: أقسم بالله لا اثقف عاصيا بعد كتابي هذا إلا قتلته إن شاء الله.. ولم يكترث العراقيون لتهديده ودخلوا الكوفة مخالفين.. وفي العراق، إزاء هروب أعداد كبيرة من القتال، لم يبق اثر للسلطة ولا للنظام.. وهكذا لم يستطع المهلب أن يحقق نصرا كاسحا على الخوارج وظلت المشكلة معلقة إلى حين مجيء الحجاج إلى العراق.

فكر عبد الملك بن مروان بالأوضاع العامة في العراق الذي ظلت ولايته شاغرة بعد موت بشر.. والأخطار المحدقة بالسلطة الأموية في العراق.. وانعدام النظام ورجوع الجند إلى بيوتهم.. وازدياد المشاعر المعادية للأمويين في العراق.. كل هذه الأسباب الموضوعية إضافة إلى إخلاص الحجاج لعبد الملك وكفاءته جعل الأخير لا يتردد في ترشيحه واليا على العراق بعد وفاة بشر أخي الخليفة.

وصل الحجاج إلى العراق في رجب 75 هـ / 694 م ومزودا بنصائح عبد الملك في كيفية التعامل مع العراقيين فقد كتب إليه أن (يطأ) أهل الكوفة وطأة يتضاءل منها أهل البصرة.. وأن أهل العراق يختلفون عن أهل الحجاز.. أنهم يقولون كثيرا ولا يفعلون شيئا ..

المشهور في التأريخ أن الطاغية الحجاج بدأ بالكوفة.. وخطب فيها خطبة انتشرت شهرتها في الآفاق.. هدد بالقتل كل من وجد متخلفا عن جيش المهلب بن أبي صفرة بعد ثلاثة أيام.. أن عمق الأثر الذي تركته سياسة الحجاج في العراق، خلدت خطبته على مر العصور.. وبوقاحة وصلف خاطب العراقيين قائلا: (فأنتم أهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق..) وهددهم بأنه أستل سيفه ولن يغمده.. وكانت إجراءاته اللاحقة: أن أمر رئيس شرطته أن يقتل من وجده عاصيا بعد ثلاثة أيام وأمره أن يحشر الناس إلى المهلب حتى يسترجع كل رجل تفرق عنه سابقا .وكان عمير بن ضابئ البرجمي، أول ضحية لسياسة

الحجاج إذ نفذ فيه الحكم رغم أن الرجل جاء معتذرا عن الالتحاق بجيش المهلب لكبر سنه طالبا ارسال ابنه بدله لكن الحجاج قتله بعد أن ذكر له أنه كان له دور في قتل عثمان بن عفان بعد مصرع عمير، أصاب أهل الكوفة هلع كبير، وأخذوا يلتحقون بجيش المهلب، وتزاحموا على عبور الجسور. حتى غرق بعضهم مما أضطر الحجاج الى أقامة جسر آخر لاستيعاب الملتحقين بالجيش..

كانت محنة حقيقية للعراقيين، وترك الكثير من الرجال عوائلهم بلا توديع أو أن يتزودوا بالمتاع، وقد عبر الشاعر عن محنة المواطن العراقي في ذلك الوقت:

تخير فأما أن تزور أبن ضابئ عميرا وأما أن تزور

اذا نجح الحجاج في إسكات المعارضة العراقية رغم أنها استخفت به في البداية لكنها اكتفت بالتفرج ولم تستخدم ما استخدمته مع الولاة الآخرين.. والحجاج أبتكر أساليبه الخاصة في إرهاب الناس.. أساليب جديدة باعتراف المؤرخين والرواة.. وكان الحجاج في نفسه مخيرا في العاصي، إن شاء قتله وان شاء عفا ثم إن الحجاج درس تجربة الولاة السابقين على العراق.. واستفسر شخصيا من بعض العراقيين عما كان يفعله الذين سبقوه في حكم العراق فذكروا له، الضرب والحبس.. وان العقوبات التي كان يفرضها سلفه بشر بن مروان لم تعد تردعهم.. واخيرا اقتنع الحجاج، بعد دراسة وتمحيص في كيفية حكم العراقيين وجلبهم للطاعة، ان السيف هو الحل للمشكلة العراقية.. وقتل ابن ضابئ في الكوفة وشريك بن عمرو اليشكري في البصرة، ثم أخذ – بعد أن تيقن من سريان الخوف في أوصال العراقيين – يتفقد العصاة والرجال ويحبسهم نهارا ويفتح الحبس ليلا فينسل السجناء إلى المهلب وكأن الحجاج لا يعلم.

ما يزال اسم الحجاج مقرونا بسفك الدماء إلى يومنا هذا، والعراقيون يذكرونه بمرارة رغم مرور مئات السنوات على موته.. والبعض من العراقيين إذا ما أراد الدعاء على نفر من الناس دعا الله إن يسلط عليهم حجاجا آخر..

في البصرة ارتكب مجزرة وحشية تتلخص بوضعه (100) جندي على باب من أبواب مسجد البصرة، حيث إن الحجاج دخل البصرة في يوم الجمعة وقت الصلاة.. وكان للمسجد (18) بابا .. وبذلك أمر (1800) جنديا بقتل كل من يخرج من الأبواب ودخل على المصلين بـ (200) مسلح وأمرهم أن ينتظروا إشارته بقتل المصلين بعد أن يبدأ بخطبته، لأن الحجاج كان يعتقد أن المصلين سيصحبونه، وفعلا تحقق ذلك من بعض المصلين فأعطى إشارته إلى جنوده فابتدأوا بقتل المصلين في الجامع وعندما حاول

المساكين والأبرياء الخلاص من المجزرة تلقاهم الجنود الواقفون على الأبواب.. وقتل في هذه المجزرة البشعة أكثر من (70) ألفا، وقيل أن الدماء سالت إلى باب المسجد والى الطرق.. والغريب ان البعض يعتبر أساليب الحجاج الوحشية والقاسية بحق العراقيين، (خدمة) قدمها هذا الوحش، للإسلام.

من ابرز الثورات في عهده: ثورة ابن الجارود وثورة مطرف بن المغيرة وثورة ابن الاشعث.. وان هذه الثورات قامت بسبب سياسة الحجاج الخاطئة وأساليبه الاستبدادية القاسية.. فهو مثل أي مستبد قليل الصبر، ومتلهف لتلقي آثار ونتائج سريعة ومرضية لخططه.. ومثل أي مستبد وقع في مآزق سياسية كبرى ولم يحسب بواقعية ردود الفعل العنيفة لاستهتاره بإصدار الأوامر والتعليمات من دون شورى ومناقشة.. ثم عجرفته ومسحه لكرامات الآخرين، حتى وأن كانوا من المقربين إليه كالقادة والأمراء.. واحتقاره لهم.. هذه كانت ابرز دوافع الثورات القوية التي قامت في عصره.. ابن الاشعث، مثلا كان يأنف أن يكون تحت امرة الحجاج.. وهذا الأخير في رأي الأول، لا يصلح أن يكون جنديا أو خادما عنده.. وكان الحجاج قد أرسل جيشا من خيرة شباب العراق بامرة أبن الاشعث حتى سمي هذا الجيش بـ(الطواويس) لجمال الشبان الذين كونوا نواة جيشه.. والتحق بهذا الجيش العراقي، الكثير من القراء والزهاد والفقهاء الذين قدر عددهم بـ(12) ألفا وكان شعارهم: يا لثارات الصلاة..

في معركة (دير الجماجم) قال سعيد بن جبير: أننا نقاتل الحجاج وجيشه بسبب الجور في الحكم، والخروج من الدين، والتجبر على عباد الله، والاستئثار بالفيء، واماتة الصلاة واستذلال المسلمين.. وأعترض الفقيه الحسن البصري، ثورة القراء قائلا: انما ابتليتم بالحجاج عقوبة، فلن تستطيعوا أن تردوا عقوبة الله باسيافكم..الطاغية، يصل أقصى نشوته الذاتية، عندما يتمكن من انتزاع اعتراف الخصم – القوي، وهنا – في بعض الأحيان – يتسامى ويبذل قصارى جهده لكي يبدو (إنسانيا) وهذا ما فعله الحجاج مع الشعبي.. إذ بعد إن فشلت ثورة الاشعث أظهر الكثير من القراء (ندمهم) على الاشتراك فيها.. أعلنوا ذلك أمام الحجاج..لا ندري لماذا ينجح الطاغية بفرض قوته على الناس عندما (ينجح) في (تاديب) مثقفي الامة اذ لا يمكن ان نصف (فرحة) الحجاج وهو يستمع الى (ندم) مالك بن دينار وطلحة بن مصرف والشعبي الذي فاقهم بـ (ندمه) الشديد على اشتراكه بـ (الثورة) فوصف الثورة – للاسف الشديد - انها: ((فتنة لم نكن فيها بررة اتقياء ولا فجرة اقوياء)) وقد نجا الشعبي بكلامه هذا من سيف الحجاج واحتفظ برقبته سليمة بعد ان قال قولته – الفضيحة، ولم يتركه الحجاج فقد عقب بحث على قوله قائلا: (صدق والله ما بروا حيث خرجوا ولا قووا حيث فجروا.. اطلقوا عنه..).

الطاغية الحجاج عامل العراقيون بعقلية (المحتل) وحاول وقد نجح في ذلك عندما اراد ان يصنع من العراقيين، وهم أهل الدار، حطب رخيص لمعاركه (الاسلامية ؟) وفرض

اهل الشام كمواطنين من الدرجة الاولى وكان الكثير من العراقيين يروون باهل الشام (علامة) للسيادة الاجنبية لانهم كانوا ياخذون عطاء اكثر من جند العراق وكان على العراقيين ان يتحملوا مؤونة جند الشام، اضافة الى ان الحجاج كان يرسل العراقيين الى مناطق نائية عن عوائلهم في حين يبقى جند الشام عند اهلهم.. وان وجود جند الشام كمرتزقة في العراق، وهو درع النظام وحماته واداة القمع القسرية ضد رغبات العراقيين اثار استياء وتذمر البعض والحقد والانتقام من الحجاج وجنده وكان هذا الشعور معروفا في دمشق وعبد الملك بن مروان، كان يدرك خطورة هذه المشاعر العراقية المعادية للسلطة الاموية الشامية المركزية القمعية في العراق لذلك نجد ان الطاغية ابن مروان في مفاوضته للثوار بدير الجماجم يعرض على الثوار اخراج أهل الشام من العراق وقد طلب من ولديه المفاوضين باسمه: عبد الله ومحمد، ان يقترحا هذا الامر.. والثائر العراقي ابن الاشعث بدوره كان يدرك هذه المشاعر فطلب من كميل بن زياد النخعي ان يحرص الناس في دير الجماجم فكان مما قاله النخعي: ان أهل الكوفة قد غلبوا على فيئهم، لانهم فتحوا الفتوحات العظيمة بينما يتمتع أهل الشام بخراجها.

وممثلا الطاغية وضعا مساواة العراقيين بالعطاء مع اهل الشام لانها الثورة ولكن الثوار رفضوا ذلك. ولم يكتف الطاغية بارسال العراقيين الى ميادين الموت باسم الخلافة الاموية (الاسلامية) والى مناطق تبعد الاف الاميال عن اهلهم وعيالهم بل امعن باضطهادهم واحتقارهم اذ ارسل كتاباً يامر فيه العراقيين ان يحرثوا ويقيموا في الارض وقد عبر احد قادة الثورة واسمه عبد المؤمن بن شبث امام الثوار السياسة اللئيمة للحجاج قائلا: ان الحجاج ينوي ان يمنعهم من رؤية الاحبة.. والمهلب بن أبي صفرة ادرك خطورة توجيه الحجاج فنصحه ان لا يتعرض للعراقيين وان يدعهم يزورون اهلهم فترق قلوبهم وبذلك يتفرقون عن ثورة ابن الاشعث.

ثوار الاشعث باختصارهم الموالي المضطهدين والعشائر العراقية التي رأت في معاقبة الحجاج لزعمائها اهانة كبرى اضافة الى نقمة الموظفين والقراء الذين استاءوا من سياسة الحجاج ضد الفلاحين حينما أمر باخراجهم من المدن الى القرى والارياف.. ابن الاشعث حاول قدر الامكانيات المتاحة وقتذاك ان يجعل من العراق (دولة) مستقلة عن الامويين والتحرر من سطوة امراء العراق الذين تعينهم دمشق وهم في الاغلب ليسوا من أهل العراق..

ان كثرة من شارك في الثورة.. وتنوع المستويات فيها .. وشعارات الثورة ودوافعها هي التي جعلت الخلافة في دمشق ان تتعجل وتتسرع في احتواء الثورة قبل ان تحقق نصرها

الحاسم.. ان الثورة لم تفشل رغم الاعداد الهائلة التي شاركت فيها، بسبب غياب الاهداف فشلت لتشتت اهدافها .

رغم ان الخوارج كانوا يثورون منذ عهد الامام علي واوائل دولة الامويين لكنهم استطاعوا ان يشغلوا الطاغية الحجاج فترة طويلة، وثوراتهم لم تكن تشبه ثورات من سبقهم اذ انضم الى صفوفهم الكثير من المعدمين والمتذمرين على مظالم الحكام والولاة.. قال صالح بن مسرح، قائد الخوارج في زمن الحجاج، لاصحابه يحثهم على الثورة، وكان ذلك قبل ثورة شبيب الخارجي الشهيرة، التي حدثت في بداية الامر في الجزيرة ثم امتدت الى العراق: (ما ادرى ماذا تنتظرون وحتى متى انتم مقيمون هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا ولا تزداد هذه الولاة على الناس الا غلوا وعتوا وتباعدا عن الحق وجرأة على الرب فاستعدوا وابعثوا الى اخوانكم الذين يريدون انكار الباطل والدعاء الى الحق..).

ومن الثورات الكبيرة التي اندلعت في عهد الطاغية الحجاج، ثورة الزنج التي قال عنها الطاغية وهو يخاطب أهل البصرة: يا أهل البصرة ان عبيدكم وكساحيكم رأوا معصيتكم فتأسوا بكم.. ويبدو ان اسباب فشل الثورات التي قامت في عهد الطاغية الحجاج ترجع على حد تعبير الدكتور عبد الواحد ذنون طه في كتابه (العراق في عهد الحجاج): شدة اندفاع أهل العراق الى الثورة في بداية الدعوة اليها وفي اول قيامها ولكنهم بعد ذلك يتخلون عن حماستهم الشديدة..

وهذا اتهام تاريخي خطير، يعاد تكراره على حساب سمعة العراقيين، ويتناسى القائلين به حجم ارهاب الطغاة الذين تسببوا بافشال معظم ثورات العراقيين بالنار والحديد .. والعراقيون لم ينقضوا عهدا بعد ابرامه، لكن الذي يحصل ان الدمار والعنف الذي يجابه به ثوراتهم اقوى بكثير مما لديهم من امكانات وانهم يضطرون الى ذلك ولاسيما ان اغلب الشواهد التاريخية تؤكد ان العراقيين ظلوا زمننا طويلا بلا قائد عراقي من أهل العراق يستطيع قيادتهم.. كما ان الطغاة مارسوا هذا التشويه عمدا معتمدين على شهادات اسراهم الاذلاء الذين تحت جحيم التهديد بالموت والتعذيب يضطرون الى الادلاء بشهادات تمس (وطنيتهم).. وقد عبر اعشى همدان، بموقفه الذليل امام الحجاج، بعد اسره، اثر فشل ثورة ابن الاشعث، بقصيدة طويلة القاها، طعن فيها بايمان العراقيين.. وللاسف الشديد، حاول المؤرخون في عهد لاحق ان يكرسوا هذا الاتجاه معتمدين على مواقف خيانية لبعض العراقيين ممن مد جسور التآمر ضد قادة ثوراتهم، مثل بعض الخونة الذين راسلوا الطاغية عبد الملك على حساب ثورة مصعب ابن

الزبير.. والطاغية الحجاج اعترف فيما بعد كيف انه استغل تناقض العراقيين وضرب بعضهم بالآخر لكي ينكسروا وقال على اثر قضائه على ثورة ابن الجارود: (.. فضربت بمقبلهم مدبرهم وبمطيعهم عاصيهم وهكذا نجد بان الطغاة حاربوا ثورات العراقيين باهل الشام ومن بقي من العراقيين يؤمئذ على طاعة اوامر الحكم.. لا يمكن تصور طاغية بلا جواسيس وعيون واساليب نفسية.. قوة اية طاغية في تاريخ العراق (الإسلامي) هي: سيف وشرطة وعيون ومال.. اربعة عوامل اذا احسن الحاكم تامينها لنفسه، يصبح من السهولة حكم العراقيين زمناً ليس قصيرا.. والطاغية الحجاج لم يتردد في استخدام القيم والمثل الشريفة لاغراضه الدنيئة وكان ينادي بالامان ويغدر بمن يستجيب لكي يشتت خصومه.. كيف يمكن ان نصدق اتهامات المؤرخين بحق أهل العراق وهم الذين لم يترددوا في اسناد الثورات التي قامت في عهد الحجاج، ان شبيب الخارجي الذي قاتل الحجاج باسلوب حرب العصابات كان على صلات طيبة مع سكان الاقاليم العراقية واذا لم يكن هؤلاء كذلك كيف تسنى لشبيب ان يستمر زمنا طويلا في محاربة الحجاج بقواته الصغيرة.. ان تعاون العراقيين مع جميع الثوار الذين انتفضوا في العهد الاموي هو الذي دعا الاخرين لبث روح الشكوى والتذمر من العراقيين واتهامهم بنقض البيعة.

كيف نتخيل حب الطاغية عبد الملك للعراقيين وهم الثوار دائما على ولاته العراقيين كيف نتصور توجيهات عبد الملك عن العراقيين، وهم أي العراقيون قد شغلوه عن النوم واجبروه بالامتناع عن النساء بل شغلته ثورة ابن الاشعث حتى عن تولية رجل على الحج؟؟

لكل طاغية عدوا، يحقد عليه في الخارج، أي امام اعوانه والناس.. لكنه يضعه نصب عينيه في المواقف والمحن وهذا العدو هو (محبوب) الطاغية لان الاخير تعلم منه.. تعلم كيف يستمر طغيانه.. والحجاج تعلم من عدوه مصعب بن الزبير: الثبات.. ولم يفكر بالفرار ابدا رغم شدة وقسوة المعارك بين الطرفين.. فضل الحجاج ان يموت مثل عدوه، وحيدا في الميدان على الفرار.. وهكذا لكل طاغية دروسا يتعلمها من (ضحاياه)..

الحجاج نموذج مذهل لطغاة العراق في عصره (الاموي الإسلامي):

- الثقة والكفاءة سلاحه باختيار اعوانه

- يستمع الى شكاوى الناس على ولاتهم لكي تكون المعلومات عنهم مباشرة ولكي يدخل الهلع والخوف الى قلوبهم ولكي يتاكدوا ان عينيه لم تغمضا عنهم

- كان يتدخل في كل صغيرة وكبيرة.. يراقب التعيينات البسيطة التي كان عماله في المناطق التي تتبعهم يجرونها .. ويبدي رأيه فيها ..

- عندما يمر الطاغية بمحنة كبيرة ويفقد خلالها الثقة باعوانه وانصاره يلجأ فورا الى اقربائه وعشيرته، ونجد الحجاج (امينا) على قواعد طغاة العراق فيعين الحكم بن ايوب الثفقي، ابن عمه وزوج اخته، واليا على البصرة.

- وولاة الطاغية الحجاج يتمكنون من عزل أي موظف لديهم الا بامر منه وانهم يشكونهم اي للموظفين إليه فقط.

- وقريبه المغيرة بن عبيد الله الثقفي، والي الكوفة كان مشهورا بالبخل والرشوة.. وكان (يقضي) بين الناس وارتشى مرة سراجا وبغلة

- ولي الحجاج شخصا ولاية وكان الامام علي قد قطع اصابعه لخيانة ظهرت عليه وقال له الحجاج اثناء تبليغه بالتعيين: والله لئن بلغتني عنك خيانة لاقطعن ما أبقى علي من يدك

- كان الامراء والقادة والولاة والعمال في العراق في عهد الحجاج غارقين في مستنقع الرشوة والنهب.. وكان الحجاج يعلم بما يسرقون ويسكت.. لكنه طالب المهلب بن أبي صفرة، في احد المرات، بمليون درهم عن خراج الاهواز كما ان خالد بن عبد الله توقع السجن لولا تدخل الخليفة عبد الملك وكان خالد واليا على البصرة واتهم يزيد بن المهلب باختلاسه ستة ملايين درهم لكنه هرب ولحق بسليمان بن عبد الملك شقيق الخليفة الوليد وكتب الحجاج بذلك للخليفة..

- سياسة الطاغية الحجاج ترمي بالدرجة الاولى الى جعل حكامه يعتمدون عليه..

- كان الحجاج يطلب شروطاً (معينة) لرئيس الشرطة الذي يرشحه للتعيين.. دائم العبوس.. طويل الجلوس وشديدا وكان يوفر الجو الملائم له في العمل.. وكان الحجاج يعين رجلا على شرطة الكوفة واذا نجح ضم إليه شرطة البصرة.. وكان صاحب الشرطة بناء على توجيهات سيده يقضي فصل الصيف في الكوفة وفصل الشتاء في البصرة وكان الحجاج يميل الى تعيين مدراء الشرطة من غير العراقيين وخاصة من أهل الشام.. ولم تكن لاحد سلطة على رئيس الشرطة عدا سلطة الحجاج نفسه.. لذلك لم تكن العلاقة بين رئيس الشرطة والعامل ودية.. والحجاج يقصد ذلك.. والعراقيون كانوا يدركون تلك

العلاقات المتشنجة بين رئيس الشرطة والعامل لانهما كثيرا ما تشاجرا امام الناس وبلغ اعداد الشرطة في زمانه اكثر من (4) الاف شرطي ولكثرة اعدادهم كان الحجاج يشركهم في الحروب.

- والحجاج لم يكن يلتزم بفتاوى قضاته، وكان يلزم القاضي ان ينظر استنادا الى فتوى الخليفة

لم يكن الحجاج مترددا ازاء اية قضية تعترضه مهما بدت هذه القضية مخالفة للعرف الانسانية لذلك فقد أمر بتجنيد الصبيان والاولاد وارسالهم الى ميادين القتال تحت غطاء الجهاد الفتوحات الاسلامية وكان لا يخلط عسكر الشام مع عسكر العراق.. وكان يسأل عن رجل رجل عند استعراض القوات الذاهبة للحرب ويشرف عليها بنفسه.. ويتعرف على هويات المحاربين فمن رضي به اقره واذا راى محاربا بلا سلاح يضربه (100) سوط.. ومرة احتسب ثمن الخيول التي عقرت تحت مقاتل اثناء القتال مع ابن الاشعث من عطاء ذلك المقاتل وكان شحيحا مع جنده ومع ذلك كان يقسو عليهم ويدفع (300) درهم في السنة للجندي ويطلب نظير ذلك ان تكون عدة الجندي كاملة.. وكان الجنود يشكون ذلك ولكن من دون جدوى.. لكنه كان يزيد في عطاء الجندي اذا ابلى في الحرب.

من جهة اخرى كان الحجاج كريما مع جنوده من أهل الشام، يداريهم ويتودد اليهم ويحضر جنازة من يموت منهم ويصلي عليه وينفق عليه بسخاء.. فرق على قواده (150) مليون درهم بعد هزيمة جيشه في تستر امام ابن الاشعث.. وكان عطاء الجندي العراقي في العراق (100) درهم شهريا .

- كان الطاغية الحجاج يصدر الاوامر ويتمتع بسلطات تشريعية ملزمة للمجتمع واجراءاته التي يامر بها لها قوة القانون وكان الهاجس الامني ينال اهتمام الحجاج كثيرا.. لذلك – وبخبث منه – يشرك الناس البسطاء بالمسؤولية التضامنية عما يصيب القوافل التي تمر باراضيهم.. وكان يمنع التجول ليلا ويرسل حاجبه الخاص للتاكد من تنفيذ اوامره وياتيه بمن يجده في الطريق.. ومنع الغرباء من دخول واسط..

- اشتهر الطاغية الحجاج باتباعه اساليبا وحشية مع المطلوبين للسلطة.. وعين موظف خاص يدعى (صاحب العذاب).. وكانت للحجاج عيونا كثيرة مبثوثة في المدن والاسواق لذلك كان يعلم بما يدور من حوادث بسرعة كبيرة.. واتبع اسلوبا جديدا مع الهاربين من السلطة، اذ كان يضايق اصدقائهم ومعارفهم ويحلفهم ليعترفوا باماكنهم..

ولم ينج من طغيان الحجاج حتى ممثل بطريك كرسي انطاكية وهو (الجاثليق) الذي هرب من ظلم الطاغية وعندما لم يعثر عليه منع الحجاج من تنصيب (جاثليق) اخر على كرسي المدائن لمدة عشرين سنة.

- واقترن اسم الطاغية الحجاج باسم سجن (الديماس) بواسط.. والديماس بمعنى الكن او مخدرا وهو السرداب المظلم.. وقد وصفته الروايات بالكثير من الاخبار المرعبة والمذهلة والمخيفة.. وعرفت سجونا اخرى للحجاج في الكوفة والبصرة وسجنا خاصا للنساء في البصرة اسمه سجن (قصر المسيرين) وكان قصرا في جوف قصر..

في بداية حكمه، قرر الحجاج ان لا يخلط أهل الشام مع العراقيين وانزلهم قرب قصره وقرر كذلك:

- الامر بعدم النوح على الموتى في البيوت وكان يامر بهدم الدور التي لا تلتزم بقراره.. وكان اكثر الموتى من العراقيين، ضحاياه.
- كان الحجاج يكره الكلاب.. فامر بابادتها
- فكر ببناء الجسور عى انهارالعراق لكي يقطع الطريق على الهاربين والمتسللين..
- بنى مدينة واسط ليجعلها مقر الجند أهل الشام بعيد عن العراقيين ولتلافي ما قد يرتكبونه من مفاسد في الكوفة والبصرة.. كما ان الحجاج كان يدرك كره أهل الكوفة له ومللهم منه لذلك اسس واسط.. واهتم بابواب واسط وجعلها من الحديد.. وانفق على بنائها خزينة العراق كلها لمدة (5) سنوات ويقول ياقوت انه انفق (43) مليون درهم على القصر والجامع والسور والخندقين.. ونصحه كاتبه ان لا يذكر المبلغ كله للخليفة ويحستب جزءا منه للحروب والجزء الاخر للبناء ففعل ذلك.. ومنع النبط من دخول المدينة (لانهم مفسدة) على حد قوله.. ومنع العراقيون من السكن والمبيت فيها ليلا والطريف ان واسط بعد موت الحجاج اصبحت مأوى لكثير من النبط..

معظم الروايات تنسب (خراب) العراق وافلاس بيت المال الى عهد الحجاج.. وعندما مات الطاغية، يقال، انه ترك في بيت المال اكثر من (100) مليون درهم.

لخص الحجاج سياسته التي نفذها في العراق، بعد مرور اكثر من عشر سنوات على حكمه، في رسالة كتبها الى الخليفة الجديد، الوليد بن عبد الملك قائلا فيها: (اني ايقضت رأى وانمت هواى، فادنيت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في امره، وقلدت الخراج الموفر لامانته، وقسمت لكل خصم من نفسي قسما يعطيه حظا من

نظري ولطيف عنايتي، وصرفت السيف الى النطف المسيئ، والثواب الى المحسن البريء فخاف المريب صولة العقاب وتمسك بحظه من الثواب).

وهو يدري تماما ان استمراره في الحكم جاء من خلال ان الناس حذروه بسبب جرأته على الدماء وقيامه باعمال كان يتهيب منها الناس، لكنه لم يبال بآراء الغير بقدر اهتمامه بفرض سلطانه)وكان يرى ان ذلك عنده خير مما لو كان له جبلان من ذهب انفقهما في سبيل الله) وفرض الطاعة عنده من الامور الاساسية والعظيمة (بحيث جعلته يستحل دم المخالف) وعنده ايضا : السلطان الضعيف في نظره سلطان مشؤوم لان سلطانا تخافه الرعية خير لها من سلطان يخافها ومن (تكتيكات) الحجاج انه كان يعاقب الشخصيات الكبيرة في البلد حتى يخشاه عامة أهل العراق.. ومن هنا قيل: ان الحجاج لم يظفر بمن ناوأه الا بمساعدة من بقي معه من أهل العراق.

وقد (استفاد) الحجاج كثيرا من (حدود الشرع؟؟) لترسيخ سلطانه، فقد اعتذر إليه سارق اعتذارا حسناً لكنه لم يعف عنه (لان الاعتذار في رايه لايبطل حدا من حدود الله)

ورغم ذلك كان الحجاج، كثيرا ما يقع في مأزق بسبب تصرفات اقاربه الشاذة، فان اخاه عندما مات ترك مالا كثيرا اثارت شكوكه فكتب بذلك للوليد غير ان الاخير برر تلك الثروة بالتجارة التي مارسها محمد بحياته وبعلم الخليفة كما ان ابن اخي الحجاج تعرض لاحدى النساء في واسط فقتله اخوتها وحبس اخو زوجة مالك بن اسماء بن خارجة الذي شاع عنه المجون وشرب الخمرة.

تطلعنا الروايات المختلفة التي جمعها الدكتور عبد الواحد ذنون طه الذي تناول سيرة الحجاج وحكمه في العراق ان الحجاج، قتل (120) الفا او (130) الفا من الناس صبرا عدا من قتل في المعارك والحروب وبعضهم يذكر انه قتل (150) الفا، راح اكثرهم (ضحايا) تهم باطلة اما الثعالبي فيقول انه قتل اكثر من الف الف رجل وسجن الحجاج حسب الروايات: رواية المدائني: (60) الف سجين وهناك من يجعلهم: (50) الف رجل و(30) الف امراة كانوا محبوسين في مكان واحد وكان قسم من النساء مجردات عن الثياب وتقول رواية اخرى انهم: (134) الف رجل وامراةويضاعف الديار بكري فيصبح عددهم: (300) الف رجل وامراة.

اذن ربع مليون سجين بين رجل وامراة خالفوا حدود الله في راي الطاغية الحجاج وذكر عن سجونه انها لم تكن سوى بناء بلا سقف ولا ظل (وربما كان الرجل يستتر بيده من الشمس فيرميه الحارس بالحجر..)

كان الحجاج منفذا (رائعا) من الطراز الاول، وقيل ان ابا جعفر المنصور كان من اشد الخفاء العباسيين اعجابا بالحجاج ويقول (ميور) ان القسوة التي استخدمها الحجاج هي التي لطخت اسمه وجعلته يبدو واحدا من اقس الحكام الذين رآهم العالم، لسياسة سيده عبد الملك، الطاغية الاكبر، في بغض العراقيين وقتلهم ومما يذكر من نصائح الطاغية الاصغر: فاذا رابك من أهل العراق ريب فاقتل ادناهم يرعب منك اقصاهم والسلام.. وكذلك (نصيحته الذهبية) للحجاج: ان جهز أهل العراق وتابع عليهم البعوث واستعن عليهم بالفقر فانه جند الله الاكبر.. ففعل الحجاج ونفذ سياسة (افقار) العراقيين لمدة سنتين.

والحجاج كاي طاغية مر على العراق في تلك العصور، استلهم من (القوة) مصادر لاستتباب حكمه الدموي وقال الطاغية في خطبه له القاها عام 75هـ/694م: ( )ان الخلفاء قبلي كانوا يداوونكم بدوائكم فيأكلون ويؤكلون واني والله لا اداويكم الا بالسيف..)).

ترى بماذا يدافع (انصار) فكرة ان الحجاج لم يكن (ساديا) و(عاشقا للدم) بعد كلمته هذه الشهيرة التي لخص فيها (فلسفته) في الحكم والسياسة.

تحيط شخصية الحجاج منذ مولده حتى وفاته، حكايات وقصص اشبه ما تكون بالاساطير، بسبب الرعب الذي زرعه في قلوب الناس طيلة عشرين سنة من الحكم الجائر..

قيل لما ولد الحجاج، كان مشوها لادبر له فثقب عن دبره.. وابى ان يرضع ثدي امه حتى تصور لهم الشيطان على هيئة الحارث بن كلدة – طبيب العرب، ويقال كان الزوج الاول لام الحجاج ثم طلقها – فاقترح عليهم ان يذبحوا جديا اسود ويولغوه دمه.. أي اجعلوه ليشرب الدم باطراف لسانه كما يشرب الكلب الماء، وفي اليوم الثاني افعلوا به كذلك، وفي اليوم الثالث اذبحوا له تيسا اسودا واولغوه دمه ثم اذبحوا حية سوداء فولغوه دمها واطلوا به وجهه فانه يقبل الثدي في اليوم الرابع، فعلوا به ذلك فكان بعد لا يصبر عن سفك الدماء.

وهكذا عبثت القصص والاساطير، بعد موت الحجاج، بسمعته ولوثته على مدار الايام والتاريخ، بسبب ظلمه وطغيانه.. ووثق الناس الكارهين له من عبثية هذه القصص والاساطير وصدقوها رغم المبالغة فيها لكن الشعوب عندما تكره طغاتها تبدع في نسج كفن الطاغية وهو حي. ونحن الان لسنا في موضع مناقشة الحكايات الاسطورية عن الحجاج ولسنا بمعرفة كيف تسنى لأم الحجاج ان نقب دبره.

المهم ان الاسطورة والخيال ينطلقان من افواه الناس المظلومين..

وصدق الرصافي الذي قال:

فما كتب التاريخ في كل ما روت لقرائها الا حديث ملفق

نظرنا لامر الحاضرين فرابنا فكيف بامر الغابرين نصدق

يقال ان امه لقبته الحجاج تفاؤلا بان يكون ورعا كثير الحج. والحجاج حكم عشرين عاما أهل العراق وخلف بعد موته – كما يشير المسعودي – اكثر من (120) قتيلا صبرا وفي سجونه (50) الف رجلا و(30) الف امراة وكان يسقي سجناءه الماء المخلوط بالرماد.. وحسب هذه الرواية يكون الحجاج قد قتل (6) الاف انسان سنويا و(16) الف انسانا يوميا عدا الالاف التي قتلت في حروبه. ويؤكد جرجي زيدان في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) ان الحجاج كان يتذوق اللحم البشري ويشرب دمائهم.. وقد نقل هذا الخبر عن المسعودي..

كان الطاغية الحجاج معجبا بالطاغية زياد بن ابيه حتى قال عنه الحسن: تشبه الحجاج بزياد حتى اهلك الناس.. والطاغية زياد – معروف عنه – انه لما صعد منبر مسجد البصرة خطب خطبة عرفت بالبتراء (لم يحمد الله فيها) وزياد ولد ونشأ في مدينة الطائف التي ولد ونشأ فيها الحجاج وكان يعلم بسياسة زياد فتاثر به وسار على ارهابه وظلمه..

ان المتتبع للكلام الذي سجله عبد الملك بن مروان في رسائله للحجاج نستدل منها ان عبد الملك لم يكن حاكما طبيعيا او متوازنا.. فقد كتب، مرة للحجاج بعد ان شكاه انس بن مالك الصحابي بسبب قسوة الحجاج في كلامه معه لما دخل عليه في شأن ابنه عبد الله وكان مشاركا بثورة ابن الاشعث: يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب والله لقد هممت ان اركلك برجلي تهوى بها في نار جهنم، قاتلك الله: اخيفش العينين اصك الرجلين اسود الجاعرتين هذه شتيمة قذرة لام الحجاج وللحجاج نفسه صدرت من عبد الملك..

كان الحجاج – كما اسلفنا – لا يتردد بارسال الصبية والمراهقين للقتال من أهل العراق وكانت الام العراقية المغلوب على امرها تجيئ الى ابنها وقد جرد وتضمه اليها وتقول باكية: (بأبي).. جزعا عليه فسمي ذلك الجيش جيش (بأبي).

لما دخل الحجاج الى البصرة اختار يوم الجمعة لتنفيذ مذبحته الشهيرة في مسجدها المعروف وقال للحاضرين في المسجد بعد ان وضع في كل باب من ابواب المسجد (100)

مسلح وضعوا اسيافهم تحت ارديتهم وامرهم بقتل كل من يخرج من المسجد وكان للمسجد (18) بابا، واخبرهم كذلك: اذا رايتموني قد وضعت عمامتي على ركبتي فضعوا اسيافكم.. قال الحجاج للمجتمعين: ان عبد الملك بن مروان قلدني بسيفين حين توليته اياي عليكم: سيف رحمة وسيف عذاب ونقمة، فاما سيف الرحمة فسقطمني في الطريق واما سيف النقمة فهو هذا.

وقام العراقيون برميه بالحصى واكثروا عليه فخلع عمامته فوضعها على ركبته فجعلت السيوف تبرى الرقاب فلما هم الاخرون بالهرب تلقفهم حراس الابواب.. وجرت في المسجد مجزرة رهيبة راح ضحيتها كما يقدرها الدينوري (70) الف حتى سالت الدماء الى باب المسجد والى الطرق. كان الحجاج حينما لقي أهل البصرة في المسجد شديد النعاس وبعد ان خلع عمامته صاح بنشوة:

- انى ارى رؤسا قد ايعنت وحان قطافها...

مما يجب ذكره ونحن بصدد سيرة الطاغية الحجاج الذي سيتردد اسمه كثيرا في الصفحات اللاحقة ذلك الحوار الجرئ الذي قام به سعيد ابن جبير امام الطاغية:

الحجاج: ما اسمك؟

سعيد : سعيد

الحجاج: ابن من؟

سعيد : ابن جبير

الحجاج: بل انت شقي بن كسير؟

سعيد : امي اعلم باسمي واسم أبي

الحجاج: شقيت وشقيت امك

سعيد : اصابت اذا امي اسمي

الحجاج: لا بدلنك بالدنيا نارا تلظى

سعيد : لو اني اعلم ذلك بيدك لاتخذتك الها

الحجاج: فما قولك في محمد؟

سعيد : نبي الرحمة ورسول رب العالمين الى الناس كافة بالموعظة الحسنة

الحجاج: فما قولك في الخلفاء؟

سعيد : لست عليهم بوكيل، كل امرئ بما كسب رهين

الحجاج: اشتمهم ام امدحهم؟

سعيد : لا اقول ما لا اعلم، انا استحفظت أمر نفسي

الحجاج: ايهم اعجب اليك؟

سعيد : حالاتهم يفضل بعضهم على بعض

الحجاج: صف لي قولك في علي، افي الجنة هو ام في النار؟

سعيد : لو دخلت الجنة فرأيت اهلها علمت، ولو رايت من في النار علمت فما سؤالك عن غيب قد حفظ بالحجاب؟

الحجاج: فاي رجل انا يوم القيامة ؟

سعيد : انا اهون على الله من ان يطلعني على الغيب

الحجاج:ابيت ان تصدقني

سعيد : بل لم ارد ان اكذبك

الحجاج: دع عنك هذا كله، اخبرني مالك لم تضحك قط؟

سعيد : لم ار شيئا يضحكني وكيف يضحك مخلوق من طين والطين تاكله النار ومنقلبه الى الجزاء واليوم يصبح ويمسي في الابتلاء

الحجاج: فانا اضحك

سعيد : كذلك خلقنا الله اطوارا

الحجاج: هل رايت شيئا من اللهو؟

سعيد : لا اعلمه

الحجاج: اجلبوا العود والناي

(فلما ضرب العود ونفخ في الناي، بكى سعيد ..)

الحجاج: ما يبكيك؟

سعيد: يا حجاج ذكرتني امرا عظيما، والله لاشبعت ولا رويت ولا اكتسيت ولا زلت حزينا لما رايت

الحجاج: وما كنت رايت هذا اللهو؟

سعيد: بل هذا والله الحزن يا حجاج، اما هذه النفخة فذكرتني يوم النفخ في الصور واما هذا المصران (ويقصد اوتار العود) فمن نفس ستحشر معك في الحساب، واما هذا العود فنبت بحق وقطع لغير حق.

الحجاج: انا قاتلك

سعيد قد فرغ من تسبب في موتي

الحجاج: انا احب الى الله منك؟

سعيد: لا يقدم احد على ربه حتى يعرف منزلته منه والله بالغيب اعلم

الحجاج: كيف لا اقدم على ربي في مقامي هذا وانا مع امام الجماعة وانت مع امام الفرقة والفتنة؟

سعيد: ما انا خارج عن الجماعة وما انا براض عن الفتنة ولكن قضاء الرب نافذ لا مرد له

الحجاج: كيف ترى ما تجمع لامير المؤمنين؟

سعيد: لم ار.

(دعا الحجاج بالذهب والفضة والكسوة والجوهر فوضع بين يديه)

سعيد: هذا حسن ان قمت بشرطه

الحجاج: وما شرطه؟

سعيد: ان تشتري له بما تجمع الا من من الفزع الاكبر يوم القيامة والا فان كل مرضعة تذهل عما ارضعت ويضع كل ذي حمل حمله ولا ينفعه الا ما طاب منه.

الحجاج: فترى طيبا؟

سعيد: برأيك جمعته وانت اعلم بطيبه

الحجاج: اتحب ان لك شيئا منه؟

سعيد: لا احب ما لا يحبه الله

الحجاج: ويلك.

سعيد: الويل لمن زحزح عن الجنة فادخل النار

الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه

سعيد: اني اشهدك يا حجاج ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله استحفظكهن يا حجاج حتى القاك.

(فلما ادبر سعيد ضحك..)

الحجاج:ما يضحكك ياسعيد؟

سعيد: عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عليك؟؟

الحجاج: انما اقتل من شق عصا الجماعة ومال الى الفرقة التي نهى الله عنها، اضربوا عنقه؟

سعيد: حتى اصلي ركعتين؟

(فاستقبل القبلة..)

سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا مسلما وما انا من المشركين

الحجاج: اصرفوه عن قبلة الى القبلة النصارى الذين تفرقوا واختلفوا بغيا بينهم فانه من حزبهم. (صرف سعيد عن القبلة..)

سعيد: فاينما تولوا فثم وجه الله الكافي بالسرائر

الحجاج: لم نوكل بالسرائر وانما وكلنا بالظواهر

سعيد: اللهم لا تترك له ظلمي واطلبه بدمي واجعلني آخر قتيل يقتل من امة محمد

(فضربت عنقه..)

وقيل لما استشهد سعيد، بوقت قصير، حتى أصيب الحجاج بهلوسة في عقله.. كان دعاء سعيد رهيبا ومفزعا للطاغية السفاك..

وقيل أيضا أن الطاغية كان يصرخ بأعوانه بعد مقتل سعيد: قيدونا.. ويعني القيود التي كانت في قدمي بن جبير ...

بعد أن أتم الحجاج مجزرته الكبيرة للخوارج كتب بشعور ذاتي بالفخر والغرور والاستعلاء للخليفة عبد الملك أن يبايع ابنه فرفض عبد الملك باعتبار أن أخاه عبد العزيز كان حيا وهو واليه على مصر.

فرد على رسالة الحجاج ووبخه قائلا له: ما لك أنت والتكلم بهذه ؟؟ وكان عبد الملك يحترم آراء عبد العزيز ويقر الكثير من آرائه ولا يختلف معه.

في عام 84 هـ مات عبد العزيز بن مروان في مصر أجمع عبد الملك على بيعة الوليد ثم من بعده سليمان وأيد الحجاج ذلك وأجبر العراقيون على البيعة.. وكذلك بايع أهل المدينة الا سعيد بن المسيب الذي قال: لم أكن لأبايع بيعتين في الإسلام بعد حديث سمعته عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إذا كانت بيعتان في الإسلام فاقتلوا الأحدث منهما).

ورغم الضغوط التي مارسها أعوان عبد الملك في المدينة ضد ابن المسيب الا أن الاخير ظل مصرا على موقفه.. وبعث عبد الملك بعد علمه بموقف سعيد بن المسيب أن يجلدوه مئة جلدة أو حلق رأسه ولحيته وألبسه ثيابا من شعر.. ونفذت (تعليمات) الطاغية الكبير عبد الملك من قبل وإليه هشام بن إسماعيل وهو ابن عم الضحية وكان رجلا أعمى.. وهكذا أوقف سعيد أمام الناس، في السوق، وجرد من ملابسه والبس ثيابا من شعر وجلده مئة سوط وحلق رأسه ولحيته.. وكان سعيد بعد تنفيذ هذه العقوبة يحضر الجماعة وهو يدري تماما أن ما فعله هشام كان تنفيذا لكلام الطاغية عبد الملك الذي قال: لكيما لا يجترئ علينا أحد غيره.

وكان سعيد يدير وجهه عندما يسمع هشام وهو يخطب بالجماعة مادحا عبد الملك وغيره فأنتبه إليه هشام وأمر شرطيا أن يحصب وجه سعيد إذا تحول عنه وكان سعيد رغم هذا العذاب يشير بيده بعلامة رقم ثلاثة بوجه هشام.. ويقول: إنما هي ثلاث..

وبعد ثلاثة أشهر من نبوءة سعيد بن المسيب طرد هشام من منصبه ...

يزخر تاريخنا العربي والإسلامي بطغاة (عظام) و(كبار) سواء على مستوى خليفة أو سلطان أو أمير أو وال أو قائد عسكر.. والحال هذه يجب وضع هؤلاء في أماكنهم الصحيحة ودراستهم كل في إطار عصره الذي عاش فيه واسهم في نسج أحداثه الخطيرة. المعروف عن المهلب بن أبي صفرة أنه كان ابرز قائد عسكري في المنطقة

الشرقية من الدولة الأموية وأسهم بشكل واضح في معارك مصعب بن الزبير وقبله قاتل مع علي بن أبي طالب.. ولمع نجمه في عهد الطاغية عبد الملك بن مروان، وفي العراق بالذات، في فترة حكم الحجاج.. ومع كل (البطولات) التي سجلها المهلب ضد الخوارج الازارقة لكنه لم يخلص من الطعون الكثيرة التي وجهت إلى نسبه كما هو الحال مع سيده الحجاج.. وفي الدراسات الحديثة التي تناولت سيرة المهلب هناك ردود حول الروايات المزعومة التي حاولت القدح في نسبه.. وفحوى ما أوردته تلك الروايات: أن أصل والد المهلب من عجم عمان وانه كان نساجا فارسيا هاجر من جزيرة خارك في الخليج العربي إلى عمان وهناك ادعى النسب إلى الازد ثم تحول من المجوسية إلى الإسلام.

لا ندري لماذا يغفل المؤرخون تراجم اباء الطغاة، خاصة الدرجة الثانية وما يليها... وهكذا نرى أن المؤرخين قد اغفلوا ترجمة والد المهلب رغم انهم عنوا عناية كبيرة بترجمة اخبار المهلب واولاده واحفاده.. والمهلب لم يكن الا واليا على خراسان ولم يحكم العراق فالحجاج هو حاكم العراق وقبله بشرين مروان شقيق الطاغية عبد الملك.. لكنه استخدم العراقيين بكثرة في جيشه وارغمهم ارغاما على القتال خارج العراق تحقيقا لاماني سيده الحجاج.. والا ما معنى وتفسير الروايات التي تطعن في نسبه العربي انه بلا شك الكره والحقد للمهلب بما تسببه من الالم وويلات للعراقيين في حروبه الطويلة مع الخوارج انتصاره عليهم يرجع بالدرجة الاولى إلى (معرفته) الجيدة بـ(اهواء) و(نفسية) جنده من العراقيين.. اليس هو الذي كتب إلى الحجاج ايام ثورة ابن الاشعث: (اما بعد: فان أهل العراق قد اقبلوا اليك وهم مثل السيل المنحدر من عل، ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره، وان لاهل العراق شره في اول مخرجهم (للقتال) وصبابة إلى ابنائهم ونسائهم، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى اهليهم ويشموا اولادهم ثم واقفهم عندها اتوجد (اعظم) من هذه النصيحة العراقيين التي يقدمها المهلب لسيده الطاغية الحجاج بعد أن مل العراقيون من حروب بني أمية.

لا يخلوا المهلب من الدهاء رغم أن الرجل كان في الصف الثاني في الحكم.. ويبدو دهائه من اقواله.. فمن مأثوراته: (عجبت لمن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الاحرار بمعروفه).

يذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن المهلب بمبايعته لعبد الملك انما باع سيفه للامويين.. وفي زمان المهلب كان للازد (قبيلته) مكانتها المرموقة.. يقول يزيد بن المهلب للازد: (يا معشر الازد كنتم اذل خمس بخراسان حتى كان الرجل من الحي الاخر يشتري

فيتسخركم فتحملونه له، حتى قدم المهلب وقدم، فلم ندع موضعا يستخرج منه درهم الا استعملناكم عليه وحملناكم على رقاب الناس حتى صرتم وجوها)

ايوجد اوضح من هذا الاعتراف الصريح الذي يصدر من ابن المهلب عن الفروق الكبيرة التي اصطنعها المهلب بين قومه العراقيين ثم ما كانت حصة العراقيين من هذه (الرعاية) الكريمة من لدن المهلب لاشيء الا جمعهم وارسالهم إلى ساحات الموت باسم الفتح (الإسلامي) وهو الغطاء الجيد الذي استخدمه الامويون ببراعة لتصفية خصومهم واعدائهم من المسلمين.

((14))

كيف يمكن تسمية تسيير الجيوش إلى المدينة المنورة واجتياحها وقتل سكانها الامنين ونهب بيوتها واقامة المجزرة المعروفة في التاريخ باسم مجزرة (الحرة) ... جهادا وتحريرا اسلاميا؟؟.

هل مصرع الحسين وعبد الله بن الزبير وقتل اعوانهم وهم مسلمون على ايدي الجند الامويين وبايعاز من طغاة بني أمية ... جهادا وتحريرا عربيا ؟

هل مقاتلة وقتل الخوارج الازارقة المسلمين بلا شفقة او رحمة على يد الحجاج والمهلب... جهادا وتحريرا عربيا واسلاميا؟.

ندري أن الجهاد في سبيل الله قد جرى في الايام الاولى من خلافة عمر بن الخطاب ... جهادا وتحريرا عربيا واسلاميا خالصا وما جرى بعد ذلك من فتح فليس من وراءه الا اطماع الخلفاء الامويين وسعارهم الجنسي للحصول على الروميات والفارسيات والهنديات وجنسيات اخرى من النساء والصبيان والجواري والعبيد... أيمكن أن نضع سعد بن أبي وقاص بطل القادسية وخالد بن الوليد في اليرموك وابو عبيدة الجراح الامين وعشرات المسلمين المجاهدين الاحرار ونياتهم واهدافهم وقيمهم مع مكانة واحدة مع القتلة الذي حزوا الرؤوس والاعناق بحجة الفتح؟ هل نضع الحجاج والمهلب مثلا في مكانة واحدة مع الرعيل الاول من المجاهدين المسلمين الذين لم يريقوا قطرة دم اسلامية واحدة الا بالحق فكيف الحال مع حروب بني أمية المشبوهة الاهداف والنوايا التي جرت تحت راية الله اكبر أن الجيوش التي انطلقت إلى العراق والشام ومصر هي جيوش تحرير لها اهدافها السامية.. بينما نجد غموضا يكفي لتفسير النوايا السيئة لطغاة بني أمية في حروبهم الجائرة في العراق والشرق الإسلامي أن الحجاج، مثلا، ليس امتدادا — كما يقال

الان – للقادة الاوائل.. لكن من الممكن اعتبار المهلب إلى حد ما في ممارساته الحربية امتدادا لأولئك الرواد وكذلك الحال بالنسبة إلى قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن قاسم الثقفي ويزيد بن المهلب لانهم خاضوا قتالهم في اعماق جبهة الشرك والكفر.. ولمعت اسماء اخرى مثل طارق بن زياد وموسى بن نصير وعقبة بن نافع حيث كان لهم الاثر الحميد في الجناح الغربي للدولة الاموية، خاصة فتح وتحرير المغرب وافتتاح الاندلس..

((15))

كان الطاغية الحجاج يبعث عينا على رسله وكان يفعل ذلك مع جميع رسله لذلك كان يعلم بما يفكر فيه حلفائه او اعوانه.. وكان له بواسط سجنا رهيبا كالبرية لاسقف له وقد احصي من مات فيه من الحر والبرد فكان(16) الفا ووجد في سجنه (50) الف رجلا و(30) الف امرأة وكان يحبس الرجال والنساء في مكان واحد.

والمعروف عن الحجاج انه كان يتلذذ بضرب اعناق خصومه.. وقتل الحجاج ايوب بن قيس الهلالي احد بلغاء الدهر وخطيب يضرب به المثل ويقال (ابلغ من ابن القرية) والقرية امه، وكان اعرابيا اميا ارسله الحجاج رسولا إلى ابن الاشعث بعد ثورته فالتحق بها ولم يرجع إلى الحجاج لكنه اسر في معركة (دير الجماجم) ودار حوار بينهما قبل أن ينفذ الحجاج حكم الاعدام به.. أمر الحجاج ضرب عنقه فلما رآه الحجاج يتشحط في دمه قال: لو كنا تركنا القرية حتى نسمع من كلامه

هناك عشرات المواقف الشجاعة في التاريخ العراقي لأبطال وشهداء تحدوا الحجاج وأمثاله من طغاة العراق.. فهذا كميل بن زياد يتحدى الحجاج بعد وقوعه بالأسر في دير الجماجم: أيها الرجل من ثقيف لا تهدم علي تهدم الكثيب ولا تكشر كشران الذئب..

((16))

ترك التأريخ لنا (أقوال) و(مأثورات) شهيرة بحق (العراقيين) نسبت للحجاج الذي لم يتوان استخدام أقبح الوسائل لتحقيق سيطرته على العراقيين الذين احتقروه ولما كان الحجاج يعلم تماما مدى كره العراقيين واحتقارهم له زاد في بطشه وشتمه للعراقيين:

(من أعياه داؤه فعلي دواؤه ومن استبطأ اجله فعلي أن اعجله ومن استثقل رأسه وضعت عنه ثقله ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه.أن للشيطان طيفا وان للسلطان سيفا فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه سفك دمه. أنى لأنذر

ثم انظر وأحذر ثم لا اعذر وأتوعد ثم لا اغفر إنما أفسدكم ترقيق ولاتكم. ومن استرضى نبيه ساء أدبه. أن الحزم والعزم سلباني سوطي وجعلا سوطي سيفي فقائمه في يدي وفجاؤه في عنقي وذبابه قلادة لمن عصاني. والله لا أمر أحدا أن يخرج من باب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه.)......ثم قال في مناسبة أخرى: (يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق أما والله لألحونكم لحو العصا ولأعصبنكم عصب السلم ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. أني اسمع لكم تكبيرا ليس بالتكبير الذي يراد به الترغيب ولكنه تكبير الترهيب. إلا إنها عجاجه تحتها قصف يا بني اللكيفة وعبيد العصا وأبناء الإماء. إنما مثلي ومثلكم كما قال ابن براقة:

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم   فهل أنا في ذايال همدان ظالم

متى تجمع القلب الذكي وصارما   وانفا حميا تجتنبك المظالم

وقول الطاغية الحجاج:

(يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، أن الشيطان استبطنكم فتخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ثم افضى إلى الافخاخ والاصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض ففرخ فخشاكم نفاقا وشقاقا وملأكم غدرا وخلافا. اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ومؤامرا تستشيرونه فكيف تنفعكم بحرية أو تعظكم واقعة او يحجزكم إسلام أو يعصمكم ميثاق. يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق الكفرات بعد الفجرات والغدرات بعد الخترات والنزوة بعد النزوات ...لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نصرة. هل استخفكم ناكث او استغواكم غاو أو استنفركم عاص او استنصركم ظالم او استعضدكم خالع إلا اتبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكيتموه. يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر كاذب إلا كنتم أشياعه واتباعه وحماته وأنصاره. يا أهل العراق آتيتكم وأنا ذو لمة وافرة ارفل فيها فما زال بي شقاقكم وعصيانكم حتى أحص شعري.)

ثم كشف رأسه وهو اصلع.

وقيل هذا الكلام منسوب للإمام علي (ع).

قال الجاحظ (مفسرا) دوافع (تمرد) أهل العراق على (ولاتهم):

(العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعة أهل الشام، أن أهل العراق أهل نظر وذو فطن ثاقبة ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال والتمييز بين الرؤساء وإظهار عيوب الأمراء.

وأهل الشام ذو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد لا يرون النظر ولا يسألون عن مغيب الأحوال. وما زال العراق موصوفا أهله بقلة الطاعة وبالشقاق على أولي الرئاسة).

قال القاسم بن سلام مستغربا عن عجز العراقيين من التخلص من الطاغية الحجاج: (قاتل الله أهل الكوفة، أين قبائلهم وعشائرهم وأهل الأنفة منهم وأين تجبرهم قتلوا عليا وطعنوا الحسين وقاتلوا المختار وعجزوا عن قتل هذا الملعون الدميم الصورة وقد جاءهم في أثني عشر راكبا وهم مائة ألف) عن الحسن عن النبي ﷺ: (لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمالئ قراؤها أمرائها وما لم يزل حلماؤها فجارها وما لم يهد خيارها أشرارها فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر)

ومن حديث ابن عمر يرفعه: (والذي نفسي بيده لا تقدم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ووزراء فجرة وأعوانا خونه وعر فاء ظلمة وقراء فسقه سيماهم سيماء الرهبان وقلوبهم انتن من الجيف أهواؤهم مختلفة فيفتح الله لهم فتنة غبراء مظلمة فيتهاو كون فيها والذي نفس محمد بيده لينقضن الإسلام عروة عروة حتى لا يقال الله الله ... لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم)..

ومن اقوال الحجاج الشهيرة: (ليس لهم / يقصد العراقيين / إلا السيف ...)

((17))

عندما تولى بنو أمية الخلافة اتخذوا المستشارين والمعاونين ولم يطلق عليهم لقب وزير وإنما لقب كاتب أو مشير إذ لم تظهر الوزارة رسميا إلا في عهد بني العباس، ويذكر المسعودي: كانت ملوك بني أمية تنكر أن تخاطب كاتبا لها بالوزارة وتقول الوزير مشتق من المؤازرة والخليفة (أجل) من أن يحتاج إلى المؤازرة ....

((18))

أيام بعض الخلفاء العباسيين، نالت بغداد أبهى الألقاب والأسماء ... فالطغاة يعشقون أبهة المدن ... ويتفننون بعمران عاصمة الطغيان وينفقون الملايين لتزيينها .. وقيل: بغداد حسرة الملوك. ذلك إنها رغم كونها الحضرة الكبرى لاستيطان الخلفاء إياها لكن لم يمت خليفة فيها أو كما قال الشاعر عمارة بن عقيل:

قضى ربها إلا يموت بها انه حاشا في خلقه يقضى

مات المنصور بمكة والمهدي بماسيذان والهادي بعيسى آباد والرشيد بطوس وقتل الامين ومات المأمون بطرسوس والمعتصم بسر من رآى والواثق بها وقتل المتوكل ومات المنتصر بسر من رآى وخلع المستعين المعتز والمهدي وقتلوا ومات المعتمد بالحسينية وكذلك المعتضد والمكتفي وقتل المقتدر وسحل القاهر ومات الراضي بالحسينية وسحل المنتقي والمستكن ومات المطيع بدير العاقول وخلع الطائع ... وحسرة الملوك هم ملوك غير بغداد فلو انهم ملكوها لما ماتوا فيها ومن هنا ظهرت حسرة الملوك لانهم يحاولون تملكها للسبب المذكور ولم ينجحوا ....

الطاغية والفيضان صنوان ورديفان في ذاكرة العراقيين ... الخوف من المجهول الخراب والغرق والالام والعذاب يمنحها الطاغية ... والفيضان.. معا ...للناس ... وبغداد عاشت ويلات الطغاة والفيضانات ففي السنوات القريبة وحدها هدد بغداد (11) فيضانا في الاعوام 1919 و1923 و1926 و1937 و1940 و1941 و1942 و1946! و1950 و1953 و1954.

للتأريخ لسان.. وقلم لا يمل الكتابة في سجل طغاة العراق.. بغداد، الغنية. القوية. البائسة، الفقيرة ... شهدت مآسي كثيرة سببها طغاتها ... ففي أثناء الصراع بين البويهيين والحمدانيين عام 335 هـ ـ كتب ابو احمد العلي: (رأيت ما لا يحصى من أهل بغداد قد تلفوا بالحر والعطش ونحن نركض هاربين فما شبهته إلا بيوم القيامة) وعانى الناس كثيرا من حروب الطغاة: شوهدت امرأة لم ير مثلها في حسن الثياب والحلي وهي تصيح إنا ابنة فلان ومعي جواهر وحلي بألف دينار رحم الله من أخذه مني وسقاني شربة ماء فما يلتفت إليها أحد حتى خرت ميته والثياب عليها والحلي وما يعرض له أحد ...

والطغاة مزاجيون ... لا يعرف لهم ثبات.. ويخشاهم اقرب الناس إليهم حتى وصفوا مصاحبة الطاغية كمن يركب ظهر أسد ... في عام 461 هـ ولد لأمير مسلم مولود فجلس الوزير فخر الدولة للتهنئة بباب الفردوس ونصبت القباب في الأسواق ومن الغريب أن هذا المولود الأميري قد توفي عند الظهر فانقلبت الأفراح، بأمر الحاكم، إلى أحزان ورفعت مظاهر الزينة ... وأجبر الناس على ممارسة الحزن رغم أنوفهم.. ويبالغ الطغاة بالمهرجانات والمظاهر والأبهة وينفقون عليها خزائن أموال الشعب من دون وجع قلب ...

في عام 480 هـ رزق الخليفة المقتدي بولد فنصبت القباب وزينت الأسواق وعلق التجار والصيارفة اواني الذهب والفضة والجواهر وعلقت له التماثيل من الكافور ولما رزقت زوجة السلطان مسعود في العصر العباسي الثاني، ولدا ذكرا علقت الزينة في بغداد

لمدة سبعة أيام.. وفي مرات كثيرة وقف الفقهاء والزهاد من احتفالات الطغاة موقف المستنكر، ففي عام 532هـ، وأثناء الاحتفال بمولود السلطان مسعود أحتج ابن الكواز الزاهد المعروف وقال: أن أزلتم هذا وألا بتنا في الجوامع وشكونا إلى الله تعالى.. وفي عام 302هـ ختن الخليفة المقتدر خمسة من أولاده نثر عليهم 5000 آلاف دينار عينا و100 ألف درهم ورقا وبلغت تكاليف المناسبة 600 ألف دينار..

((19))

عن اكثر طغاة العراق انغمسوا في الدعارة والمجون والملذات والشهوات..

يزيد بن عبد الملك، كان يسمى خليع الأمويين، وشغف بجاريتين هما حبابة وسلامة..

الوليد بن يزيد، الذي تنطبق عليه نبوءه الرسول الكريم ﷺ كما يزعم كبار الشيعة: (ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد لهو شر على هذه الأمة من فرعون على قومه).

والوليد، أول من (أستورد) المغنين من البلدان وجالس الملهين وأظهر الشراب والملاهي والعزف.. ومن مجون هذا الطاغية أنه أراد أن يبني فوق البيت الحرام قبة يشرب فيها الخمور ويشرف منها على الطواف.. قتل قبل أن ينفذ رغبته الشاذة، وأحتز القوم رأسه ونصبوه في دمشق..

والوليد، متهم بالشذوذ الجنسي، إذ أعتزل مكانا في قصره مع المدعو (ابن عائشة)، وحاول تقبيل (عورة) ابن عائشة بعد أن قبل أطرافه وأعضاءه عضوا عضوا حتى انتهى إلى عورته وان الوليد نزع ثيابه وبقي عاريا أمام ابن عائشة .

إبراهيم الإمام، عميد الأسرة العباسية، وهو الآخر كان طاغية بلا سلطات.. عين غلامه (أبو مسلم الخراساني) قائدا عاما للحركة الانقلابية الجديدة، وكان الخراساني في التاسعة عشر من عمره.. ومن غرائب إبراهيم الإمام وصيته الشهيرة لأبي مسلم الخراساني، التي جاء فيها: (يا عبد الرحمن انك منا أهل البيت فاحفظ وصيتي: انظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين ظهرانيهم فان الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم وانظر هذا الحي من ربيعه فاتهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحي من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت في أمره ومن وقع في نفسك منه شيء وان استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل فأيما غلام بلغ خمسة أشبار فاقتله..) كان الطاغية عندما يريد استمالة قلوب الناس إليه يلجأ إلى (سحر) المال.. السفاح،مثلا، دخل الكوفة

يوم الجمعة 12 ربيع الأول عام 132 هـ وخطب بالناس قائلا: (يا أهل الكوفة انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا.. كذا وكذا..

ثم يصل أبو العباس السفاح إلى (غايته): (وقد زدتكم في اعطياتكم مائة درهم فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح..)

وكلما أراد الطاغية أن يخفي أهدافه الحقيقية عن أنظار الناس راح يزيح الستار عن (عيوب) غيره وهي ذات العيوب التي يرتكبها الطاغية الجديد.. فعندما جاء العباسيون، قال عم السفاح داود بن علي، بأنهم، أي العباسيين، لم يتسلموا الحكم، من اجل الذهب والفضة وبناء القصور واتهم بني أمية ودولتهم باستئثار الصدقات والمغانم وحجبها عن الشعب ووعد المسلمين بأنهم يحكمون بكتاب الله وسيرة الرسول ﷺ.

والطغاة الجدد،من اجل أن يسايروا المناخ النفسي للناس، يبالغون في ارتكاب المجازر والمذابح لخصوم الناس، والطغاة في الحقيقة بعملياتهم الواسعة النطاق في القتل والفتك بالخصوم والأعداء يحاولون قدر الإمكان ترسيخ نفوذهم واعطاء (الناس) العين الحمراء -كما يقال- وهكذا نجد مبالغة العباسيين في الانتقام من الأمويين لا مبرر له على الإطلاق..

قتلوا مروان آخر خلفاء بني أمية، شر قتلة، إذ احتز رأسه شخص من أهل الكوفة واستخرج لسانه، فجاءت هرة فاختطفته منه.؟

ومارس العباسيون ألوان العذاب ضد الأمويين، وأن بعض أفراد أسرة الخليفة القتيل مروان، كان الرجل منهم يبول في يده ويشربه أو يبول ويعجن به الرمل ويأكله وان نسائهم شربن البول وهن عراة حفاة.. في البصرة سحلوا بعض الأمويين من أرجلهم في الطرقات وهم إحياء ثم تركوهم للكلاب تأكلهم، ونفذ بالمئات من الأمويين الإعدام.. والسفاح لم يعط الأمان لسليمان بن هشام ورهط من الأمويين بسبب تحريض عبد أسود للسفاح يقال له سديف وأمر السفاح الخراسانيين بأخذهم فانبرى هؤلاء لهم بالدبابيس فضربوهم ضربا بالغا حتى سقطوا على وجوههم وأمر السفاح أن يمد عليهم خوان الطعام ففرش عليهم الخوان ووضع عليهم الطعام وجلس السفاح مع حاشيته يتناولون الغداء وهم يسمعون انينهم حتى هلكوا عن آخرهم وبدى الفرح على وجه السفاح فقال: ما أكلت في عمري أكلة اهنأ من هذه الأكلة، ثم رفع الطعام عنهم وسحبت جثث الضحايا ورميت بالطرق فأكلت الكلاب أكثرها.

والطغاة الجدد،أمروا الناس، ان ينبشوا قبور الأمويين فنبشوها واحرقوا ما تبقى من عظمهم وكذلك نبشوا قبر معاوية (فلم يجدوا فيه إلا خيطا مثل الرماد) ونبشوا قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا فيه جمجمة ونبشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد واخرج هشام بن عبد الملك فضرب بالسياط وصلب ثم احرق وذر في الهواء للطغاة أقوال مشهورة خلفوها للقادمين،لكي يستفيدوا منها في العمل..فهذا السفاح يقول ناصحا أبي جعفر المنصور:من شدد نفر ومن لان تأسف، والتغافل من سجايا الكرام.. والعقلاء وحدهم يكتشفون دورة الطغاة..الصادق تمثل بقول الكميت،عندما جاءته رسالة ابو سلمة الخلال يطلب فيها ان تحال الخلافة إليه أي إلى الصادق:

فيا موقدا نارا لغيرك ضؤوها ويا حاطبا في غير حبلك تحطب

والقاعدة العامة التى يستند اليها طغاة الشرق هى عزيمتهم على تنقية "السيرة) من (طغاة صغار) مرشحين للتحدى وبناء النفوذ الخطير..ابو جعفر المنصور دبر مكيدة لابى سلمة بالاتفاق مع السفاح فانتدبا له رجلين قتلاه فى الكوفة.. كان احدهما من رجال ابي سلمة وقتل الاخير بعد ان قضى وقتا (سعيدا) فى السمر مع السفاح وفى صباح اليوم التالى اشاعوا ان الخوارج قتلوه وبعد ذلك دبر المنصور اغتيال ابو مسلم الخراساني..ويقال ان المنصور قتله بعد احساسه ان الخراسانى قد اكتشف ان لاعودة للعباسيين عن الملك الذى وعدوا بتسليمه للعلويين وفعلا كان الخراسانى قد اتصل سرا بجعفر الصادق وكشفه له عن نياته بنقل الخلافه من المنصور إلى آل البيت وبعث برسالة للصادق بهذا الخصوص لكن الاخير اجابه (ما انت من رجالي ولا الزمان زماني) وان الخرساني في ايامه الاخيرة اراد التوبة عما اقترفته يديه من جرائم لمصلحة العباسيين وكتب بذلك قائلا (اوهقنى فى ربقة الفتنة وامرنى ان اخذ بالظنة واقتل على التهمة ولا اقبل المعذرة فهتكت بامره حرمات حتم الله صونها وسفكت دماء فرض الله حقنها ومزديت الامر عن اهله ووضعته منه فى غير محله.)

هذا ماكتبه الخراساني للمنصور عن اساليب السفاح..والسفاح عانى الاما قاسية وشديدة قبل ان يلفظ انفاسه الاخيرة ليلة الاحد 12 ذي الحجة عام 136 هـ وقد فرض اخاه المنصور (خليفة) على المسلمين بوصية كتبها قبيل موته بساعات. بعض كتب التاريخ وسلوك المنصور السياسي والاخلاقي،لاحقا،جعلت صورته امام الاجيال غير مريحة،رغم ان الرجل هو مؤسس مدينة بغداد قال عنه البعض: (وهو اشر خلق الله واخبث حاكم في الاسلام لؤما وانحرافا عن العدل فقد جهد في فقرالمسلمين واشاعة الذعر والخوف في

جميع انحاء العالم الاسلامي) وقال اخر: (لم يكن يملك أي نزعة انسانية او صفة شريفة تؤهلة للقيام بشؤون المسلمين..) فقد اجمع المؤرخون(انه تسريل باللؤم والبخل وخسة الطباع ودناءة النفس وكان الغدر والفتك من ابرز مظاهر شخصيته وقد ساس المسلمين بسياسة من لا يؤمن بالله واليوم الاخر فاشاع بينهم الخوف والارهاق وسلبهم جميع مقوماتهم الاقتصاديه حتى تمنوا رجوع الحكم الاموي وعودة ايامهم على ما فيها من قسوة وعذاب)..وقال شاعر مخضرم يصف ايام المنصور:

ياليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

ووصف الثائر محمد ذو النفس الزكيه جور الطغاة العباسين: (ولقد كنا نقمنا على بني امية مانقمنا فما بنو العباس ألا أقل خوفا الله منهم وأن الحجة على بني العباس لاوجب منها عليهم ولقد كانت للقوم مكارم وفواضل ليست لابي جعفر..)وخطورة هذا الطاغية العباسي ان ما احد سلم من فتكة..لم يسلم من فتكه حتى أسرته...آباد اعلامها .. وقطع رؤس مشاهيرها .. قتل على الظنه.. والتهمه.. وتنكر لجميع الناس.. وكان حقودا طائشا وكتب عنه السيدمير علي :(كان المنصور خداعا لا يتردد البته في سفك الدماء وتغري قسوته إلى حقده البالغ حد الافراط في حين كان خلفه لا يفتك بأحد الا بعد كثير من التروي والامعان وعلى الجمله كان جعفر سادرا في بطشه.مستهترا في فتكه..) ورغم ما قيل عنه فقد نجح المنصور في ترسيخ الحكم العباسي وان يسيطر على جميع اجهزة الحكم..سيطرة كاملة ومطلقة..من ابرز مظاهر هذا الطاغيه: البخل الذي لايختلف عليه احد .. ولقب بسبب بخله الشديد بالمنصور الدوانيقي.. والدانق هو سدس الدرهم.. وحمله بخله الشديد على حرمان شعبه ونفسه من الرفاهيه.. ووصفه احد ائمة الشيعة:(الحمد لله الذي ابتلاه بفقر نفسه في ملكه) ثم شحته الممقوته.قال المنصور مرة لاحد اصدقاء ايام فقرة القديم لما دعاه إلى قصره مستفسرا عن احواله وبعد ان عرف من صديقه القديم ان له اربع بنات وزوجة قال له المنصور بعد تفكير انت ايسر العرب.. سأله كيف ؟قال المنصور بلؤم: اربع مغازل يدرن في بيتك ؟؟

وقصص كثيرة وعديدة عن بخل وشحة المنصور لا مجال لحصرها .. من تيريراته المعروفة لبخله: (من قل ماله قل رجاله، ومن قل رجاله قوى عليه عدوه ومن قوى عليه عدوه اتضع ملكه ومن اتضح ملكه استبيح حماه..)

واشتهر المنصور بالفتك بانصاره واقرب اعوانه اليه.. قتل ابو مسلم الخراساني في غرفته الشخصية وقطع، جثته بالسيف ثم رماها في دجلة.. وقتل عمه عبد الله بن علي

بعد انه اعطاه امانا لا يفتك به لكنه امر بخنقه وخنق جاريته معه ووضع جثتيهما على الفراش وادخل يد الجارية تحت جنب القتيل ويده تحت جنب القتيلة كالمعتنقين ثم امر بالبيت فهدم عليهما واحضر القاضي ابن علام مع جماعة للاطلاع على الامر واخرجت الجثتان فدفنتا في مقرهما الاخير.

وكان المنصور قد اتخذ طبيبا نصرانيا استعان به على القتل من لا يحب ان يتجاهر بقتله وعن طريق السم الذي يصنعه الطبيب، وفعلا وعن طريق السم فتك بحمد بن ابي العباس.

من القابه قائد العسكر والجيش،وقد مثل الخليفة العباسي المنصور في عيد النوروز حيث دخل عليه الامراء وقادة الجيش يهنؤونه نيابة عن الخليفة..قال له والده:يابني قل الحق لك لاعليك..ومن اقاليم الدولة العباسية المترامية الاطراف، اكتسب شعبية لعدله وصراحته..هو الامام موسى الكاظم.

من اقواله الشهيرة:العدل احلى من الماء يصيبه الظمان..وتعلم من ابيه الامام جعفر الصادق الكلمات التالية:العامل بالظلم والمعين له والراضي به كلهم شركاء ثلاثتهم..وان اعوان الظلمة العامل بالظلم والمعين له والراضي به..ان اعوان..الظلمة يوم القيامة في سرادق من النار..واتقوا الظلم فان دعوة المظلوم تصعد إلى السماء..وما من مظلمة اشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عونا الا اليه..

مات الامام الكاظم مسموما يوم الجمعة في 25 رجب سنة 181 هـ وهو ضحية بريئة لظلم الطاغية العباسي هارون الرشيد..

كان الكاظم يردد على مسامع الناس: عونك للضعيف من افضل الصدقة..

يعرف شدة الجوع من حكم به عليه.. المؤمن اعز من الجبل..الجبل يستغل بالمعول والمؤمن يستغل دينه بشيء 0

ان صلاحكم من صلاح السلطان وان السلطان العادل بمنزلة الوالد الرحيم فاحبوا له ما تحبون لا نفسكم واكرهوا له ما تكرهون لا نفسكم ان قوم يصحبون السلطان يتخذهم المؤمنون كهوفا هم الامنون يوم القيامة 0

وقال عنه الرشيد :اما ان هذا من رهبان بني هاشم..هذا امام الناس وحجة الله على خلقه وخليفته على عباده..هذا وارث علم النبيين،هذا موسى بن جعفر،ان اردت العلم الصحيح فعند هذا.. لقب بذى الثغنات،اذ كانت له ثغنات كثغنات البعير من كثرة السجود..

سجن موسى الكاظم في دار الفضل بن ربيع وفي بيت السندى بن شاهك.. والفضل والسندى من كبار انصار الرشيد.. ومن ابرز صفاته الشخصية هي السخاء،اذ كان اندى الناس كفاء واكثرهم غطاء للمعوزين وكانت تضرب بصراره الامثال،وكان الناس يقولون:عجبا لمن جاته صرار موسى وهو يشتكي الفقر.. هل تخيلتم ناس فقراء في عهد الرشيد الذهبي؟؟.

ان الخلاف قائم بين معارضى الرشيد والمدافعين عنه..خلاف لم يزل قائما بين الشيعة والفرق الاخرى.. هناك من يطعن في صحة المعلومات الواردة عن عصر الرشيد ويصفه بالطاغية واخرون يكذبون مبالغات الشيعة.. لكن الحقيقة المؤلمة ان الرشيد شارك مشاركة فعلية في اغتيال الامام موسى الكاظم وتخلص من نفوذه وشعبيته بطريقة خسيسة تصبح دليلا على ان الرشيد لم يكن بالصورة التى خلفتها لنا الف ليلة وليلة وقصص المؤرخين الرسميين عن شخصية الرشيد المحببة والاسطورية.. والرشيد ليس الخليفة الاسلامي الوحيد الذي اضطهد الائمة من آل بيت النبي ﷺ..فمنذ بداية الحكم الاموي الذى انتزع السلطة بالقوة والمكر السياسي معا،من بني هاشم تعرض ائمة ال البيت النبوى الشريف إلى الخوف والفزع والارهاب وعانوا الوان الظلم والتشريد والتقتيل والجور والاضطهاد وكانت نهاية المطاف المحزن لاكثرهم.القتل او السم ولعل ابرز الاسباب التي دعت طغاة بني امية والعباسيين إلى اتباع الشدة والغلظة مع ائمة اهل البيت (ع) يعود إلى ما يلي: مركزهم الاجتماعي الراقي جعلهم مثار حسد الحكام وتعسفهم في أن واحد.. ولان الائمه كانوا لايقرون تصرفات الظالمين ولا يسكتون عن مناصرة المظلومين وكانوا ينعون على حكام عصورهم سياستهم التي لم تحفل للصالح العام وانما كانت تستهدف الاثراء والاستغلال وارغام الناس على ما يكرهون.. وان الائمه يحرضون ضد طغاة زمانهم الذين انصرفوا إلى اللذات والمجون وبناء القصور من اموال المسلمين واشغالها بالغلمان والنساء والمغنين والمغنيات وتعاطي الخمور ولان اكثر خلفاء بني امية والعباسيين جافت سيرتهم جميع سنن الاسلام واحكامه.. وتميز موقف هؤلاء الائمه الاطهار بالشدة والنقد اللاذع لتصرفات جبابرة عصورهم ولم يتملقوهم او يتسلموا منهم العطايا والهدايا والصرر.. بل اعلن قسم من الائمه العصيان والتمرد والمقاومه المسلحه ضد السلطات الحاكمه.. وكلنا يذكر الموقف البطولي للحسين (ع) وثورته الجريئه ضد الطاغيه يزيد بن معاويه الذي صمم على اذلال الامة الاسلاميه واستعبادها وارغامها على تكره.. ولكثرة ما تعرض له الائمه من الاذى على ايدي الحكام (المسلمين)؛ اضطر كاتب مثل (ابو الفرج الاصفهاني) ان يفرد كتابا خاصا عن ذلك وهو (مقاتل الطالبيين) عرض فيه ما جرى لائمة اهل البيت من المحن والتنكيل..

ذات سنة سافر الرشيد إلى المدينة المنورة ؛وهناك اجزل العطاء لجميع ابناء الصحابه سوى الامام موسى الكاظم.. فسال المامون عن ذلك فقال له والده الرشيد :أن فقره احب الي من غناه ولو اوصلته بما يستحق لخرج علي وهذا المتوكل هو الاخر يمعن في اضطهاد ال بيت النبي ﷺ اذ كان يسجن وينتقم ممن كان يصلهم.. والامام محمد الباقر يصف ما تعرض له اهله وانصاره في ايام الحكم الاموي قائلا: وقطعت الايدي والارجل على الظنة والتهمه وكان من يذكر بحبنا او الانقطاع الينا سجن او نهب ماله وهدمت داره..

ان اقرب الانصار لا يطمئن لمصيره.. والطغاة عادة، ينتقمون بطرق مروعة ودموية من انصارهم الذين يشكون بولائهم لهم.. ولا يتوانون عن تدبير المؤامرات للتخلص منهم حالما تسنح الفرصة بذلك..ويستثمر الطاغية انصاره لتحقيق مآربه بهم ومن ثم ينزع إلى التخلص منهم بأية وسيلة بعد ان يحس بأنهم اصبحوا خطرا على سلطانه او هو يعتقد ذلك.. وفي تاريخنا شواهد كثيرة ومتعددة على هذا النمط من الطغاة وطرق تعاملهم مع خصومهم الذين كانوا في يوم ما من افضل المخلصين لهم.. خذوا مثلا، ابو مسلم الخرساني،وكيف انتهى مصيره على أيدي المنصور ؟

أبو سلم، من ابرز القادة المؤيدين للثورة العباسية بل وكان قائد عاما للثورة ومحط ثقة القادة الجدد .. وقد سفك الدماء الكثيرة من اجل تثبيت أركان الحكم الجديد وقد هانت عنده النفوس والارواح وكان –كما تقول أخبار الرواة –يأخذ البريء بالسقيم والمقبل بالمدبر ويقتل على الظنة والتهمة، وكان عدد من قتله –فيما يقول الرواة – 600 الف أنسان،وهذا يدل على انه لا عهد له بالله واليوم ألاخر وقد أيده العباسيون فيما اقترفه من جرائم

موسى الكاظم،اصدر فتوى تمس شرعية حكم هارون الرشيد .. وحرم التعاون مع أجهزة الدولة العباسية..

لان التعاون معهم فيه دعم للظالمين مستندا في ذلك إلى قوله تعالى: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من اولياء ثم لا تنصرون) سورة هود /113، واستثنى من ذلك من يقوم بخدمة اجتماعية او يسدى معروفا للفقراء فانه لا حرج عليه في الانضمام إلى السلك الحاكم،وقد سمح الكاظم،لعلي بن يقطين ان يتولى منصب الوزارة لهارون، حينما ضمن له القيام بذلك.

والطاغية يعتبر نفسه الاب الروحي لافراد عائلته وعشيرته ومدينته..مسؤولا عن كل صغيرة وكبيرة ويضمن ولاءهم المطلق له ويحاسب بشدة اذا شذ او انحرف احدهم عن افكار وقيم الطاغية باعتباره الاب الكبير للقبيلة او لمسقط رأسه..

الطاغية لا تسمح بتزويج بناته او قريباته من عامة الناس.. ومرات كثيرة يمنع الطاغية زواج احداهن من رجل ليس من قبيلة الاب الكبير..

والطاغية ودود جدا وكريم جدا مع اقاربه ومعارفه ويغض النظر من تجاوزاتهم المالية ويعطيهم اكثر مما يستحقون حتى يحافظ على مظاهر الحكم باعتبار القبيلة جزء من السلطة الحاكمة.. ويروى ان طاغية من ولاة الامويين علم ان شخصا من بني سليم قد تزوج بأمه فأمر بأحضاره وضربه مائة سوط وفرق بينه وبين زوجه وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه..

والطاغية يحاجج خصمه بادلة مختلفة في ان واحد.. الامويون، مثلا، حرموا على ابن الامة ، ان يتقلد أي منصب في دولتهم.. وزعموا عدم صلاحيته للوظيفة.. وبهذا المنطق الجاهلي،حاجج الطاغية الاموي زيد بن علي، قائلا له: بلغني انك تذكر الخلافة وتتمناها ولست اهلا لها وانت ابن امه ؟ وكذلك فعلها

عبد الملك بن مروان مع زين العابدين عندما راح يندد ويعيب على الامام السجاد (ع) عتقه لجارية له وبعد العتق تزوج بها.. وكانت ام موسى الكاظم (حميدة) من الامات واشتراها محمد الباقر بـ(70) دينارا من اسواق يثرب التي تعج بالنخاسين، وجعلها زوجة لابنه جعفر الصادق، وكانت من افضل نساء عصرها..المنصور،بذل محاولات من جانبه،لجلب الصادق وكسب وده.. فكتب اليه: لم لا تخشانا كما يخشانا سائر الناس ؟ فاجابه الامام: ليس عندنا من الدنيا ما نخافك عليه وليس عندك من الاخرة ما نرجوك له.. ولم يقتنع المنصور بجواب الصادق فكتب إليه انك تصحبنا لتنصحنا.. فاجابه الامام من اراد الاخرة فلا يصحبك ومن ارادة الدنيا فلا ينصحك.. لم يكن الطاغية يخاف الصادق

.. وان ما ادخل الرعب إلى قلبه ما أسسه الصادق.. كان المنصور يخشى كثيرا تاثير الجامعة الاسلامية التي اسسها الصادق.. وخاف الطاغية ان يفتتن الناس بالصادق، فعهد إلى ابي حنيفة ان يسأل الامام باعقد المسائل، رغم ان المنصور يدرى تماما ان ابي حنيفة قد درس سنتين في جامعة الصادق.. وكثيرا ما كان ابو حنيفة يردد :لولا السنتان لهلك النعمان.. وهو اعتزازه بمدة السنتين التي قضاها في حضوره دروس الامام الصادق..

وفعلا استدعى المنصور وهو بالحيرة، الصادق، ودفع امامه ابو حنيفة اختار له اربعين مسألة لامتحانه.. ونجح الصادق في الامتحان..

هناك قاعدة رسخها الطغاة أنفسهم:عندما يعجز الطاغية من تدمير ألاصيل يبتكر (البديل).. ووجه نظره إلى مالك بن انس وأحاطه بكثير من التبجيل والتكريم ليجعله قبال الصادق.. ومرجعا للامة وعهد إليه بوضع كتاب يحمل الناس بالقسر على العمل به وامتنع مالك من أجابته ألا انه اجبره على ذلك وقال له:ضعه فما أحد اليوم اعلم منك.فوضع مالك (الموطأ) وامر المنصور عامله على المدينة هارون الرشيد أن لايقطع امرا دون مالك.. وكان الرشيد يجلس على الارض لاستماع حديث مالك والتزمت الدولة مالك وسخرت جهودها لنشر مذهبه وحمله الناس عليه..كل ذلك لصرف الناس عن اهل البيت

ونلاحظ ان الرشيد بالغ في تعظيم ابي يوسف واكرامه لانه تلميذ ابي حنيفه.. ونشر مذهبه الذي تأسس بمباركة الدوله ودعمها وقد عين الرشيد ابي يوسف في رئاسة القضاء ومنحه سلطات واسعه اذ لا يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر قاضيا ألا بأشارة ابي يوسف وامره، وقال له الرشيد : يا ابا يوسف لو جاز لي ادخالك في نسبي ومشاركتك في الخلافه المفضية الي لكنت مضيقا به..

ولان الطاغيه يعيش عقدة الام فلا تهمه صحة الانساب.. لذا اختار المنصور الربيع حاجبا له ثم وزيرا.. وكان الربيع بن يونس بلا اب معروف..

وتطيب الدنيا في عيني الطاغيه ويكره الموت كرها شديدا.. قال المنصور يوما لوزيره الربيع: ويحك يا ربيع ما اطيب الدنيا لولا الموت.. فقال الربيع:ما طابت الا بالموت.. قال المنصور:وكيف ذلك ؟ فأجابه: لولا الموت لم تقعد هذا المقعد..

واشتغل الربيع مع هارون الرشيد.. وكان الربيع يراقب موسى الكاظم في عبادته وزهده فطلب من الرشيد ان يطلق سراحه فقال الاخير: هيهات لابد من ذلك 0

كان الرشيد يشتري العبيد والكاظم يعتقهم باموالة.. او يعتقهم الكاظم ويشتريهم الرشيد0

والرشيد،قبل سجنه للكاظم كان يستدعيه إلى قصره ويستشيره ولكن الرشيد لم يكن مرتاحامن الامام الذي ازداد نفوذه وتضاعفت امواله،فأستدعاه ذات يوم وصرخ به بغيظ: يا موسى بن جعفر، خليفتين يجبى لهما الخراج ؟؟

خليفتان يجبى لهما الخراج..خليفتان يخضع لهما الناس..

خليفتان متناقضان في العقلية والسلوك..

خليفتان لهما أراء ووسائل في الحكم..

خليفتان ومقعد واحد..

لمن ألغلبه ؟

هذا هو جوهر الصراع الذي خاضه الرشيد ضد الكاظم.. فقد أيقن الرشيد الذي يملك مصدر القوة إن لا مناص من حسم الصراع لمصلحته وإزاحة الكاظم من طريقه بأي ثمن.. وفعلا اعتقل الكاظم وزجه في السجن ثم اغتيل بالسم..

الرشيد لم ينظر للصراع بينه وبين الكاظم على أساس الانتساب.. والرشيد مثل سابقيه لم يعر أهمية لهذه المسألة بقدر اهتمامه بكيفية الحفاظ على السلطة المطلقة.. وإذا كان الكاظم من نسل علي فأن الرشيد من نسل العباس وعلي والعباس من ولد عبد المطلب،لكن الناس – وتصل أخبار الناس عن طريق آلاف العيون التي بثها العباسيون في أرجاء الدولة – يذكرون شجرة علي ولا يذكرون شجرة العباس وهذا ما يثير الحسد والغيرة والحقد في نفوس الحكام الذين ينقصهم هذا الانتساب الرفيع لشجرة النبي ونسل ابنته (ع)..

في العصر الأموي تم فرض شتم أهل البيت وانتقاصهم على جميع المسلمين.. تخيلوا حكومة إسلامية تأمر سنوات طويلة سب الإمام علي في المساجد والمجالس،ولم يخلص المسلمين من هذه المحنة الأخلاقية ألا الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز..

وبلغ ببعض العوام والمضللين بسبب السياسة الأموية، إن رجلا جاء إلى الحجاج رافعا عقيرته: أيها الأمير أن أهلي عقوني فسموني عليا أني فقير بائس وأنا إلى صلة الأمير محتاج..

ضحك الحجاج وقال له: للطف ما توصلت به فقد وليتك موضع كذا...

ومعاوية أول خليفة أموي،استخدم السم لتصفية خصومه.. دس السم للحسن على يد زوجته جعيدة بنت الأشعث.. وابنه يزيد قتل الحسين أباد العترة الطاهره في كر بلاء.. وقام هشام بن عبد الملك بقتل زيد بن علي وأمر بوضع رأس زيد في مجلسه وأمر جميع من يدخل عليه أن يطأ بحذائه وجه زيد.. وقبل ذلك كتب هشام إلى والي الكوفة إن يبقي زيدا مصلوبا ولا ينزل خشبته..

من سخافات الطغاة، مبالغاتهم في تهويل الأمور، فذا معاوية مثلا، يكتب إلى جميع عماله وولاته بعد عام الصلح، مذكرة جاء فيها: انظروا إلى من قامت عليه البينة انه

يحب عليا وأهل بيته فأمحوه من الديوان واسقطوا عطاءه ورزقه.. وأضاف معاوية: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره..

يعاني الطاغية الشرقي من جرح كبير مصدره: الأم.. معاوية عانى من عقدة كبيرة اسمها (هند بنت عتبة).. التي دارت حول سلوكها الشبهات.. ولما كان الطاغية مثل تيار جارف يمضي بعينين مغلقتين نحو السلطة.. ينسى عاره الذاتي بمزايا السلطة.. ويكون رحيما ورؤوفا مع غيره ممن حمل عار عقدة النسب.. معاوية، نصب زياد بن (أبيه) واليا على الكوفة.. لم يفتش معاوية عن مزايا زياد الاجتماعية.. بقدر ما تمتع به زياد من قبضة حديدية تجعل الناس لاهين عن ذكر (أبيه) بعذاباتهم التي تسبب بها هذا الزياد.. وهذا أيضا يتناسى (عقدة) الأصل بالعذاب الذي يصبه على رؤوس الشرفاء.. لذلك نرى أن زيادا بطش بأهل الكوفة وبالغ بالقتل والاضطهاد ومارس صنوف التعذيب ضد الكوفيين من قطع الأيدي والأرجل وسمل العيون والصلب على جذوع النخل والتشريد والطرد وهدم البيوت.. والعراقيون، لم يألفوا هذه السياسة النكراء التي ابتدعها زياد ولم يعهدوها من قبل..

وكذلك تفاجأ المسلمون بخطط الأمويين.. إذ أمعن الحكام الجدد بالقتل والموت بلا تمييز بين سكان العراق أو المدينة المنورة.. وكانت الكارثة الكبرى التي صنعتها أيدي الطاغية يزيد..

مأساة، ما زال التأريخ يذكرها بألم كبير.. الطاغية لا يتورع عن استخدام كل الوسائل الشريرة المنافية للشرف والتقاليد والعرف ويجعلها هي القاعدة التي يستند إليها حكمه.. واقعة (الحرة).. التي دبرها الطاغية يزيد لأهل المدينة شهدت انهارا من الدماء.. أباح يزيد لقادته وجنده استباحة مدينة الرسول ﷺ بالكامل.. استباحوا الدماء والأعراض والأموال.. أمر غير مألوف لدى أهل المدينة.. لكن الطاغية، لكي يرغم خصومه للإذعان لا يتردد من استخدام جميع المحرمات لتحقيق هدفه.. وهكذا فعل يزيد .. استباح قتل النساء والأطفال والأبرياء.. وقد لجأ أهل المدينة إلى قبر النبي واعتصموا به لاعتقادهم أن قداسته سوف تحميهم من الاعتداء.. إلا أن الوحوش الكاسرة التي وجهها الطاغية لم تقم وزنا لحرمة القبر ولم ترجو له وقارا فقد عمدوا إلى قتل الناس وانتهاك أعراضهم في الجامع النبوي.. قتلوا خيرة شباب يثرب.. وطلب أعوان يزيد ممن تبقى مبايعة الطاغية الفاجر وكل من يرفض، وسمموا بالكي على رقبته.. وهكذا أصبحت مدينة الرسول ﷺ خرابا، ممتلئة بالقتلى الأبرياء ودورها مهدمة.. وجثث

الأطفال والنساء والشيوخ تملئ شوارعها .. وهكذا حول الطاغية، مدينة الرسول ﷺ إلى مأساة، وبذلك رد الطاغية الجميل لأهلها التي آوت الرسول ﷺ في بداية دعوته.. ولكنه حقد الطلقاء.. بعد أن أمسى الحكم في حوزة طغاة بني أمية، ذهب (أبو سفيان) الزعيم الأموي إلى قبر الحمزة (ع) فركله برجله صارخا: يا أبا عمارة.. أن الامر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا يتلاعبون به.. وهكذا عاد الذين هزموا في (بدر) إلى مواقع الحكم.. واستولى الطلقاء على كامل السلطات.. وبالسيف والمال مارس الطاغية الأول دوره في تثبيت الحكم لصالح أسرته.. وقد وصفه أحد أنصاره المقربين إليه: أخبث الناس ؟ هذا ما حكاه مطرف عن أبيه المغيرة بن شعبة.. والغريب في أمر معاوية انه لم يعادي عليا فحسب، بل قيل انه من شدة بغضه للنبي ﷺ انه مكث في أيام حكمه أربعين جمعه لا يصلي فيها على النبي ﷺ وقد سئل على ذلك فقال: لا يمنعني من ذكره إلا أن تشمخ رجال بآنافها ..

وكذلك ما فعله ابنه يزيد الذي قال:

لعبت هاشم في الملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزل

ووصف الأديب والشاعر والخطيب سد يف بن ميمون العصر الأموي

فيء الدولة لا في القسمة

الإمارة بالغلبة لا بالمشورة

العهد بالميراث لا باختيار الأمة

شراء الملاهي والمعازف سهم اليتيم والأرملة

أهل الذمة يحكمون رقاب المسلمين

القائم على أحوال المسلمين كل فاسق

الطاغية يعشق كلمة (أنا)..

-أنا أول الملوك.. كلمة معاوية الشهيرة

وأول الملوك وآخرين غيره من سلالة بني أمية الذين تعاقبوا على الخلافة – عدا عمر بن عبد العزيز – قتلوا أعلام الإسلام والمسلمين: حجر بن عدي وعمر الخزاعي وميثم التمار ونفقات الطاغية كثيرة، ويحتاج إلى مصادر مالية متعددة.. حاكم مصر، فزع

إلى الطاغية سليمان بن عبد الملك شاكيا له أحوال المصريين وما يعانوه من الفقر من الضرائب التي تجبى للخليفة.. لكن الطاغية رد عليه بما انطوت عليه نفسه من شرور قائلا: هبلتك أمك ، أحلب الدر فإذا انقطع فأحلب الدم والنجا .

والطغاة يتفننون في إجراءات جبي الضرائب ويبتكرون أنواعا لها لا تمر في خاطر إنسان عاقل واحد .. الأمويون فرضوا ضريبة على الزواج وأخرى على كل من يريد أن يسلم وبذلك شلوا نشاط الحركة الإسلامية..

قال عمرو بن العاص لرجل من مصر: انتم خزانة لنا .

وقال معاوية، قبله: الأرض لله، وأنا خليفة الله فما آخذ من مال الله فهو لي وما تركته كان جائزا لي.

وكتب معاوية إلى زياد بن أبيه عامله في العراق: أن يصطفي له الصفراء والبيضاء.

أوعز زياد إلى عماله بذلك فأمرهم أن لا يقسموا بين المسلمين ذهبا ولا فضة..

وصادر الحجاج أملاك الأهالي في بلاد اليمن لصالح خزائن الطاغية..

وعن هذا النهب، قال أحد الأخيار: لقد اتخذ الأمويون مال الله دولا وعباد الله خولا..

وفي ولاية الطاغية الحجاج، سجل عدد كبير من الملاكين أراضيهم باسم (مسلمة بن عبد الملك)، وكان العراقي يكدح ويعطي ثمرات كدحه للطغاة قسرا..

عمر بن عبد العزيز، هو الذي أمر بإلغاء الضرائب.. ولكن ما أن مات وعاد يزيد بن عبد الملك حتى ارجع تلك الضرائب القاسية.. وكتب لعماله يقول: أما بعد : فان عمر كان مغرورا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، اخصبوا أم اجدبوا، احبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا..

طغاة كبار وطغاة صغار من شذاذ الآفاق الذين حكموا العراق وأذاقوا أهله المر والعذاب.. كواسر وحشية لا تمت للإنسانية بصله.. زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والمغيرة بن شعبة ويسر بن أبي رطأة وسمرة بن جندب وخالد القسري والحجاج الثقفي.. كواسر لا عهد لهم بالرحمة والرأفة والمثل والقيم التي أمتاز بها الإنسان عن الحيوان السائم.. الطغاة الكبار سلطوا الطغاة الصغار على رقاب العراقيين والمسلمين.. هؤلاء الجفاة القساة.. الذين أمعنوا في ظلمهم وانتهكوا الحرمات وسلبوا الأموال وقتلوا

الأبرياء.. وكان الولاة والعمال اشد قسوة من الطغاة الكبار.. الشاعر كعب الاشعري كتب لعمر بن عبد العزيز:

أن كنت تحفظ ما عليك فإنما   عمال أرضك بالبلاد ذئاب

لن يستجيبوا للذي تدعو له   حتى تجلد بالسيوف رقاب

وكان العمال في زمن عمر بن عبد العزيز يضطهدون الناس من دون علم الخليفة.. وذات يوم، بينما كان عمر يخطب على المنبر، انبرى له رجل فقطع عليه خطابه وقال له:

أن الذي بعثت في أقطارها   نبذوا كتابك واستحل المحرم

وكان الوليد بن يزيد، يقول:

ونحن المالكون الناس قسرا   نسومهم المذلة والنكالا

ونوردهم حياض الخسف ذلا   ومانألوهم إلا خبالا

ووقف الطاغية عبد الملك بن مروان أمام أبناء المهاجرين والأنصار في يثرب خاطبا:

- إلا وأني لا ادري أمر هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم قناتكم وأنكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل عملهم وأنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه.

وعمرو بن العاص يقف مستخفا: إنما السواد بستان قريش ؟

وفرض الطغاة الجزية على أهل الذمة.. ويزيد بن عبد الملك قد أوقع بالذميين وأرهقهم واخذ أموالهم ووسم أيديهم وفرض عبد العزيز بن مروان الجزية على الرهبان وهي أول جزية أخذت منهم.

وحرموا الموالي من جميع حقوقهم وعاملوهم معاملة الحيوان.. وفي إحدى المرات قال أحدهم لعمر بن عبد العزيز شاكيا: يا أمير المؤمنين، عشرون ألفا من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق، ومثلهم قد اسلموا من أهل الذمة يؤدون الخراج .....

وكان الأمويون لا يسمحون للموالي أن يكنون بالكنى بل مناداتهم بأسمائهم وألقابهم ولا يسمحون لهم بالسير في الصف أمامهم أو معهم إلا ورائهم ولا يجعلون منهم قائدا على جيش عربي ولا يجيز لأحد منهم أن يصلي إماما..

يعتبر هارون الرشيد، أقوى واشهر حاكم في العصر العباسي. يهب من يشاء ويمنع من يشاء.. لا يسأل عما يفعل.. ولا يحاسب عما يبذر..

جاء للحكم الرشيد، عفوا بعد مؤامرة خطيرة اشتركت في تدبيرها أمه الخيزران ورئيس الوزراء يحيى البر مكي.. التي انتهت باغتيال الهادي.. وعندما خرج الرشيد من السجن بعيد مقتل الهادي بشر بغلام من جاريته الفارسية (مراجل) فسماه عبد الله وهو الذي عرف بالمأمون وقالوا في تلك الليلة: أنها ليلة الخلفاء.. مات فيها خليفة (الهادي) وبويع خليفة (الرشيد) وولد خليفة (المأمون).

أضخم ميزانية للدولة كانت في عصر الرشيد.. أن المحمول إلى بيت المال في أيامه بلغ 7500 قنطارا في كل سنة وقدرت وارداته بما يقرب 500 مليون درهم.. وميزانية دولة الرشيد بحساب الدينار العراقي 2.220.960 مليار دينار.

كان الرشيد مسرفا بأموال الدولة.. وزوجته شديدة الإسراف أيضا.. وكانت شغوفة بالدرر.. حتى أنها اتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر تلبسها في قصرها..

على عادة الطغاة في عزلتهم.. كتب إلى سفيان الثوري لإغرائه واستمالته إلى جانبه للتأثير على عامة الناس فرد عليه الثوري بقسوة: (هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وأنفذته بغير حكمه).

وهي رسالة طويلة فيها توبيخ وتأنيب للطاغية المسرف.. ومما قاله الثوري في جوابه الشهير للطاغية: ((أعلم أنك ستقف بين يدي الله الحكم العدل فأتق الله في نفسك... ورضيت لنفسك أن تكون ظالما وللظالمين إماما، يا هارون قعدت على السرير ولبست الحرير أسبلت ستورا دون بابك... ثم أقعدت أجنادك الظلمة... يظلمون الناس ولا ينصفون ويشربون الخمر ويحدون الشارب ويزنون ويحدون الزاني ويسرقون ويقطعون السارق ويقتلون ويقتلون القاتل... فكيف بك يا هارون غدا إذا نادى المنادي من قبل الله احشروا الظلمة وأعوانهم فتقدمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك..))

لكن الرشيد لم يصل في عصيانه إلى مستوى الطاغية الأموي يزيد بن معاوية الذي تزندق وراح يردد ويتمثل قول ابن الزبعري:

لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزل

وقالها جده، أبو سفيان، أمام عثمان بن عفان مخاطبا فتية بني أمية:

(تلاقفوها يا بني أمه : تلاقف الكرة بأيدي الصبيان فالذي يحلف به أبي سفيان ما من جنة ولا نار) ولم يعاتبه عثمان ولم يعاقبه

وهذا الوليد عندما استفتح بكتاب الله العزيز وخرجت الآية ((وحاب بكل جبار عنيد)) غضب وعمد إلى جعل الكتاب هدفا لسهامه حتى مزقه الملعون وهو ينشد:

تهـــددني بجبـــار عنيـــد فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم محشر فقل يا رب مزقني الوليد

في العهد الأموي أو العباسي فليس هناك شورى ولا ديمقراطية وجميع السلطات الإدارية والقضائية بيد الخليفة.. حكم استبدادي.. والخليفة يحكم براية وهو ظل الله في الارض.. يمعن في الاستبداد ونهب الأموال ومصادرة الحريات وارغام الناس على ما يكرهون.

كان المعتضد العباسي إذا غضب على قائد أمر بالقاءه في حفرة وردم عليه..

وكان الرشيد يضع المعارض في اسطوانة ويبنيه داخل الاسطوانة..

قيل للعتابي: لم لا تتقرب بأدبك إلى السلطان؟

فقال: إني رايته يعطي عشرة الاف في غير شيء ويرمي من السور في غير شيء..

ولا ادري أي الرجلين أكون؟؟

طغاة بغداد يقتلون وزرائهم ومساعديهم وكان بعض العقلاء يرفضون تسلم المناصب التي تقربهم من الخليفة خشية أن يغضب منهم ويقتلهم.. المأمون عرض الوزارة بعد قتله بن سهل على احمد بن أبي خالد فأبى أن يقبلها وقال: لم أر أحد تعرض للوزارة وسلمت حاله. والحق مع الرجل، ذلك أن الحكم لم يكن جاريا على دستور أو قانون معين بل كان يتبع ميول الخليفة الذي كان يوزع الموت والحياة على من كره واحب.. وكانت الأحكام بالإعدام تصدر من الخليفة مباشرة.. وللوشايات دورها في الإيقاع بالخصوم والمنافسين وإذا ما أخطاء الخليفة وتبين له أن المحكوم بالإعدام بريئا، برز المنافقون يبرروا للحاكم فعلته الشنيعة.(هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء وهو اعلم بما يصنع..) إذا، الطاغية يفعل ما يصنع.. لا يسأل عن ذنب ولا جرم..

ولأول مرة في تاريخ الإسلام صار النطع إلى جانب كرسي الخلافة واتخذ منه ومن الجلاد، أداة لتوطيد الوصول إلى العرش..

لذلك لم يدخل على الحكام، من يخاف ربه ويخشى على ضميره أن يتلوث.. قال موسى الكاظم وهو يفسر عزوفة عن معاشرة خلفاء بني العباس وغيرهم: (.. أن اسقط من شاهق فانقطع قطعة قطعة احب إلي من أتولى لهم عملا أوطأ بساط رجل منهم..)

وسبق الكاظم الإمام الصادق الذي حذر من الاتصال بالظالمين: (الفقهاء أمناء الرسل فإذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلى السلاطين فاتهموهم).

وقبل نصائح المعارضة الشيعية، وفي فجر الحكم الأموي وقف عبد الله بن عفيف الازردي الأعمى، في وجه الطاغية عبيد الله بن زياد حينما خطب بعد مقتل الحسين فاظهر السب والشتم للإمام الحسين فرد عليه الأعمى أمام الناس في جامع الكوفة: (إنما الكذاب أنت وأبوك ومن استعملك وأبوه يا عبد بني علاج. أتقتلون أبناء النبيين وتصعدون على منابر المسلمين، أين أبناء المهاجرين والأنصار لينتقموا منك ومن طاغيتك اللعين ابن اللعين – مشيرا إلى يزيد وأبيه معاوية – على لسان النبي الأمين.)

والكميت بن يزيد الاسدي خاطب الامويين:

فقل لبني امية حيث كانوا   وان خفت المهند القطيعا

أجاع الله من أشبعتموه   أسبع من بجوركم اجيعا

الطاغية، مهما بدا متساميا هن السلطة، لكنه في أعماقه يعشقها .. اشتهر عن الرشيد، مثلا قولته: (لو نازعني رسول الله ﷺ لأخذت الذي فيه عيناه)

ولهذا لما أحس الرشيد أن الكاظم (ينازعه) الحكم (وهذا ليس صحيحا بالتأكيد) سمه بثلاثين رقية مسمومة.. وقيل سمه بالعنب.. وبتدبير مدير شرطته السندي بن شاهك.. وكما يفعلها الطغاة، كالعادة، استدعى الرشيد رجالا يعرفون الكاظم بلغ عددهم (500) شخصا عاينوا الإمام وهو ميت وخال جسده من آثار التعذيب أو الخنق ليطمئنوا الناس أن الكاظم مات حتف انفه (؟) على حد قول الرشيد يرجع الحكم العباسي بجذوره إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وقد زال حكم العباسيين عام 1258م على يد هولاكو.. وقد بلغ عدد أفراد الأسرة العباسية الحاكمة في عهد المأمون، الذي أمر بإحصائهم حوالي (30) ألفا .. وقد تسلم العباسيون الحكم في عام 749م بعد القضاء على الدولة الأموية… وكانت مدة حكمهم (524) عاما هجريا وعدد خلفائهم (37) خليفة.. أولهم السفاح وأخرهم المستعصم بالله. ابرز حكام العباسيين هو هارون الرشيد .. كان المع الخلفاء العباسيين.. ودولته تمتد من المحيط الأطلسي إلى الصين ومن حدود فرنسا إلى المحيط الهندي.. كان يقول للسحابة: أمطري حيث شئت فان خراجك سيعود إلي… من الصعوبة بمكان تكوين صورة حقيقية واضحة عن سيرة الرشيد .. وكثرة الروايات التي نسجت عنه سلبا أو إيجابا هو الذي ترك هذا التخبط في تقييم شخصيته.. فهو تارة – كما تذكر الروايات – يحج سنة مشيا على الأقدام ويصلي (100)

ركعة في اليوم وتارة يذكر عنه كثرة ممارساته غير المقبولة في مجال الأخلاق الإسلامية.. حتى قيل انه لم يكن يقدر أن يعرف بالضبط مع من يبيت ليلته هذه إلا إذا رفعت التي عليها الدور علما فوق غرفتها وقيل عنه كان يبكي بغزارة خشية من الله وقيل عنه أيضا وهذا متحقق انه ساهم في تدبير جريمة اغتيال موسى الكاظم.. أن الذي يقرا أخبار الرجل ومما كتب عنه يرى تناقضا ظاهرا واختلافا بينا يصعب معه تكوين فكرة صحيحة عن أخلاقه وسجاياه..

اكتظت أسواق بغداد، في العصر العباسي، بالآلاف من الجواري والغلمان، من كل جنس واستخدمت هذه الآلاف في قصور الخلفاء والأمراء والوزراء.. وان الكثير من الخلفاء العباسيين كانت أمهاتهم من الرقيق.. وكانت عند الرشيد وزوجته زبيدة، مثلا زهاء ألفي جارية من المغنيات، ومن هذا الجيل الغريب ومن سلالات بشرية متنوعة نشاء في العراق جيل جديد بمحل ميزات أمهاتهم الأجنبيات.. وكان الخلفاء يتخذون الراقصون والممثلون في العادة من الأرقاء.. كما اهتم الخلفاء العباسيين بالغلمان اهتماما كبيرا وكانوا يلبسونهم الثياب العالية الزاهية وهؤلاء الغلمان كانوا يتجملون ويتعطرون للخلفاء، وامتلأ عدد كبير منهم في قصر الرشيد وكان الأمير يقتني إعدادا كبيرة من الغلمان وخاصة المرد منهم وكان بعض المرد يملكون قلوب سادتهم.. وكان قاضي المأمون، يحيى بن اكثم يمتلك وحده (400) غلام أمرد حسان الوجوه وكان الآمين والها بالخصيان المرد ويطلبهم لخلوته ويرفض النساء ومال الخلفاء إلى التسري بالجواري للتمتع بهن في الفراش.. فقد أهدى المهدي زوجته الخيزران ألف وصيفة والف وصيف أهدت زبيدة ابنها الأمين جواري جعلتهن على هيئة غلمان ولذلك سمين بالغلاميات.. وكانت نهاية الخليفة المهدي على يد جارية من جواريه تدعى (حسنة) فقد وضعت السم في ثمرة الكمثرى لتأكلها جارية أخرى كان المهدي يقربها إليه مما جعل حسنة تشعر بالغيرة ولكن القدر جعل المهدي يأكل الكمثرى المسمومة بدلا من الجارية.. وأهدى الرشيد للجارية (دنانير) في ليلة واحدة عقدا قيمته (30) ألف دينار.

أقام العباسيون القصور الفخمة في بغداد، في العصر الأول بالذات، منها قصر باب الذهب الذي شيده أبو جعفر المنصور وبلغت مساحته 160 ألف ذراع مربع بينما بلغت مساحة الجامع الذي شيده بجانب القصر 40 ألف ذراع مربع ويسمى قصر القبة الخضراء وعلى القبة تمثال لفارس بيده رمح وارتفاع القبة 80 ذراع عن الأرض.. أقام المنصور في قصرن نفقا خاصا يلجا إليه في اللحظات الحرجة يذكرنا بالنفق الخاص الذي شيده نوري السعيد في بيته على شاطئ دجلة.. وكان النفق يوصله إلى مسافة

فرسخين عن قصره وبنى المنصور قصر الخلد وهو اسم من أسماء الجنة ويدل على السرمدية وكان المنصور يرجو ذلك وبنى قصر القرار وهو أيضا مثل الخلد وهناك الرصافة الذي بناه المهدي وربما الرشيد، وقد فعلت بغداد بقصور الخلفاء الفخمة التي امتلأت بالجواري والغلمان والحريم والخصيان وعاش الخليفة أهله وأقربائه في حياة البذخ كما شيد قصر وضاح وقصر عباس للأمراء.. ومن العسير أن نصف القصور التي شيدها الخلفاء العباسيون ومقدار الأموال التي بذروها من أموال المسلمين وقتذاك ناهيك عن قصور الأمراء والوزراء وكبار موظفي الدولة وما عاشوه من ترف وبذخ وفساد وليال حمر فقد كان قصر الخليفة مفروشا بـ(22) ألف بساط على الأرض و(230) ألف بساط على الحوائط منها (1500) من الحرير المطرز بالذهب وكانت قاعة العرش ذات تأثير نفسي كبير.. وكانت زوجة الرشيد، زبيدة، بسبب الترف والبذخ تهوى (مجرد هواية زوجة حاكم) جمع الأواني الذهبية والفضة والماس والأحجار الكريمة.. وبلغ من إسراف الخلفاء العباسيين واستهتارهم بأموال المسلمين انهم كانوا يغطون جذوع أشجار النخيل في حدائق قصورهم بطبقة من الخشب المذهب بينما الناس البسطاء يشيدون دورهم من الآجر والأحجار وهي دور متواضعة جاهدوا لتحسينها لدرء الحر والبرد عن عوائلهم.. وكانت محلات البغداديين مشيدة من الطين تجدد بين فترة وأخرى لتخفيف حرارة الصيف بينما كان المنصور يأتي بأطنان القصب الطويل الغليظ فيرصف ويؤتي بقطع الثلج بكميات هائلة فتوضع بين أصفافها فيمر الهواء منها باردا وكان أول من اتخذ الخيش هو المنصور..

وقرب المنصور أقرباؤه واقطع اسرهم الأراضي أعانهم على بناء قصورهم فالتفوا حوله وجعل من شيوخهم مجلسا استشاريا فيه عددا من أعمامه ...

قبل وفاته قال لابنه المهدي: لقد تركت لك ثلاثة أنواع من الناس، الفقير الذي يتوقع أن تغنيه، والخائف الذي يتوقع أن تحميه، والسجين الذي يتوقع أن تطلقه، فاوسع لهم دون إسراف. هذه الكلمات الأخيرة لأبي جعفر المنصور وهو يودع الحياة ...يودع قصوره وجواريه وترفه ونعومة دنياه وعشقه للسلطة الاستبدادية.. لقد شعر الناس بعد وفاته بالراحة على حد تعبير السيدة رمزية الاطرقجي في بحثها المقدم إلى قسم التأريخ بكلية البنات بجامعة عين شمس لنيل الدكتوراه في الاداب والفنون بـ (الحياة الاجتماعية في بغداد) بعد ما اجهدوا أنفسهم في عهده بما يتطلبه تأسيس دولة حديثة وملوا الإفراط بالجد والاقتصاد الذين اتصفا بهما المنصور وتطلعوا لحياة فيها سعة في المال وطرف من النعيم..

لقد اضطر الخليفة الجديد، المهدي، أن ينظر بنفسه بالمظالم التي كانت تقدم إليه في السابق في رقاع من الورق بعد أن علم أن بعض اتباعه يأخذون الرشوة من المراجعين وانفق المهدي كل الأموال التي جمعها المنصور وانفق أمواله الخاصة حتى قيل انه انفق عشرة ملايين درهم في أيام معدودات، واشتهر في عهده، نكاية بالمنصور الذي عرف عنه البخل والتقتير، ذم الناس للبخل وانتشار القصص والنكات اللاذعة عن البخلاء وربما كان من آثارها كتاب (البخلاء) للجاحظ وكان المهدي يعشق الغناء ويسمعه دائما وحسبك أن ولديه إبراهيم وعلية اشتهرا بالطرب والغناء وقد تجرع الناس البؤس والمرارة أيام الفتن بين الأمين والمأمون وخربت بغداد وعم العراقيين الشقاء ...

وكان الخلفاء يبثون الجواسيس والعيون والرقباء على قوادهم ووزرائهم وأولادهم واخوتهم، فقد كان مسرور الخادم رقيب المأمون على أبيه الرشيد بينما كان الطبيب بختيشوع رقيب الأمين على أبيه، وكان للأمين (1700) عجوز يتفقد بهن أخبار الناس لمعرفة ارائهم، من يحبه، ومن يكرهه، وكان للوزراء عيون على الخلفاء وللخلفاء عيون على العمال.. وكانت الدسائس بينهم على قدم وساق وكثير من الناس في عهدهم، لكثرة ما جرت عليهم من الأحداث الغامضة، لم يستطيعوا أن يفسروا كثير من الوقائع، فنكبة البرامكة ظلت عرضة للاجتهادات والاراء.. وكم من قتيل لم يعرف قاتله فحسبوه ميتا من أكلة عنب أو تمر وانما قتل مسموما بدسيسة بعض الخلفاء او القواد وولاة العهد أو طبيبه أو صاحب داره كما تقول الاطرقجي..

كان الشعب في العصر العباسي يتألف من أهل الحرف والعمال والفلاحين وأصحاب المهن والصناع وصغار الباعة والجند، وكذلك اللصوص والشطار والعيارين أهل الريف.. أجناس مختلفة لكنها جميعا تكدح وتتعب من اجل أن تحيا .. وكان قصر الخليفة له بابين، بابا يطلق عليه (باب الخاصة) وباب آخر يسمى (باب العامة) أي عامة الناس، البسطاء، الرعية.

كتبت الباحثة رمزية الاطرقجي: (لقد كانت هناك هوة سحيقة بين طبقات الشعب في العصر العباسي الأول فكثير من المال ينفق على قصور الخلفاء والأمراء ورؤساء الأجناد وعمال الدولة وهم ينفقون منه جزافا على المقربين من أدباء وعلماء ومغنين وجوار واتباع وطبقة تجار، وهؤلاء في درجة من الثروة دون الأولى وعامة الشعب يغشوا فيهم الفقر والبؤس ... فقد كان الشعب في بغداد يحمل على اكتافه كل ثقل هذا الصرح من العظمة التي شهدتها بغداد في هذا العصر وكان العمال والجراء والصناع يؤدون درهم في السنة ... العامة ليسوا من أهل السلطة وكانت النظرة إليهم لم تكن تنطوي على احترام

... فقد وصف بعض أهل الصنايع والباعة بأنهم من سفلة الناس أمثال الحائك والطيان والفلاح وبائع السمك ... بان الناس قد اجمعوا على تسميتهم بالغوغاء وأطلق عليهم أحيانا الأوباش ... وعرفت في بغداد المحلات الشعبية مثل محلة (قطيعة الكلاب) و(محلة نهر الدجاج) والمحلات منتظمة بشكل وحدات وكان سكان كل محلة يشعرون بنوع من الرابطة المتينة بينهم.

كان غالبية الشعب يأكل طعاما رخيصا، بسيطا .. ويكتفون بالنزر اليسير وكان البعض يعيش على ما يتصدق به الناس عليهم في المناسبات سواء كانت مفرحة أم محزنة.. وكان فقراء بغداد مثلا لا يقدرون على تناول الأكلات غالية الثمن كالدجاج بأنواعه واللحم وكانت الأكلات الشعبية هي السائدة وتشمل السمك والباقلاء، ولقد رفع إلى صاحب الشرطة في عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، أن ما يباع من الباقلاء المطبوخ في كل يوم في أحد جانبي بغداد (60) ألف دينار. وكذلك كانت الهريسة و(الباجة) من أكلات الطبقة الشعبية لرخصها في ذلك الوقت وكان الناس في الأغلب ياكلون لحم البقر ثم تركوه واعتبروا لحمه ضارا وكذلك تخلوا عن أكل البيض.. بينما كانت موائد الخليفة والوزير والأمير والأشراف والتجار تعج باللوز والفستق والجوز وجوز الهند والزبيب والفواكه كالرمان والتفاح والموز والبطيخ وكانوا يجلبون البطيخ لقصور الخليفة في قوالب من الرصاص وكانت الطبقات العليا تعتبران كل ما خالطه النوع من فاكهة الصيف فيعتبر من أكل العوام لا أكل الخواص مثل العنب والتمر والمشمش والنبق والخوخ.. كان أبو جعفر المنصور رغم بخله، أكولا نهما وكان يمرض كثيرا بسبب نهمه وكثيرا ما نصحه الأطباء بتقليل طعامه لكنه لم ين يفعل ذلك وعرف عن الرشيد بذخه في إعداد موائده، وكان الطهاة يقدمون له (30) لونا من الطعام في اليوم وينفق على طعامه (10) الاف درهم في اليوم وقيل لما تزوج الرشيد من زبيدة بنت جعفر أقيمت في قصره وليمة انفق عليها (55) مليون درهم.. وبلغت نفقات المأمون (6) الاف دينار في اليوم.

جعفر بن المعتصم الملقب بالمتوكل الذي تولى الخلافة في 10 آب سنة 847 م وحكم (15) عاما .. كان متهما بتبذير الأموال والترف وكتب الوزير الزيات في رسالته إلى الخليفة الواثق، متحدثا عن أخيه الأمير جعفر (المتوكل): (أن الأمير جعفر جاءه " في زي المخنثين، له شعر قفا ").

الباحثون الغربيون والشرقيون – كما يؤكد الدكتور عماد إسماعيل النعيمي – استنكروا بعض إجراءات المتوكل لقبه المستشرق (سيديو) بـ (نيرون العرب) واقتبس

الوصف السيد أمير علي وعبد الجواد الكليدار وقال عنه (ميور): المتوكل ذو عقلية محدودة ومتعصب لارائه..

جاء المتوكل بعد محاولة الخلفاء الثلاثة قبله بفرض (مذهب) معين على الناس واتباعهم سياسة العنف مع معارضيهم بخصوص القضية المعروفة بـ(محنة خلق القرآن) وكذلك ازدياد نفوذ العناصر الأجنبية المرتزقة ومعظمهم من الأتراك ثم فساد الإدارة وتفشي الرشوة بين الوزراء وكبار الموظفين بسبب سيطرة قادة العسكريين الأتراك على الإدارة.. جاء المتوكل إلى الحكم بفضل دعم العسكريين الأتراك، ايتاخ ووصيف وبغا، إذ أن الخليفة الواثق لم يعالج ولاية العهد (معالجة حكيمة تتصف بالحكمة وبعد النظر فقد توفي ولم يعهد بالخلافة إلى أحد بعده فكان تنصيب أخيه جعفر) ...

بعد إعلانه خليفة رسم المتوكل خطة بارعة للتخلص من ايتاخ وفعلا دبر له سفرة إلى مكة للحج ثم خدعه بدعوته إلى بغداد بدلا من سامراء وفي بغداد استقبل استقبالا رسميا وشعبيا ومن بعد ذلك تم اعتقاله مع حرسه الخاص في قصره ببغداد وانتهى أمر ايتاخ بالموت جوعا داخل سجنه... ورسم خطة أخرى لتشتيت (قوة) العسكريين ذلك بان قسم الأقاليم بين أولاده الثلاثة المنتصر والمعتز والمؤيد ونصب المنتصر وليا للعهد لكي يتجنب خطا الواثق... وهو بذلك جعل من الأمراء الثلاثة هدفا للعسكريين تتجنب الخليفة توحدهم ضده..كما شكل فرقة عسكرية جديدة بأمرة ابنه المعتز ليضمن ولاء العسكر الذين كان يكرههم.. وكان عدد أفراد هذه الفرقة يتراوح بين 12 إلى 20 ألف متطوع من عناصر مختلفة.. وفيما بعد شكلت هذه الفرقة عبئا على الخلافة بسبب مطالبتهم برواتبهم..

وفكر المتوكل بالعودة إلى بغداد وترك سامراء ثم أهمل الفكرة عام 857 م قرر الرحيل إلى دمشق وكانت نيته اتخاذها عاصمة للدولة ...

في عهد الواثق، بداية تفشي الفساد الإداري والرشوة والإثراء غير المشروع، لذلك قرر بعد أن جاءته الأخبار أن سلوك الوزراء وكبار الموظفين مع الناس غير مرض وانهم يعاملون العامة من الناس بقسوة.. قرر قرارا خطيرا:

القاء القبض على كبار الموظفين ومصادرة أموالهم وفعلا صودرت أموال كبار شخصيات زمانه.

بعد أربعين يوما من خلافة المتوكل أمر الأخير بإلقاء القبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ومصادرة أمواله.

هناك أسباب كثيرة لاعتقاله ومصادرة أمواله.. منها.. خشونة الوزير وتعاليه.. وان الوزير كان (شديد القسوة، قليل الرحمة، جباها للناس، كثير الاستخفاف بهم، لا يعرف له احسان إلى أحد ولا معروف عنده وكان يقول: الحياء خنث والرحمة ضعف والسخاء حمق..) ويعزو الطبري السبب إلى سوء معاملته للمتوكل عندما كان أميرا وان اللقاء الذي جرى بينهما في خلافة الواثق هو الذي حدد مصير الزيات فيما بعد إذ عندما جاءه الأمير إلى غرفته بطلب إليه أن يتدخل لدى الواثق ليسأله الرضا عنه إلا أن الزيات لم يرفع رأسه إلى الأمير إلا بعد أن أنجز ما تحت يده من كتب وجعله يقف مدة قبل أن يسمح له بالجلوس ولم يكتف بذلك بل قال لمن حوله: انظروا إلى هذا يغضب أخاه ويسألني أن استرضيه له، اذهب فأنت إذا صلحت رضي عنك، فقام جعفر كئيبا حزينا.. وحرض الوزير الخليفة عليه بان ذكر له أن جعفر جاءه بزي المخنثين له شعر قفا.. فأمره الخليفة أن يوعز إلى من يجز شعر قفاه ويضرب به وجهه.. وقيل أن الزيات رشح ابن الواثق للخلافة بينما كان جعفر ينتظر في حجرة مجاورة.. أن حب المتوكل للبناء والعمارة.. بناء وعمارة قصوره جعله ينزل بنفسه إلى العمل ومشاهدة العمال وهم منهمكين ببناء قصوره وكان يعطي المجدين منهم الجوائز.. واندفع معه كبار موظفيه إلى تشييد الدور والقصور الفخمة ... وارتفع ثمن الأرض ارتفاعا عاليا في سامراء واصبح طول المدينة ما يقرب من 34 كم.. انفق المتوكل مبالغا طائلة على تشييد قصوره ... أرقاما مذهلة ناءت بثقلها خزانة الدولة.. ومن اشهر قصوره – عدا قصور والده المعتصم – البركة والوحيد والبهو والقلائد، وهذا الأخير انفق عليه 50 ألف دينار وكلفة الأبنية الملحقة به 100 ألف دينار.. وبنى قصريه: القصر والجوسق.. وكلفة بناء الجوسق 500 ألف درهم.. وقصوره الأخرى.. التل والغريب والمليح والعروس والشاة.. انفق على عمارة (الشاة)20 ألف ألف درهم وعلى (العروس) 30 ألف ألف درهم.. وكذلك قصريه: البديع والمختار.. وكان المختار مصفحا بالذهب.. وقصرا اسمه (الفرد) على دجلة، بلغت نفقته مليون درهم.. وقصر الصبيح أو الصبح الذي اتخذه المتوكل دارا للأنس وقد وصفه الشاعر البحتري وظن بدهشته أن هذا القصر لا يمكن إدراكه إلا بالخيال وقصر أخر بناه جنوب سامراء سماه (بلكوارا) وأهداه لابنه المعتز.. وكلف خزينة الدولة (20) ألف ألف درهم.. وفي هذا القصر أقام المتوكل حفل ختان المعتز الذي بلغت نفقاته (86) مليون درهم.. ويقال أن المتوكل (ابتكر) طرازا للبناء دعيت بـ (الحيرى) نسبة لبناء أحد ملوك الحيرة وكان يكلف البناء الواحد من هذا الطراز (4) ملايين درهم.. ولم تقف (عبقرية) المتوكل عند هذا الحد فقد (ابتكر) ثيابا سميت بـ (ثياب الملحمة).. كل هذه المبالغ الطائلة لبناء قصوره

على حساب خزينة الدولة بينما يجد نفسه عاجزا عند تسديد رواتب جنود الفرقة العسكرية التي أسسها.

ويجب الإشارة إلى أن الطاغية المتوكل شيد قصرين في عاصمته الجديد (المتوكلية) قرب سامراء.. هما .. الايتاخية وكلفته (10) ملايين دينار وقصر الجعفري وبلغت تكاليف بنائه مليوني دينار.. حتى اضطر أبو العيناء أن يقول له: (أن الناس بنوا الدور في الدنيا وأنت بنيت الدنيا بدارك) في قصر الجعفري، اغتيل المتوكل.. وله قصر أخر سماه (لؤلؤة) قيمته (5) ملايين درهم.

الفصل الثالث

مر العراق بفترات احتلال قاسية بعد انهيار الدولة العباسية ومن ابرز تلك الفترات مكوث العراقيين تحت العهد الجلائري قرابة (75) سنة امتدت من عام 337 الى عام 1411م.. وقد تركت هذه الفترة آثارا خطيرة في النواحي الاجتماعية والسياسية والحضارية في تاريخ العراق الإداري والاقتصادي.. وهي فترة غامضة في تاريخنا لقلة المصادر المدونة عنها باعتراف الباحث الأستاذ نوري عبد الحميد العاني مؤلف كتاب (العراق في العهد الجلائري).. وان عبد الله بن فتح الله الغيثاني الذي أراد تدوين أخبار تلك الفترة قال بجزع: ان من كثرة الفتن وتواتر المحن التي جرت بأرض العراق لم يضبط أحد تواريخها..

الجلائريون قبيلة كبيرة تسكن شرقي منغوليا وهم أحفاد هولاكو مؤسس المملكة الايلخانية.. وبعد تجزأ دولته تغلب كل أمير على ما بيده وصار العراق من حصة الشيخ حسن بن حسين بن آقبقا الجلائري.

لا نعتقد ان هؤلاء وغيرهم من المحتلين ذوي السحنات المختلفة لم يحدثوا انقلابات عرقية مختلفة. ان هذه القبائل وغيرها اختلطت مع السكان الأصليين وتشابكت دماءهم واصبح من العسير الآن الادعاء بوجود دماء نقية صافية.

كانت بغداد، قبيل دخول الجلائريين إليها، مقسمة الى (7) محلات تفصل بينها الأسوار وكان الخراب قد أتى على أجزاء كثيرة منها وبصورة خاصة الجانب الغربي.. وينتشر فيها اللصوص والفتن ويديرها موظف يساعده مدير الشرطة..

كانت الهيأة الحاكمة في العهد الجلائري تتكون من (السلطان) الذي هو رأس الدولة ثم (الخواتين) وهن حرم السلطان حتى ان (دلشاد خاتون) زوجة الشيخ حسن، سلطان العراق وقتذاك، كانت هي الحاكمة الفعلية في العراق وكان أمرها نافذا ولها نائب في كل شئ يحكم عليه زوجها ولها رأي في اختيار كبار موظفي الدولة وكان عدم رضاها عن المسؤول يعني إنهاء خدماته ومعاقبته حتى قتله إذا لزم الأمر وفعلاً عندما اختلفت مع نائب زوجها قتل الرجل وكانت تشارك زوجها في الأمور العسكرية ولم يكن زوجها إلا حاكما بالاسم فقط.. والخواتين في ذلك العصر تمتعن بحرية كبيرة وكن يحضرن مجالس

الأدب والشعر.. وان الكثير من كبار موظفي الدولة وقتذاك تدرجوا في المناصب العليا بواسطتهن وان سليمان اتابك تزوج مربية السلطان اويس لانها كانت ذات حظوة ولها رأي عند الأمراء وكان من نتائج هذا الزواج ان نصبه السلطان اويس أمير الأمراء.. كان السلطان يلجأ الى الحريم في اكثر الأوقات في حل الأزمات والبعض اعتمد حتى المربيات مبعوثات للخارج والمفاوضة وتولت دوندى خاتون إدارة بغداد بعد مقتل عمها السلطان احمد ودعاها بعض المؤرخين بالسلطانة وان أحد الأمراء وهو الأمير يخشايش خطب ابنة دوندي فلم تستطع المخالفة لأنه كان في منصب حاكم بغداد فأتمت الأفراح وما ان هم بالتوجه ليدخل على العروس حتى ضربت عنقه وجعلوا رأسه على رمح وجثته على فرس وواحد خلفه والرأس أمام الفرس على الرمح والدفوف تقرع حتى الصباح.. كانوا يرفضون تزويج أميراتهم ممن كانوا دونهم منزلة..

كان السلاطين في العراق مسعورين جنسياً، وكان السلطان حسين مولعاً بالنساء وصار يختطفهن من الأعراس.. وكان حسين، أحيانا يتزيأ بزيهن ويدخل في الولائم والأعراس فيما بينهن دون ان يعلموا بذلك.. وكانت الخيانات الزوجية مألوفة بين أسرة السلطان.. ففي أثناء حصار قوات تيمور لقلعة النجق حصلت خيانة بين زوجة السلطان احمد وبين قائد القلعة فسارع ولدها (طاهر) الى قتلهما وقتل نفس السلطان خالته ومربيته مع عدد كبير من الحرم بتهمة التآمر.. وكن الخواتين يتقاضين رواتب من الديوان..

واعتبر أولاد السلطان ضمن الهيأة الحاكمة.. اذ يشتركون في الإدارة وتولى البعض منهم حكم بغداد والبصرة والحلة.. وهناك نائب السلطان الذي يظهر الى المسرح عندما يكون السلطان في سفرا وحرب ولم يكن السلاطين الجلائريين يعهدون بهذا المنصب لأبنائهم خشية تآمرهم وطمعهم بالحكم او إثارتهم للمشاكل والفتن.. وأيضا وجد (الوالي) ضمن الهيأة الحاكمة.. وكان الوالي يستمر بولايته ما دام السلطان راض عنه.. وكان بعض ولاة بغداد لا يحكمون الا ايام معدودة.. نجد ان جميع الولاة كانوا من غير العراقيين، من غير أهل البلاد، وعناصر غير كفؤة ويختارون من بين الأمراء او أقارب السلطان دون ان يأخذ السلطان بنظر الاعتبار المصلحة العامة في تعيينهم.. كان الوزير في هذا العهد هو الشخص الثاني بعد السلطان واستغل وزراء العراق نفوذهم من اجل جمع المال فالوزير اسماعيل، مثلا جمع في خمس سنوات، مبالغ طائلة من النقود والذهب والفضة والجواهر ونظراً لكثرة الاموال الموجودة في حوزتهم كانوا يتعرضون لاعمال الشغب والقتل والسجن والمصادرة من خلال نفوذ الامراء انفسهم.. وكان اول عمل يقوم

به الوزير الجديد هو مصادرة اموال الوزير السابق واموال عائلته.. وكان اغلب الوزراء يعينون عن طريق الاموال التي يقدمها الشخص المرشح للوزارة للسلطان نفسه.

عانى العراقيون كثيراً من جور الجلائريين وطموحاتهم العسكرية وكثيراً ما قادوا قسراً ابناء العشائر العربية والكردية الى حروب فتاكة لامعنى لها وفي عهدهم عاشت بغداد مأساة كبيرة بسبب فيضان دجلة عام 1338م وكذلك فاض الفرات فيضانا عظيما اديا الى إغراق المزارع وتخريب بيوت كثيرة وإزهاق أرواح كثيرة ايضاً وفي سنة 1356م فاض دجلة وغمرت مياهه الكثير من بيوت بغداد وخرب المدينة اتم خراب وفي عام 1363م فاض دجلة مرة اخرى وصادف ذلك ثورة والي بغداد الخواجة مرجان الذي كسر سدة قورج واغرق المدينة لمسافة اربعة فراسخ وفي عام 1367م فاضت دجلة بصورة مفاجئة واخترق الماء بغداد وامتلأت الدور والأزقة وكان اخطر فيضانات دجلة الذي حصل عام 1373م عندما اختلط بالفرات وصارت الرصافة لا يصل إليها الشخص الا بالمراكب ولم يبقى من بغداد الا نحو الثلث من العمران واستمر الفيضان شهراً وقدر عدد الدور التي تهدمت بـ(60) ألف دار وراح ضحيته نحو (40) الفاً حتى ان والي بغداد الخواجة سرور مات حزناً على ما اصاب المدينة من الخراب ثم حصل فيضان عام 1382م الذي طوق ماءة بغداد يومين.

سلاطين آل جلاير في العراق هم:

1. الشيخ حسن الكبير 1339 _ 1356م
2. اويس بن الشيخ حسن 1374م
3. حسين بن اويس 1382م
4. احمد بن اويس 1410م
5. محمود بن شاه ولد 1411م

وولاة بغداد وحكامهم من الجلائريين:

1. قره حسن 1337- 1338م
2. الخواجة مرجان 1358- 1363م
3. سلطان سليمان شاه خازن 1365- 1367م

4. الخواجه مرجان 1373م

5. الخواجة سرور1373م

6. الشاهزاده الشيخ علي 1383م

7. طورسن 1383م

8. الخواجة يحيى السمناني 1386م

9. مسعود السبزواري 1394م

10. الامير فرج 1399– 1400م

11. ابو بكر بن ميرانشاه بن تيمور 1402م

12. دولة خواجة ايناق 1404– 1405م

13. الامير بخشايش 1410م

14. الامير عبد الرحيم الملاح 1410م

دام حكم المغول في العراق (158) سنة ... وتسمى فترتهم بالفترة المظلمة او هي الفترة الواقعة بين سقوط بغداد بيد هولاكو سنة 1258م الى اوائل القرن العشرين..

لم يعان العراقيون المرارة والظلم والتخلف والفقر مثلما عانوا في ظل سلاطين آل عثمان وكانت الفترة التي حكم العثمانيون فيها العراق من اشد الفترات المظلمة وكان العراق خلالها مسرحا تجري فوقه الصراعات المذهبية– العسكرية العثمانية والفارسية.. لقد اعتمدنا كتاب (تاريخ العراق في العهد العثماني) للسيد علي شاكر علي والكتاب في الأصل رسالة ماجستير قدمت الى جامعة بغداد نال بها المؤلف الماجستير في التاريخ الحديث سنة 1976م.. اعتمدناه في تحليل المعلومات المتوفرة عن العهد العثماني رغم نزرها.

سيطرت على العراق كما هو معلوم بعد سقوطه بيد المغول، قبائل متخلفة ومتوحشة وظالمة تنتمي الى اواسط آسيا وكانت سلسلة من الموجات الاحتلالية: الايلخانية والجلائرية والتركمانية ثم ظهرت موجة الصفويين عام 1500– 1524م.

لقد كان القرن السادس عشر الميلادي، قرن الصراعات العنيفة بين العثمانيين والصفويين وقد حسم الموقف بينهما في معركة جالديران عام 1514م وانتصر سليم الأول

على الشاه إسماعيل الصفوي وبذلك بسط العثمانيون نفوذهم على الجزيرة والموصل واصبح شمال العراق تحت السيطرة العثمانية اما الاحتلال العثماني لجنوب ووسط العراق فلم يتم الا بعد عشرين عاما على معركة جالديران عندما زحف السلطان سليمان القانوني على رأس جيش جرار الى بغداد واستردها من الفرس عام 1534م وفي عام 1546م وقعت البصرة تحت براثن الاحتلال العثماني.

كان الوالي العثماني برتبة وزير وكانت صلاحيات والي بغداد اوسع من صلاحيات الولاة الاخرين.. وكان يستخدم الحرس من الصولاق (رماة السهام) والبيكات (قادة فرق) وبعض الموظفين لإدارة البلاد، ويساعده (كتخذا) أي مختار القرية وهو معاونه ونائبه في غيابه.. والقاضي والصوباشي والأخير مسؤول عن استتباب الأمن وكذلك المحتسب ورغم التنظيم الإداري الأكثر تطورا من عهود سبقت العثمانيين لكن الثورات والتمردات كانت تسود العراق ابان السيطرة العثمانية وتعاقب على بغداد ولاة كثيرون كان لا يهمهم الإصلاح بقدر إشباع رغباتهم المادية وفرض الضرائب على العراقيين واستخدام القسوة في جبايتها ووصل الفساد الإداري في ذلك العهد ان بعض المتنفذين كانوا عطاشى للاستيلاء على السلطة كاملة وبكر صوباشي مثال بسيط على ذلك، إذ كان هذا الرجل قائدا انكشاريا في بغداد، في العقد الثاني من القرن السابع عشر وكان تحت إمرته (1200) من العزاب، وهؤلاء العزاب فرقة من مشاة قواد الحدود، وعلامتهم المميزة هي ارتداء طاقية حمراء وكانوا العزاب بمثابة قوات فدائية، وكان بكر صوباشي قائدا للشرطة في بغداد في ولاية يوسف باشا وازداد نفوذ الصوباشي مما ادى الى زيادة نقمة الانكشارية عليه.

وفي سنة 1621م استغلوا فرصة خروجه الى الفرات الاوسط مع بعض اتباعه تاركا ابنه محمد بدلا عنه في بغداد فاجتمع المتآمرون برئاسة محمد اغا قنبر وقرروا ازاحة صوباشي وهكذا تحركوا باتجاه بيته اذ نهبوه رغم المقاومة العنيفة التي أبداها محمد بن الصوباشي واتباعه.. عاد الصوباشي الى بغداد بعد ان تلقى خبر التمرد وفرض حصارا شديداً على القلعة وأمر بقصفها وقتل أثناء الحصار والي بغداد وازداد الحصار فطلب اغا قنبر الامان والاستسلام للصوباشي فسلم نفسه لخصمه الذي عامله بمنتهى القسوة والكراهية اذ وضعه واتباعه في قارب وأمر بصب الكبريت والقار عليهم فاحرقوا جميعاً.. واصبح بكر بعد القضاء على هذه المؤامرة سيد بغداد بلا منازع.. ثم قام بتوزيع منشورا مزورا اعلن فيه انه اصبح والياً على بغداد رغم انه كتب سراً الى الباب العالي يطلب ان ينعم عليه باشوية بغداد لقاء قضائه على التمرد الاخير.

رفض الصدر الاعظم قره حسين باشا طلب الصوباشي وعين سليمان باشا والي دياريكر على بغداد وارسل سليمان متسلمه علي اغا لاستلام الولاية فرفض بكر مقابلته وكلمه بكلمات نابية صارخا في وجهه:

(ان اهل بغداد ليسوا بحاجة الى وال جديد) فرجع علي واخبر الصدر الأعظم الذي أرسل بدوره حافظ باشا على رأس حملة عسكرية الى بغداد لتأديب بكر.. وخيمت قوات حافظ بالقرب من الاعظمية.. وكان بكر يسمع القائد العثماني كلمات مهينة تتعلق بشخص الصدر الاعظم وكان يقوم بمباغتة الجيش العثماني ليلاً ويلحق به خسائر واستطاع ان يفرق هذا الجيش مما اضطره للتراجع الى ديالى.. فرض حافظ باشا حصارا قاسياً على بغداد وقطع جميع الطرق عليها ومنع الطعام عنها وقرر شن هجوم مباغت على المدينة الجائعة.. لقد كان اهل بغداد يتضورون جوعاً بسبب الحصار الاقتصادي الذي فرضه حافظ باشا واصبح هلاك الآلاف من الناس قاب قوسين او أدنى مما حدى ببكر ان يبعث الى شاه ايران عباس الكبير مفاتيح بغداد بيد حاكم لورستان حسين خان وكان عباس يراقب الوضع في بغداد عن كثب وقد وضع قواته على الحدود الشرقية على أهبة الاستعداد للغزو.. علم حافظ باتصالات بكر بالشاه الفارسي فعقد اجتماعا حربيا وبينما كانت الاجتماعات مستمرة جاء مندوب الشاه الى حافظ يخبره ان بغداد اصبحت فارسية فرد حافظ ان هذه الارض ليست فارسية ونحن نقوم بتأديب ثائر.. فحاول حافظ ان يستميل بكر قبل فوات الاوان فعرض عليه باشوية الرقة وعلى ابنه سنجق الحلة لكن بكر رفض بشدة ومن اجل منع دخول الفرس الى بغداد رضخ حافظ وقرر ان يمنح حكم ولاية بغداد الى بكر.

كان القرار صائبا من جانب حافظ باشا من اجل عدم التفريط بمستقبل بغداد خاصة وان القوات الفارسية كانت تقترب من الولاية وكان حافظ يعتقد ان بقاء بغداد بيد ثائر متمرد افضل بكثير من سقوطها بيد الفرس ناهيك عن مجيء علي كما نكش لمنصب الصدر الاعظم وكان يكره حافظ ولم يلب له طلباته العسكرية.

ووقع بكر في مأزق كبير بعد انسحاب العثمانيين الى الموصل اذ جاء رسول الشاه يطلب من بكر تسليم بغداد لكن بكر تعامل مع رسول الشاه برقة واعلن انه مستعد لتحمل نفقات الحملة الايرانية وعدم تسليم بغداد .. كان الشاه ينتظر وهو يراقب الاحداث في اطراف بغداد في صيف 1623م.. قام الشاه بفرض الحصار الاقتصادي على المدينة.. حصارا قاسيا آخر عانى منه اهل بغداد .. من جانبه، اعلن بكر رفض مقترح

الشاه بتعيينه باشا على بغداد لقاء اعلان بكر ان بغداد تابعة رسميا للدولة الصفوية وقرر الدفاع عن بغداد حتى الرمق الاخير.. وكتب بكر رسائل الى الباب العالي يطلب المساعدة لكن المسؤولين هناك لم يستجيبوا الى طلباته.. ثلاثة اشهر من الحصار عانته بغداد.. قحط شديد.. غلاء فاحش.. اكلوا الميتة ولحوم الكلاب والحمير والقطط.. وازاء هذه المعاناة القاسية كان انصار بكر يتسللون الى المعسكر الشاه لينجوا بأرواحهم من براثن المجاعة والقحط والموت.. ويقال ان ابن بكر هو الذي مهد للشاه دخول بغداد جراء خيانته وسلم لهم القلعة ويقال ان الشاه وعد محمد بن بكر بولاية بغداد في حال فتحه ابواب المدينة للغزاة.. وهذا ما حصل وتسلل الفرس الى القلعة، ليلاً، اثنين اثنين، فما ان اطل الصباح حتى امتلأت القلعة بالآلاف من الجنود الفرس.. حصل ذلك في 1623/11/28 م.

((لقد قام الجيش الصفوي بقتل كل من يصادفه من اتباع صوباشي.. والاف السكان الابرياء: ويان من سلم من القتل لم يسلم من التعذيب.. ولم يكن الامان الذي اعلنه الشاه الا خدعة.. وان الشاه أمر بالقاضي الى مجلسه وناقشه ببعض المسائل الدينية ثم أمر بقطع رأسه كما أمر بإعدام (ملا علي) أحد كبار العلماء العراقيين في بغداد..)) وبلغ الحقد الطائفي الأعمى عند الشاه الصفوي ان طلب من السيد (دراج) كليدار مشهد الإمام الحسين إعداد قائمة بأسماء المناوئين للحكم الصفوي ليتسنى له تصفيتهم جسدياً.. وتشير المصادر ان السيد دراج لعب دوراً شهما وإنسانيا في تخليص أعداد كبيرة من الأبرياء من براثن هذا الطاغية الحاقد.. وكان مصير بكر انه جئ به مكبلا الى مجلس الشاه الذي كان يضم ابنه محمد وأمر الشاه بسجنه وأخاه عمر ثم إعدامهما وقيل ان الشاه وضعهما في زورق ثم أمر بصب النفط عليهما فاحرقا حالا.. ويسبب حماقة وتعنت بكر صوباشي وطموحاته الشاذة سقطت بغداد فريسة بيد الصفويين ومن هنا اشتعل أوار الحرب بين العثمانيين والفرس من اجل استرجاع بغداد وأهلها.

في 1623/11/28م دخل الغزاة الفرس قلعة بغداد وفي 1623/9/10م اعتلى مراد الرابع العرش.. وكان صبيا لا يتجاوز عمره الثانية عشرة وكانت والدته (كوسه) السلطانة الحقيقية الى عام 1632م عند ما بدأ مراد قادرا على الحكم.. في هذه السنة كان الحكم العثماني يترنح من وطأة الفساد الإداري والاجتماعي وإفلاس الخزينة وانتشار الدسائس بين الطبقة الحاكمة وزيادة نفوذ الانكشارية الذين كانوا يعينون ويعزلون الصدر الأعظم على هواهم وتحول كثير من علماء الدين الذين تستند إليهم السلطة العثمانية الى متسولين.. في ظل هذه الظروف صعد مراد الى سلم الحكم الفعلي.. وكانت الظروف

الدولية لا تقل خطورة عن الظروف الداخلية حيث الثورات المستمرة والتحديات الصليبية التقليدية السابقة.. وللدخول في موضوعنا فورا نقول لقد سبقت حملة مراد الرابع الى بغداد حملات أخرى أهمها: حملة حافظ باشا عام 1625م وحملة خسرو باشا عام 1629م اللتان لم يحققا النصر الحاسم.. ثم جاءت حملة مراد لتحرير بغداد من ايدي الفرس.. في مايس 1638م بدأت الاستعدادات العثمانية لفتح بغداد واخراج العلم السلطاني.. وكانت حملة مراد تختلف عن الحملات السابقة بكونها خضعت لبرنامج خاص حيث قسمت الطريق الى (110) مرحلة وحددت المناطق التي يمر منها السلطان وعندما تحرك موكب السلطان مراد نفسه يرتدي زيا عربيا تشبها بالخلفاء الراشدين.. واستغرق سير الحملة منذ خروجها حتى وصولها بغداد (197) يوما.. كانت بغداد العزيزة في ذلك الوقت، تقع على الجانب الشرقي من نهر دجلة.. مربعة الشكل.. مشيدة من صخور بيضاء واخرى حمراء.. وكانت القلاع والاسوار التي تحيطها تبعث الرعب وأرهبت في نفس كل من ينظر اليها من جوانبها الاربعة.. كان سورها مبني بالآجر ويقطعه خندق عريض عمقه 5-6 قامات، كما يقطعه ابراج كثيرة يقدر عددها بـ (163) برجا.. كان ارتفاع السور في بعض المناطق حوالي (60) ذراعا اما عرضه من الاعلى فيصل احيانا (10) اذرع.. وابواب بغداد في تلك الحقبة الحاسمة هي: باب الامام الاعظم وباب الظلام في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة والباب الابيض في الجهة الشرقية وباب الطلسم وباب الجسر.. ولسنا في مجال الاستطراد حول حملة مراد الرابع.. المهم ان الحامية الفارسية استسلمت للسلطان وكان عددها عند طلب الامان (20) الف جندي فارسي لكن حصل ان انفجر مخزن للبارود بسبب الحريق في القلعة فأدى الى هلاك (800) جندي عثماني واتهم الفرس بتدبير الحادث فأمر السلطان مراد بقتل عام للفرس داخل بغداد او خارجها وحدثت مجزرة كبيرة امتلأت شوارع بغداد بالجثث وقدر القتلى بالآلاف.. واستقرت بغداد بيد العثمانيين الى قيام الحرب العالمية الأولى واحتلال المستعمرين الإنكليز لها عام 1917م.

تعتبر الفترة من 1638م الى 1704م هي الفوضى بعينها.. اذ حكم بغداد كوجك حسن باشا او حسن الصغير في حياة مراد الرابع عند وجوده في بغداد وكانت اسوار المدينة قد خرجت بفعل المدفعية العثمانية وكان هم الوالي الجديد ترميم الاسوار واعادة السكان الى بغداد من اطرافها بسبب فزعهم ولم يمض طويلا في الولاية اذ عزل عام في 1639/5/4م وجاء محله درويش محمد باشا ورغم ذكائه الذي عرف به لكنه كان قاسيا لا يعرف العفو ولا الرأفة وفي زمانه ثار العراقيون في منطقة السماوة اذ قام امير

الخزاعل مهنا بن علي بفرض سيطرته على السماوة واطرافها الى منطقة القرنة.. جاء حسن الصغير واليا مرة ثانية عام 1642م ثم حكم بغداد بعده واليا عرف بأسم حسين باشا دللي أي حسين المجنون وكان مرافقا لمراد الرابع عرف عنه مزاجه المتقلب، عصبيا جدا وكان يطوف متنكرا في الليل وعزل عام 1644م وخلفه محمد باشا آل حيدر الذي عزل هو الآخر عام 1646م وعين ابراهيم باشا ماليا جديدا وفي زمنه حدثت معارك عنيفة بين القوات المحلية والجيش الانكشاري وكان هذا الاخير لا ينصاع لاوامر الوالي وكان قادة الانكشاريين ناقمين عليه ويتهمونه بتبذير الاموال على القوات المحلية وعندما تناهي الى ابراهيم بأمر عزله في الباب العالي قرر التمرد وهنا وقع في الفخ الذي نصبه له احمد آغا التنجي رئيس الانكشارية اذ جاء واعلمه ان الانكشارية يتهمونه بالاستبداد في حكم بغداد فأنكر الوالي فطلب احمد اغا منه الذهاب معه الى القلعة ليفهم الانكشارية بذلك فتوجه الوالي الى القلعة وعند دخوله القي القبض عليه وكان مندوب الباب العالي في بغداد يحمل معه فرمان إعدام الوالي ونفذ به حكم الإعدام ودفن في مقبرة الإمام الأعظم.

عين موسى باشا السمين واليا خلفا له وكان بدينا جداً وأول عمل قام به انتقامه ممن يشك بولائه له او يشك فيه بأنه من أنصار الوالي المعدوم.. وأضطر الكثير من اهل بغداد للهرب الى أطرافها خشية الاتهام او يصيبهم غضب الوالي البدين، العصبي المزاج.. واستمر الوالي يتهم الناس حتى شكوه الى الباب العالي الذي شكل لجنة تحقيقية وعند ما ثبت صحة شكوى الناس استدعي الوالي الى الباب العالي ونفذ به حكم الاعدام عام 1648م فخلفه احمد باشا الذي لقب بـ(الملك) لسلوكه الطيب وزهده وحسن معاملته للناس وللفقراء خاصة ويذكر مرتضى نظمي الذي عاصره انه شاهد بعينيه الوالي يصلي صلاة الجنازة على عامل فقير سقط عليه الجدار فمات وسمعه يقول: لقد مات شهيداً لان وفاته كانت عن طريق الكسب واكاسب حبيب الله.. ارتقى احمد باشا الصدارة العظمى وترك بغداد عام 1650م وجاء الى الولاية ارسلان باشا نغاى زادة ودام حكمه ستة اشهر بسبب موته بمرض الزحار ولم يكن خلفه حسين باشا اوفر حظا منه اذ مات في نفس المرض بعد ستة اشهر من ولايته.

ذكر الرحالة الفرنسي (تا فرينيه) في عهد الوالي قره مصطفى باشا الذي قدر له ان يحكم بغداد ثلاث مرات: ان المدينة ساذجة البناء، لا جمال فيها، اللهم الا اذا استثنينا اسواقها المسقفة، وفيها خمسة جوامع وعشرة خانات، بناءها قديم عدا اثنين منها ينال المسافرون فيها قسطا من الراحة ويقدر سكانها بـ(15) الف.. رغم ان الوثائق العثمانية

تقدر نفوس بغداد ما بين سنة 1570-1590م بـ(379 / 39) الف مسلم عدا البدو والرحل والمسيحيين واليهود.. ولا عجب في ذلك اذا ما تضاءل هذا العدد فالحروب التي عاشتها بغداد بين الجيوش العثمانية والصفوية خلال النصف الاول من القرن السابع عشر والكوارث الطبيعية التي حلت بهم اضافة الى ظلم الولاة كانت اسباب لتضاءل أعدادهم.

في عام 1653م جاء الى حكم بغداد مرتضى باشا وكان مشهوراً بنزعته الإسلامية وحبه وإطعامه للفقراء وتواضعه مع الناس حتى ان اهل بغداد قدسوه، احاطوه بهالة من التقديس وأشيعت روايات كثيرة عن تواضعه وانتهى حكمه عام 1655م فجاء بعده آق محمد باشا وكان مريضاً طوال مدة حكمه غير قادر على امور الولاية فتمرد عليه الانكشارية لكن آق تمكن من استدراج قائدهم المدعو عبدي الى مجلسه بحجة مصالحته وعند جلوسه أمر جلاده بقطع رأسه لكن الانكشارية تصدوا للوالي ذات يوم جمعة وحاولوا اغتياله لكنهم فشلوا وتصادف ذلك مع مجيء المبعوث السلطاني للاطلاع على أحوال الولاية فكتب عن اضطراب الأوضاع للسلطان محمد الرابع فاصدر فرمانا خوله إعادة الأوضاع الى مجراها وعزل آق محمد (محمد الابيض) وجاء المبعوث ويدعى الخاصكي حسين اغا الى الحكم عام 1656م الذي شهد عهده اضطرابا دمويا بين الانكشارية اضطرته للهرب الى الكاظمية وحدوث فيضان مدمر في بغداد اغرقها وهدم ابراجها وتلاه في الحكم مرتضى باشا عام 1659م الذي اجرى اصطلاحات مالية وطهر نهر الدجيل لكنه اثقل كاهل الناس بالضرائب لانه تعهد عند استلامه لولاية بغداد ان يدفع للباب العالي (200) كيس من الذهب لكنه لم يستطع رغم إلغائه للمخصصات السنوية التي كان يتقضاها الموظفون البالغة اكثر من (100) كيس وكان لا ينفك من ارسال الهدايا الى كبار رجال الدولة في العاصمة لكي يبقى في منصبه لكنه عزل في عام 1661م فرفض الإذعان للأمر وهرب الى صديقه حاكم العمادية وفي الطريق القي القبض عليه واعدمه السلطان في الموصل.

ثم حكم بغداد مصطفى باشا قنبور (الاحدب) الذي عزل عام 1663م فخلفه مصطفى باشا بمبوغ (القطان) الذي مات بمرض المغص او القولون وجاء بعده قره مصطفى باشا وفي عهده زار بغداد الرحالة الفرنسي (ثيفنوت) الذي اثار انتباهه وجود كثير من النصارى في خدمة السلطان (؟) ومر على بغداد سلسلة من الولاة الذين لا يستحقون الذكر عدا عمر باشا الذي جاء الى حكم بغداد عام 1678م الذي بنى المدرسة العمرية ورمم بعض المساجد ثم حكم بغداد عام 1681م الوزير ابراهيم باشا الذي كسر

شوكة الانكشارية ونفى فرقة (اليساقجية) من بغداد وكانت هذه الفرقة تتواجد في القلاع لحفظ الامن والنظام مقابل نقود تتسلمها من الأهالي.

عانت بغداد كثيرا من سرعة تنقل الولاة ومن أمراض الطاعون والفيضانات المدمرة والحروب التي أفضت الى مصرع الآلاف من البغداديين.

ثم عاشت بغداد عهدا جديدا تميز بالصرامة خلال الفترة 1704م _ 1747م، وحكم في هذه الفترة حسن باشا (1704م _ 1723م) وقد امضى عشرين سنة في الحكم بواسطة استخدام المرتزقة من المماليك للسيطرة على النظام والأمن وهو الذي ابتدأ بهم النظام المملوكي الذي استمر حتى سنة 1831م ثم جاء احمد باشا (1723م _ 1747م) وشهدت فترة حكمه حروبا دامية مع الفرس على الساحة العراقية.. وجاء سليمان واليا جديدا سنة 1749م وبه ابتدأ رسمياً حكم المماليك في العراق.

عانت بغداد كثيرا من نتائج الحروب العثمانية- الفارسية، وقد امضى اهل بغداد اياما في معاناة شديدة بسبب المجاعة القاتلة التي كانت تجتاحهم في كل حرب ودمار.. وعندما فرض نادر شاه حصاره القاسي الذي أشرنا اليه في الصفحات اللاحقة انتقل سكان بغداد الى الرصافة وتسبب هذا الانتقال هلاك الكثير من البغداديين خاصة الشيوخ والنساء والاطفال وعمت المجاعة كل المدينة حتى اضطر الناس الى تناول الحيوانات الميتة وشرب دمائها ومضغ جلودها ويروى الشيخ عبد الرحمن السويدي وهو شاهد عيان لتلك الايام السود، انه اثناء خروجه من المسجد الكيلاني يوم الجمعة متجها الى منزله شاهد في طريقه امرأة جميلة منكبة على جيفة حمار وبيدها سكين تقطع من لحمها وتضعه في حجرها وان الناس في بغداد الذين كانوا لا يرضون بالرز اصبحوا متلهفين للحصول على حبة الذخن كما يقول ميرزا مهدي وهو معاصر لتلك الاحداث.. سبعة اشهر من الحصار الظالم لم يمكن نادر من إمساك بغداد.

الفصل الرابع

الطاغية في التاريخ العربي (الإسلامي)، مسالة في غاية التعقيد والطاغية الأموي او العباسي هما صورة ذلك الوحش القاسي العابث.. والرياسة عند العربي، ممارسة وطموح.. غاية وشكلية باهرة.. والعربي يتنافس ويتقاتل مع أبيه وأخيه او كبير عشيرته إذا تهدد أمر رياسته.. وانه قلماً يسلم واحد منهم الأمر لغيره.. لذا نجد تعدد الحكام والأمراء في فترات من مسار التاريخ.. ويقول ابن خلدون: ان العرب اصعب الامم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمناسفة.. وفي نفس الوقت يثور العربي على كل سلطة تحاول ان تحد من (وجاهته).. وشعار العربي: الامارة ولو على حجارة.

والطاغية في طباعه ومزاجه هو ذاته.. عصبي المزاج، سريع الغضب، يهيج للشيء التافه ويحتكم للدم اذا اهتاج.. غير راض عن شيء.. قاس ود موى النزعة.. يفتك بغريمه حالما يقتنص الفرصة.. يوصف العراقي بكونه مخلوقاً متذبذبا،غير راض عن ((دولته)) وحاكمه.. هو عند اكثر الباحثين يمثل (طقس) بلده افضل تمثيل.. حر وبرد وغبار ورياح ومطر وشمس باهرة، قد يجتمع هذا كله في نهار واحد في بلد مثل العراق.. لكن العراقي منذ نشأته يحرص على سمعته الحسنة والصيت الطيب والتعلق بالشرف والتمسك بطيب النسب ويحتقر العار ويحزن للمهانة اذا لم يقدر على ردها .. والعراقي لم ينجو من اذى الطغاة عبر تاريخه الطويل.. ويعرف ان تذمره وبؤسه وفقره ومهانته تأتي من قبل الحاكم الطاغيه.. أن العراقيين كثيراً ماشبهوا طغاتهم بالحمير والخنازير والثيران.. وطعنوا بأنسابهم..

يأبن الدجاجة كل الناس كان لها ديكاً فأنت أبن من حتى أناديكا؟

والدجاجة في هذا التعبير، هي ام الطاغية.. المرأة السافلة الداعرة التي انجبت الرجل الشرير..

والشعراء أدوا دوراً ممتازاً في فضح الطغاة وهجوهم.. فهذا عتبة الاسدي يهجو معاوية ويتهمه بالشره في جمع المال وأفساد الناس:

معاوية أننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد

أكلتم أرضنا وجذذتمونا فهل من قائم أو من حصيد

فهبنا امة هلكت ضياعاً ((يزيد)) أميرها و ((أبو يزيد))

أتطمع بالخلود أذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود

والعراقي كان يلح بمطالبه السياسية وبحقوقه ومساواته وكان يحز في قلبه أن يجد الارذال والعبيد والجبناء هم المتحكمين بأقداره.. وهو لايرتضى الذل والانقياد والضياع ويحتقر (الحاكم) المتهالك على الدنيا والجشع والمال والغرور والرياء والرياء والخداع وأعتماد الاقوال وليس الافعال.. والعراقي يحترم الحاكم - الطاغية الذي (يعرف) بعفته وانفته من جمع المال او تقريب افراد عائلته أوعشيرته.. وفي التاريخ أمثلة كثيرة من هذا النوع.. والعراقيون يحتقرون حكامهم الذين يتعمدون أفقارهم وتجويعهم بينما يجدون أقارب وأعوان الطاغية يسمنون.. ان تذمر العراقي من سياسة حكامه مرده القمع الذي مورس ضدهم لسنوات طويلة جداً وهذا دليل على الشكوى الدائمة للعراقيين من السياسة الجائرة التي نهجها طغاتهم..

وهكذا نجد (الهجاء) العراقي في العصور الاسلامية يتخذ أشكالاً مختلفة.. فالشيعة العراقيون أمتزج هجاءهم بالبكاء والحزن.. والعراقيون الخوارج ضج هجاءهم بالحماسة والفداء.. من الطبيعي أن يتقزز العراقي من مظاهر البذخ والانفاق بغير عدل.. التقزز من (حكام مسلمين) غرقوا في الترف والفساد والرشوة والظلم.. وفي (العصر الذهبي) للرشيد والخلافة العباسية قال أبو العتاهية ما لم يقله (شاعر رسمي) بالاسعار الجنونية في بغداد وتفسح الحياة الاجتماعية

واحوال الفقراء واليتامى والارامل والجائعون والبطون الفارغة والأجسام العارية اضافة الى الفساد الفكرى والاجتماعي من زندقة ومجون بينما الحكام ضائعون بين الزق والعود... الشعب يتضور جوعاً والحكام يعيشون حياة لا تشرفهم..

اكثر طغاة العراق، لا يملكون ادبا او حسبا ولا عهودا ولا ذمما فكل ارض وطئها الطاغية احس العراقي بأنه غريب عنها .. غريب الوجه واليد واللسان..

وكان الحكام والامراء، في فترة من الظلم السياسي، ينفقون بلا تعقل، فقد سكن الخلفاء والأمراء واقاربهم واولادهم وعشيرهم في القصور الباذخة وتملكو مساحات كبيرة من الاراضي بينما لا نجد بيتا للفقراء يأوون اليه ويسكنون عنده فقام ترف لاحد له وفقر لاحد له ونشأ من ذلك التذمر وامراض اجتماعية خطيرة مثل الحسد والكذب والخديعة والنفاق.. وسادت البلاده لذائذ بهيمية ضاعت معها الاعراض وسقطت الاخلاق والقيم..

وكفر الشعب بـ(حكوماته) و(حكامه).. لقد كان العراقي يدرك ان فساد مجتمعه هو بفساد الحاكم.. من هنا احتقر ونبذ الحاكم المفسد.. وكان الحكام المفسدون بدورهم حائرون بـ(افكار) العراقي ويتهمونه بنعوت شتى.. بقلة الوفاء والتقلب والنفاق.. الخ

في حياة كل طاغية، قبل بزوغ نجمه، حادث حاسم يغير مجرى حياته في توجيه مصيره.. ومن زمان ليس قديماً جداً، سمعنا وقرأنا، رواية معاوية للحديث النبوي الشريف الذي تنبأ بمصير معاوية كحاكم للمستقبل وان معظم طغاة العباسيين الأوائل عاشوا في خدر لذيذ مؤداه: ان رسالتهم هي ﴿المهدى﴾ المنتظر وان روايات كثيرة عن الحجاج تفيد أن الرجل هيأ نفسه للسلطة.. وفي التاريخ الحديث للعراق طغاة رووا بأنفسهم كيف أنهم خططوا لمستقبلهم السياسي منذ الطفولة، وعبد الكريم قاسم روى ذلك في مناسبات كثيرة. في حياة الطاغية لا خمر ولا ثأر، قبل أن يكون.. انما رحلة شاقة ومتعبة ومعقدة وصبر لا يطاق من أجل الحكم، وهناك حد فاصل، في حياة الطاغية، بين شطرين من هذه الحياة المعقدة، انسانا عادياً طموحاً يضمر أسراره في صدره، وسياسياً قاسياً.. شطران مختلفان شتان ما بينهما.

لا يمكن للطاغية أن يقود بلده الا اذا مزق النسيج الاجتماعي لشعبه.. هذا النسيج الدقيق الذي أخترقه الطاغية في غفلة من الزمن والناس.. والطاغية يقصد بذلك تدمير البنى الاخلاقية والحقوقية للشعب حتى يمكن من نفسه السيطرة التامة على مقاليد الامور ومجريات الحياة.. وفي عهد الطاغية لامعنى على الاطلاق لكلمات مثل الادب والفن والثقافة - هذا في العصر الحديث- ناهيك عن (مساومة) الطغاة القدامى مع قيم مجتمعاتهم في ذلك الوقت.. الثقافة ؟ لاقيمة لها الا أذا وظفت لخدمة الطاغية..

الادب والفن ؟ لامعنى لهما على الاطلاق الا اذا تمرغ الاديب والفنان على أعتاب ذووي البطش والقوة.. العلم ؟ لا احترام للعالم ما لم يخضع لهيمنة السلطان وأهدافه.. الكفاءة والذكاء؟؟ ماذا يجديان في عالم الطاغية الاسن المملوء بالانتهازيين والمنافقين والمساومين والمزايدين في دنيا الطغاة، تكون الغلبة لاصحاب المكر والكذابين والمتلونين والمزيفين والادعياء والمرائين..

نجد في فترة هيمنة الطاغية، تراجعاً واضحاً للقيم النبيلة والشريفة.. تراجع واندحار واضحين لاصحاب المبادئ الذين يفضلون العزلة على خوض معترك مستنقع الفساد.. في اجواء الطاغية، البقاء لمن يملك ويجيد استخدام المكر والمداهنة ولؤم النفاق..

ان المأساة تبلغ ذروتها حين يقرر المثقف أعتزال الحياة..

وهكذا فعل في الماضي، أبو العلاء المعرى، عندما أجمع أمره على العزلة بعد زيارته لبغداد سنة 399.. لقد ((بلغت المأساة ذروتها قبل أن يحمل أشلاء شبابه المقهور ورجائه الضائع وقلبه الكسير ليعود من حيث أتى الى محبسه في معرة النعمان..)) على حد تعبير بنت الشاطئ.

تحدى المعرى، زيف الطغاة ومجتمعهم المنخور الذى (صنعوه) وغادر بغداد ليرجع الى ذاته.. تعففاً وأدباً وصدقاً لمبادئه.. لقد أحب بغداد.. لكنه لم يحب (قيم) بغداد السائدة.. هذه القيم التى صنعتها السلطات المطلقة للطاغية العراقي في ذلك الوقت.. حصل الانقلاب النفسي والاخلاقي في حياة المعري ببغداد وهو في العشرينات من عمره ترى كيف كانت بغداد لما رفضها المعرى؟؟

ماذا صنع باهلها الطغاة حتى أشمئز المعري منها ؟؟

تقول (بنت الشاطئ): لقد عرفها غادرة، خادعة، لئيمة، قاسية، بالية فانية..

هذه إذا، بغداد، ودائماً.. في عصر اي طاغية..

ولان بغداد، هي الحياة.. فلا معنى للحياة في ظل الطاغية الذي زرع الجدب والهشيم والغدر واللؤم والخداع والقسوة والبلى والفناء في النفوس والارواح..

لا يدري الطاغية وهو يصنع بيديه عجينة التفسخ في حياته وحياة مجتمعه، ان مبصرين واحرارا ونبلاء قد وجدوا أنفسهم.. اكتشفوا ذواتهم.. وهؤلاء هم ورثة (بقايا) الطاغية.. هذه البقايا التي تتحول تدريجياً الى أحلام ثم الى آفاق رحبة للنمو والتطور.

الاسلام لم يختص بالعرب وحدهم رغم أن النبي ﷺ كان عربياً ولم يدع الى عصبية بل الى هداية الناس جميعاً باختلاف الوانهم واجناسهم الا أن الامويين جعلوا الحكم (عرقياً) مقيتاً لا حباً بالعرب وانما حباً ببعض القبائل العربية التي ساندت حكمهم.. لم يخرج المسلمون الاوائل في عهد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعلي عن الاداب القتالية في الفتوح، سواء داخل الجزيرة أو خارج حدودها. لا أعتقد أن ظهور ما يسمى بالحركات الهدامة في التاريخ الاسلامي يرجع الى ذلك السبب المبسط الذي روج له مئات السنين، باعتبار ان أصحاب وأعوان هذه الحركات هم أصحاب معتقدات مختلفة دعتهم الى رفض العقيدة الاسلامية الجديدة او كما ردد البعض (أبن حزم مثلا) بان الفرس أكثر هذه الطوائف خروجاً عن الاسلام لانهم كانوا قبل الاسلام أكثر الامم علوا فلما زالت دولتهم على أيدي العرب الذين كانوا أقل الامم خطراً عند الفرس تضاعفت لديهم المصيبة

فحاربوا الاسلام بشتى الطرق.. وظهر بينهم المقنع وبابك.. واستمالوا أهل التشيع واظهار محبتهم لاهل بيت رسول الله ﷺ العنف الشديد الذي لجأ اليه الامويين في دعم سلطانهم وتثبيت أركان دولتهم واعتمادهم على بعض القبائل العربية واحتقارهم للشعوب الاسلامية الاخرى التي رأت في أحقية أهل بيت رسول الله بالحكم قبل غيرهم وليكن بني أمية.. طلقاء مكة.. وقد وجد الامويين في محاربة خصومهم إلصاق تهم الزندقة والالحاد والافتراء بهم غير مبالين بردود الافعال ماداموا قد استخدموا المال والسيف في اخراس اية معارضة سواء كانت عربية المنبت او اعجمية.. قادتها من العرب او من الاعاجم هذه الحركات التي نبتت في أرض الاستبداد الاموي والظروف القاسية التي مر بها المسلمون في عهد بني أمية أو حتى في أوج ازدهار الدولة العباسية.. لقد طالبوا بالمساواة السياسية وحاربوا السلطة بشعار الامامة ومساواة جميع المسلمين في الحقوق والواجبات والعدالة وتنظيم الزكاة والغنائم والجزية والخراج وكيفية أنفاقها وجبايتها ولذلك من الممكن ان نتصور الخلاف العميق بينهم وبين السلطة الحاكمة التي رأت فيهم (منافساً) خطيراً.. لا نريد الخوض في عقائد البعض وهي بلا شك نتيجة حتمية للتطور الفكري للاسلام غير التقليدي.. ولا يمكن تخيل تطوراً (فكرياً إسلاميا) في ظل الاسلام (الاموي) الحاكم..

من مميزات عمل هذه الحركات السرية انها اعتمدت السرية التامة في عملها واعداد الدعاة والمدارس والكتب ضد النظام السياسي القائم وقتذاك.. ومن الطريف ان الراوندية وهي من فرق الغلاة اظهروا للناس انهم يعبدون ابو جعفر المنصور وزعموا انه: إلههم وتطرف البعض منهم ورمى بنفسه من قبة قصر المنصور كانهم يطيرون فماتوا.. وليس هناك شك ان المنصور لم يعارض هذه الطائفة في بداية الامر لاسباب سياسية ذلك ان الراوندية نشأت في خراسان، قلعة العباسيين في بداية دعوتهم، ولما حاول هؤلاء اغتيال المنصور تعرضوا الى القمع.. وكان زعيمهم عبد الله الراوندي داعي الدعاة العباسيين في خراسان.. ويقال ان الراوندية اختلفوا مع المنصور بعد قيام الاخير بقتل ابو مسلم الخرساني.. وكانوا يطالبون بالثأر له..

لسنا في مجال الخوض في طبيعة هذه الحركات التي حوربت بقسوة وتحت (اغطية) مختلفة (دبرتها) السلطات وقتذاك لكننا ندري ان معظم هذه الحركات كانت ذات طبيعة ثورية تستهدف ازالة الطغيان العباسي واستبداد حكام بني العباس ولم يكن أمام طغاة بني العباس سوى الصاق تهم الالحاد والفسق بسمعة هذه الحركات.

من الامور التي يجب الاشارة اليها ان الراوندية خرجوا على المنصور في الهاشمية، وفي هذه المدينة حاولوا اغتياله لذا امر المنصور ببناء بغداد لانه كره السكن في الهاشمية.. وقيل

ان أنصار الراوندية حاصروا المنصور وهم يومئذ (600) رجل واغلقوا أبواب المدينة واطلقوا سراح السجناء وأضطر المنصور للهرب ماشياً على قدميه ولم يكن في قصره دابة ومنذ تلك الحادثة امر المنصور ان تربط فرساً في دار الخلافة معه في قصره.

ليس اشد على النفس وانقباضها من ان يزج المثقف في دهليز مظلم من دهاليز الطغاة.. مثقفون وشخصيات، صعاليك وبسطاء، اصحاب فكر ومذاهب مختلفة، عاشوا محنة السجن والاضطهاد.. وفي التاريخ الادبي تراجم عديدة لطائفة كبيرة من الشعراء والكتاب والادباء عاشوا بين جدران السجون ونالوا (حصتهم) من قسوة الطاغية..

متى أنشأ أول سجن ؟ كيف (تبلورت) فكرة انشاء السجون ووو.. اسئلة أخرى كثيرة..

تعقيدات السلطة الشرقية واستبداديتها هي التي بلورت فكرة السجن رغم أنها منتزعة من صميم الحياة الاجتماعية وملابساتها ومع نشوء الاجيال تضخمت (ظاهرة) السجن.. يذكر السيد عبد العزيز الحلفي مؤلف كتاب (ادباء السجون): (ولعل اول من سبق الى تشغيل السجناء وتصنيعهم هم العرب في العصر العباسي..).

يقول (عبد الله بن المعتز) في سجنه:

تعلمت في السجن نسج التكك وكنت امرأ قبل حبسي ملك

عرف العرب بالسجون منذ العصر الجاهلي.. هناك سجون المناذرة.. (فلما كان زمان علي عليه السلام احدث السجن فكان اول من احدثه في الاسلام وقد جعله اولا من قصب وسماه "نافعاً" فنقبه بعض اللصوص فبنى اخر وسماه "مخيساً" وفيه يقول الامام علي:

أما تراني كيساً مكيساً بنيت بعد نافع مخيساً

بباباً حصيناً وأميناً كيساً

والنبي يوسف قال عن السجون، اذ كتب ذلك بخطه على باب السجن: (هذه منازل البلوى، وقبور الاحياء، وشماتة الاعداء، وتجربة الاصدقاء).

اذا فالسجن واغل في تاريخ العراقيين ومنبثق من حياتهم السياسية والاجتماعية.. وفي العصر الحديث نسمع كثيراً المثل العراقي الشهير: السجن للرجال ؟

❖❖اتجاهات وممارسات الدولة الاموية كانت مفاجاة للعرب والمسلمين، اذ سار بني امية على ضوء سياسة غير مألوفة في تاريخ الاسلام وظهرت، لاول مرة، مظاهر الارهاب والقسوة والقتل.. اشاعوا الخوف والارهاب بين الناس.. وامتلأت سجونهم بالمعارضين

من الشيعة والخوارج والمناوئين لآل ابي سفيان ومن ابرز (ضحايا) معاوية كان عبد الله بن هاشم الزهري من شعراء العراق وخطبائهم وفرسانهم يوم حطين، أخذ اللواء حين قتل ابوه هاشم في المعركة، وظفر به معاوية وحاوره امام عمرو بن العاص، وهذا الاخير اقترح قتله مبرراً ذلك بقوله: (لاترده الى اهل العراق، فأنه لا يصبر على النفاق، وهم أهل غدر وشقاق، وحزب ابليس ليوم هيجانه..) فقال عبد الله له: (ياعمرو أنا قد بلوناك ومقالتك، فوجدنا لسانك كذوباً، غادراً..). وهناك صعصعة العبدي الذي رماه معاوية في السجن وقيل ان معاوية دخل عليه وأصحابه في السجن وسألهم: أي الخلفاء رأيتموني ؟ فأجابه عبد الله بن الكواء وكان سجيناً مع العبدي: لولا أنك عزمت علينا ما قلنا لانك جبار عنيد، لا تراقب الله في قتل الاخيار، ولكننا نقول: أنك ما علمنا واسع الدنيا، ضيق الاخرة، قريب الثرى بعيد المرعى، تجعل الظلمات نوراً والنور ظلمات. فقال معاوية مغالطاً الحقيقة: ان الله اكرم هذا الامر باهل الشام الذابين عن بيضته التاركين لمحارمه ولم يكونوا كامثال اهل العراق المنتهكين لمحارم الله المحلين ما حرم الله والمحرمين ما أحل الله.. ورد عليه صعصعة: انى يكون الخليفة من ملك الناس قهراً، ودانهم كبراً، واستولى بأسباب الباطل كذباً ومكراً.. وهناك أسماء كثيرة غيبها السجن في عهود حكام بني أمية..

كان معاوية قاسياً في تعامله مع سجنائه.. ويذكر أنه سجن السيدة آمنة بنت الشريد الثقفية، زوج عمرو بن الحمق الصحابي الجليل الذي شهد بدراً وسقى النبي ﷺ لبناً فقال: اللهم امتعه بشبابه.. فعمر ثمانون سنة ولم ير شعرة بيضاء وشهد مع علي حروبه وقيل ان عبد الرحمن الثقفي احد انصار معاوية في الموصل قتله وأرسل برأسه الى معاوية وقيل أنه مات اثر لدغة حية لكن الرواية التي بين ايدينا تؤكد ان معاوية قتله وأرسل رأسه الى زوجه السيدة آمنة وكان معاوية قد سجنها في دمشق سنتين قبل مصرع زوجها.. وأوصى معاوية حامل الرأس ان ينقل اليه نص تعليق آمنة: احفظ ما تتكلم به واطرح الرأس في حجرها.. وفعل الحارس بوصية معاوية، فرمى رأس زوجها في حجرها فارتاعت له ساعة ثم وضعت يدها على رأسها وقالت: وآحزناه.. نفيتموه عني طويلا واهديتموه الي قتيلا فاهلا وسهلا بمن كنت له غير قالية وأنا له اليوم غير ناسية أرجع به ايها الرسول الى معاوية فقل له ولاتطوه دونه: ايتم الله ولدك واوحش منك اهلك ولاغفر لك ذنبك.. فاخبره الرسول فارسل اليها فاتته وكان عند تجمع من اعوانه بينهم اياس بن حسل وكان في شدقيه نتوء عن فيه لعظم كان في لسانه وثقل اذا تكلم:

معاوية: أأنت ياعدوة الله صاحبة الكلام الذي بلغني ؟

آمنة: نعم غير نازعة عنه ولامعتذرة منه ولامنكرة له..

فقال اياس: اقتل هذه ياامير المومنين فوالله ماكان زوجها باحق منها بالقتل.

التفت اليه فلما رأته ناتئ الشدقين ثقيل اللسان قالت: تباً لك ويلك بين لحيتك كجثمان الضفدع.. فضحك معاوية وامر باخراجها من الشام.. فخرجت تريد الجزيرة فمرت بحمص فقتلها الطاعون.

للطغاة، تصرفات وعلامات غريبة ومدهشة في آن واحد.. وقد جعلها البعض من (آداب) مخاطبة الملوك والخلفاء الامويين والعباسيين وهي في الحقيقة ذلك البروتوكول الصارم القاسي الذي يجب التقيد والانقياد اليه في كل الاوقات والمواقف..

❖❖قال زياد بن ابيه: لايسلم على قادم بين يدي امير المؤمنين

❖❖قال يحيى البرمكي: مساءلة الملوك عن حالها من سجية النوكي (الاحمق).. ان الملوك لا تسأل ولا تشمت ولا تكيف..

❖❖قال اصحاب معاوية له: ربما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك فاجعل لنا علامة نعرف بها ذلك فقال: علامة ذلك ان اقول: اذا شئتم.

وقيل ليزيد فقال: اذا قلت على بركة الله.

وقيل لعبد الملك بن مروان فقال: اذا وضعت الخيزرانة من يدي.

ومن الاقوال الشائعة عن معن بن زائدة لهارون الرشيد الذي لخص فيها دور الحاكم في اصلاح الامة أو في افسادها: يا أمير المؤمنين انت الزمان فان صلحت صلح الزمان وان فسدت فسد الزمان.

وامر بعض الخلفاء _ كما يروى بن عبد ربه في العقد الفريد _ رجلاً بامر فقال: انا اطوع لك من الرداء واذل من الحذاء.. هذا قاله الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك الزيات.

وقال آخر: اطوع لك من يدك واذل لك من نعالك.

هناك عشرات الاقوال والمواقف التي تظهر تزلف الحاشية للطاغية وبطانته..

ان العراقيين لم يجنوا من الصراع الشعوبي أي ثمار رغم استخدام التاريخ والاداب واللغة والحديث اسلحة رهيبة في الصراع واختلق الدس والتشهير للحطمن منزلة العرب الاقدمين والشك في نقاوة دمائهم.

ولقد استخدمت السلطات الحاكمة هذا المنحى لتطهير صفوفها من المعارضة. يجب عدم الخلط بين الشعوبيين والغلاة المتزمتين من غير العرب لغرض عدم تشويه جوهر الصراع السياسي والفكري الذي اندلع ابان تلك الفترة.

الدكتور عبد العزيز الدوري ينفي نفياً قاطعاً اكساب الشعوبية اية صفة طبقية او حصرها في فئة اجتماعية معينة وان الشعوبية تتصف بالشمول فهي واحدة لدى كل الطبقات. وانها نشأت بدافع ضرب السلطان العربي عن طريق الفكر والعقيدة.

هناك حقيقة لا يمكن اغفالها وهي ان الامويين زرعوا بذرة الشعوبية بأنفسهم من خلال استبدادهم وتعاليهم على المسلمين من غير العرب. ذكر ابن عبد ربه صوراً من تحقير المتعصبين للمولى: انهم كانوا يقولون لا يقطع الصلاة الا ثلاثة: حماراً او مولى وكانوا لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب.. وكان الحجاج يحتقر الفلاحين العراقيين من العرب والموالي لمساهماتهم المتعددة في الثورات والانتفاضات ضد حكم بني أمية وكان يقول عن الموالي: انتم علوج وعجم وقراكم اولى بكم ففرقهم وفض جمعهم كيف احب وسيرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه اليها.

لقد كان اغلب ابناء البلدان المفتوحة مستغلين ومحرومين وحتى من اسلم منهم ظل محروماً من الامتيازات التي يتمتع بها العنصر العربي الحاكم.. والواقع ان الاقوام غير العربية ليست وحدها عانت هذا الجور فهناك اقسام كبيرة من العرب انفسهم عانوا الظلم وعدم المساواة والحرمان من تقلد الوظائف في الادارة والجيش.. قال ابو الصيداء صالح بن طريف -كما يروى الطبري- لعمر بن عبد العزيز: عشرون الفاً من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق ومثلهم قد اسلموا من اهل الذمة يؤخذون بالخراج.

الغريب ان مصطلح الشعوبية اخذ يلصق في الفترة الاخيرة بالحركات والمنظمات التقدمية والقومية والوطنية عند تبنيها نهجاً آخرا لدراسة التاريخ العربي والاسلامي..

الدولة سلطان: تحيا به السنة

السنة سياسة: يسوسها الملك

الملك راع: يعضده الجيش

الجيش اعوان: يكفلهم المال

المال رزق: تجمعه الرعية

الرعية عبيد: يتعبدهم العدل

العدل مألوف: وهو حياة العالم

العالم بستان: سياجه الدولة

الدولة سلطان ووو.. هكذا تستمر دائرة مغلقة محكمة عنيفة قوية صارمة من قبضة الحكم كما صورها المرادي ابو بكر القرواني في كتابه (الاشارة الى اداب الامارة) وهذا الكتاب يعتبر من المختصرات في السياسة وهو نموذج مثالي للجنس الادبي المسمى: مرايا الامراء.. والمرادى اراد بذلك الكتاب تعليم صغار الامراء الاداب والحكمة وادب السلطان ورسومه.. ويفترض المرادى شأنه في ذلك شان الكثيرين من المؤلفين الكلاسيكيين بان الحاكم (رجل واحد).. والحكم والسياسة من تدبير هذا الرجل الواحد، من تدبير نفسه.. وارسطو قال في السابق من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجند ومن كانت له ضيعة فاحسن تدبيرها فوله الخراج.. لذلك كان النجاح الشخصي ضرورياً للوصول الى السلطة.. هذه النظرة قديمة، ترجع الى عهد افلاطون، اذان اعتماد التدبير في الملك يعني الدولة اولا والحاكم ثانياً.. هولاء الكتاب الذين تصوروا ان نصائحهم الثمينة ستجعل الحاكم (يعي) قيمة العدل، تلك القيمة الاسلامية الكبرى، لم ينجحوا في الارشاد السياسي ولم يتمكنوا من اكتشاف (سر الاسرار) الذي يعني حاكماً عادلاً.. كتب ارسطو للاسكندر قائلا: العالم بستان سياجه الدولة الدولة سلطان تحيابه السنة.. الخ الخطورة في هذا التوجيه، يكمن في ثباته وجموده وميكانيكيته، في شكل الربط بين الدين والملك وبين الملك والجيش وفي اعتبار (المال) هو كل شئ فيما يتصل بالجند وأخيراً في اعتبار الرعية عبيداً للملك وواجبه الوحيد نحوهم ان يعدل فيهم لكي تقطع على المستبد طريقه يجب ان ينتخب الحاكم من بين صفات مثالية وأخلاقية تتمثل فيه: في الحض على القراءة والتعلم والنظر والتفهم والاستشارة والاعتدال في الطعام والشراب واللباس والنكاح والنوم واليقظة والتعب والراحة وترك سوء العادة ورياضة النفس قبل الحاجة والاختيار الجيد للاصحاب.. الخ باختصار تلك هي افكار المرادى في أداب السلطان والامير.. ويشير ان السلطان لايصبر على أربعة: افساد حريمه وأخراج سره والطعن في دولته والاستخفاف بحقه..

ويذكر المرادى: قالت الحكماء ان السلاطين ثلاثة: سلطان عدل وأمانة وسلطان جور وسياسة وسلطان تخليط وأضاعة.. فأما سلطان الجور والسياسة فأنه يحتاج الى فنون من التدبير يستعطف بها القلوب ويربى بها الانصار.. ويجب ان تكون سياسته على قوانين

مألوفة ولا يكثر من تغييرها فان الظلم المألوف تصبر عليه النفوس أكثر من صبرها على الظلم المتغير ومع ذلك لا يسلم من قدح ولا يؤثر ذلك في دنياه اذا عمل بالحزم.. فاما سلطان الجور والاهمال فانما هو لذة ساعة ودمار الدهر وفساد الدين والعرض وخسارة الدنيا والاخرة واستعجال الفقر والذلة وربما صحب ذلك اتلاف المهجة..

خير السلاطين من كان كالنسر حوله الجيف وشرهم من كان كالجيفة حولها النسور..

❖❖ ليعلم السلطان ان الناس يرمون الولاة بسوء العهد واعراض نظرائه بحسن أنصافه فليفعل..

❖❖ اذا اراد السلطان ان يفعل فعلاً ما من الافعال فلينظر كيف ذلك الفعل عنده وعند الناس فان كان عنده صالحاً وعند الناس فاسداً فليتركه ما أستطاع فانه ليس كل من رآه من الناس يصنع نكراً يستطيع ان يوسعه عذراً.

❖❖ اذا ابتلى السلطان بقوم ذوي نفاق وشدة وقلة انصاف وانقياد الى الحقيقة فليقم منهم رؤوسا ويلف بينهم الخلاف وعدم الائتلاف ويبقى هو في امن وراحة.. الملوك ثلاثة اجناس: كريم فاضل ولئيم سافل ومتوسط بينهما..

الكريم مأمون اذا شبع وقدر ومخوف اذا جاع وقهر.. واللئيم مخوف اذا شبع وقدر ومامون اذا جاع وقهر.. اللئيم اذا رفعته ترفع عليك..

لا يحسن التجبر بالاحرار.. التجبر داع الى الهلاك وضامن للمقت ومزر بالحسب ومذهب لحسن الادب.. ومن خشنت عريكته وازور جانبه مله أهله وقل مصاحبه وليس للعنيف شمل ولا الف.. الاصل في الجود ان تؤتي الحقوق اهلها وتتفضل بعد ذلك ببعض التفضل ثم ان أستطعت ان تكثر من التفضل فافعل.. الجود ان تتبرع بمالك لا بمال رعيتك.. والجود لا يستقيم مع التبذير والتضييع.. والملوك اشد الناس ذنباً في الاتلاف لانهم لاقوام لهم الا بالمال.. من الخصائص العامة للطاغية الذي يواصل طريقه بالصعود الى اعالي السلطة: الحيلة التي يعمل بها ويحترز منها في آن واحد.. وادنى الحيلة ما كان بالرياء وهي اردأ خصال الحيلة حسب تعبير المرادى ويقول:

تحتاج الحيلة الى التلطف والتمرن والاستعداد لها وربما احتاجت الحيلة الى مقدمات تؤنس المحتال عليه بها حتى يطمئن اليها.. والحيلة انجح من القوة.. وهناك الدهاء، ويعني اسم لوضع الامور في مواضعها، والكف عن ما لا نفع فيه انتظاراً لما فيه

النفع ويطلق على من كثرت حيلته وقويت فطنته وكان وصوله الى اغراضه بالطف الوجوه التي يمكنه التوصل بها اليه فتراه ابداً كأنه ابله متباله وهو يحصي دقائق الامور ويدبر لطيفات الحيل فلا ينطق حتى يرى جواباً مسكناً او خطاباً معجزاً ولا يفعل حتى يرى فرصة حاضرة ومضرة غائبة فعدوه مغتر بعداوته ومقدر عليه الغفلة والبله بغوايته وهو مثل النار الكامنة في الرماد والصوارم المكنونة في الاغماد.. اذا لم يفطن للداهية في بداية الطريق، وصل مع الغفلة عن الاخرين الى فرصته واخذ عدوه وهو في غرته واذا اشتهر بالدهاء لم يامن منه ضعيف.. والذين يعملون مع الداهية من الحاشية والاعوان يتمسكون باداب العاقل: يدفنون ارائهم ما استطاعوا.

ان الناظر لصفحات التاريخ، اينما توجه ببصره وسواء الى الحياة السياسية او الاجتماعية او الفكرية بمقدوره ان يستشف عمق الجراح التي صنعتها ايدي الطغاة الكثيرون في اجساد حية مرت عبر اجيال وليس ثمة امل يستشرفه المرء، او بريق نور، من عدم تكرار تجربة الاستبداد العراقي القاسية المهلكة التي شهدها تاريخنا في الماضي.. بل ان المرء ليصطدم في صفحات التاريخ الماضية بحقيقة مرة تفرض نفسها فرضاً، حقيقة القهر والتراجع والانحطاط في عصور الاستبداد العراقي.. لقد توالت على العراق مصائب وكوارث من حكم الطغاة الجبابرة المستبدين، وتحت اغطية مختلفة، الاسلامي وغير الاسلامي، العقائدي او غيرها، فقر ومجاعة ومصادرة للحريات وقتل سافر وسفك الاف اللترات من الدماء البريئة والحروب التي لا غاية ولانهاية لها، فيضانات وامراض الطاعون، الخراب والدمار، آلاف الرجال الذين سيقوا الى ساحات القتال والفناء تاركين وراهم اطفالهم ونسائهم.. آلاف اخرى من الارامل واليتامى والثكالى والمشردين، تقابلهم آلاف مؤلفة في السجون والزنزانات المظلمة الرطبة الباردة والاف اخرى لفظت انفاسها في لهيب الحر، تحت ابنية عجلت في موتهم.. ان ضحايا الطغاة العراقيين لا يعدون ولا يحصون.. انهم ملايين العراقيين الذين ذاقوا مرارة الاستبداد والحرمان عبر التاريخ.. يقول محمد عابد الجابري في كتابه القيم (فكر ابن خلدون): (عندما يطرح الحاضر نفسه كمشكلة تأخذ بجماع وعي الانسان وتستفز تفكيره يكون الاتجاه الى الماضي واللجوء الى التاريخ، شيئاً طبيعياً.)

ان التاريخ الذي اردت ان يكون شاهداً تحول الى متهم.. واحداث الماضي التي اردت ان تكون معينا لي اصبحت تطرح مشاكل يجب ان ابحث لها عن حل.. ان هناك حوارا جدلياً قائما بين الماضي والحاضر.. ان معضلات الحاضر تدفعنا الى الماضي.. ليس من الضروري قبول الماضي كما هو.. وليس من الاهمية والحتمية قبول اخبار الماضي كما هي..

الطغاة.. هل هو موضوع جديد، مبتكر ؟

ان الاستبداد البشع للطغاة اينما كانوا وحلوا.. هو من المواضيع القليلة النادرة التي تعرض لها الباحثون والدارسون في مكتبتنا العراقية رغم ان تاريخنا العراقي يزخر بنماذج عجيبة ونادرة من طغاة الارض، ولاندري كم من الدراسات التي قدمت للمكتبة العراقية بهذا الصدد.

بعد ثورة 14 من تموز، عام 1958، انتقل الحكم الى الطبقة البرجوازية الصغيرة من فئة الضباط الكبار وكان انهيار الحكم الملكي الذي استمر منذ عام 1921 سقوطاً مدويا لرموز الطبقة الارستقراطية البغدادية وان مجئ عبد الكريم قاسم كان بمثابة صعود وجوه بغدادية جديدة الى الحكم التي حلت محل الوجوه البغدادية التقليدية وكان اغلب الضباط الاحرار الذين قلبوا الحكم من ابناء المحلات البغدادية الشعبية بصوبيها الكرخ والرصافة فقاسم من سكنة الرصافة في محلة قنبر علي العريقة بينما كان عبد السلام عارف من ابناء الكرخ محلة سوق حمادة.. وفي عصر الملوكية وعبد الكريم قاسم نجد ان الحياة البغدادية هي التي تطبع نظام الحكم والسياسة الداخلية ولم تفقد (البغدادية) نكهتها ابان تلك الفترة ونجد (الاختلاف والتباين اوضح بما يكون بين حياتين عاشهما العراق، بين حياة المدينة وحياة ادنى وبالاطار التاريخي القادم نجد ان التاريخ العراقي السياسي الحديث فيما بعد الانقلاب الاجتماعي المذكور، يتحرك بحياة العناصر السياسية.. ونجد كذلك ان حركة الحياة اللاحقة بعد مصرع عبد الكريم قاسم. في حركة انتقال مستمرة، من الطريقة (المتمدنة) الى الطريقة الجافة الخشنة المتصلبة المتخلفة والحياة العامة للعراقيين تسير على شكل دورة لا على خط مستقيم وهذا ما يؤكد صحة نظرية ابن خلدون.. لقد كان الانتقال بحياة العراقيين من الروح المدنية الى القيم الاخرى يتم عبر (الدولة).. لقد كان حكم عبد السلام عارف ثم عبد الرحمن عارف يحمل منذ نشأته بذور الانهيار والاضمحلال والزوال تاركا المجال مفتوحا لقيام جماعة اخرى بتأسيس دولة جديدة وهذا ماحصل وقد يكون هذا التفسير الخلدوني الفذ لا يرضي الاكثرية ولا يرضينا نحن ابناء القرن الماضي -على حد تعبير الدكتور محمد عابد الجابري- لانه قائم على تصور للامور ومنطق للتفكير لم نعد نعمل بهما او نسلم بنتائجهما لكنه ينسجم مع التفكير الاجتماعي والتاريخي المعاصر.

المعروف عن اهل الصحراء العربية ان مناطقهم قليلة الخصب وان اصولهم العرقية تختلف اختلافاً كبيراً مما فرضت عليهم هذه الطبيعة الجغرافية نمط معين من الحياة

اكسبهم خصائص ومميزات معينة بدت في طباع افرادهم واخلاقهم ومختلف انواع سلوكهم الاجتماعي.. ان الطابع العام المميز لذوي المنطقة الجغرافية المذكورة هو عدم الاستقرار الذي نجم عن الاصول الاولى لحياتهم ونشأتهم المطبوعة بعامل التنقل والترحال فابائهم واجدادهم وحتى الجيل الاول منهم سكنوا ابعد منطقة من المدينة واشد توحشاً تأويهم الخيام او بيوت الطين او الاجر ويعيشون على ألبان ابلهم ولحومها او من نتاج قسوة العمل الزراعي في اراضي الغير، ومن ادامة حياتهم والابتعاد عن شبح المجاعة تراهم ينتقلون كثيرو الترحال لايعرفون الاستقرار واصبحوا بسبب هذه الظاهرة الطبيعية القاسية بدون وطن يستقرون فيه ولايربط بينهم حقل ولامزرعة ولاجبل ولاواد والرابطة الوحيدة التي تشد افرادا منهم الى آخرين وتميز جماعات منهم عن آخرى هي، رابطة الدم. قلنا ان الظروف المعيشية القاسية التي اختصوا بها هؤلاء قد انعكست اثارها على طباعهم واخلاقهم وانماط سلوكهم: ان طباعهم جافية هي الى الطباع الحيوانية اقرب، اذا جدبت ارضهم، او اذا جاعوا لا يتوانون عن سرقة جارهم، وتمتد ايديهم الى ما بايدي الناس، يسلبونهم اموالهم ومتاعهم ولا يجدون في ذلك منكرا او ظلما وتصبح ارزاقهم – بالتعبير الخلدوني الشهير- "في رماحهم" وبالقوة التي يصاحبها القتل يكسبون ارزاقهم وعيشهم ولهذا يطرقون اسهل الطرق: النهب والسلب.. وحالما يحصلون على مرادهم تراهم ينطلقون ويختفون في الصحراء او على اطرافها وهم لا يتغلبون او يتقوون الاعلى البسطاء من الناس، واذا تغلبوا على وطن اسرع اليه الخراب لان طباعهم منافية للعمران ومناقضة له لتغلب الوحشية على طباعهم الشخصية.. كيف يمكن تخيل تطور بلد يقع باكمله بايدي سلالة بدوية ؟

هؤلاء متلفون لكل شئ يقع بايديهم.. طبيعتهم انتهاب الناس فكيف الحال اذا حكموا البلدان وهؤلاء لايسلم منهم احد.. ولن يستطيع احد ان يدفع عنه عدوانهم، ولايسلم احد منهم امره لغيره ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته الا على كره منه ولهذا نجد بينهم تعدد (مراكز) القوى في الدولة التي يسيطرون على مقاليدها.. وتتعدد (مراكز) الاستغلال والهيمنة على الناس فيفسد البلد وتتقرض الدولة.. ولذلك تجده في ساعات المصير المشترك، اشد الناس والاعوان بأساً واكثر اعتمادا على ذواتهم في رد العدوان عنهم ولا يكلون المسؤولية الى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب الى الطرق.

ان (الانقلاب) الفجائي غير التدريجي في حياة هؤلاء، الانتقال من شظف العيش الى رغده، من اقسى انواع البداوة الى العاصمة الى ذروة التمدن هو الذي يفصل في سلوكهم

السياسي اللاحق.. ونجد البعض منهم عندما يبعد عن الفعالية السياسية او العسكرية الحاكمة ينزوي بعيداً في الصحراء.. ويتركون الحكم وسياساته ويقيمون في بواديهم التي جاؤا منها..

السؤال الذي يثور بهذا الصدد: هل صحيح ان جميع سكان المدن يعيشون في رغد ؟

الحقيقة ان البدو يبحثون في المدينة عن (الجاه).. والجاه في العاصمة هو السلطة او الدولة او الملك والبدو او ذوي الاصول الفلاحية يجدون في تجمعهم داخل العاصمة (قوة) لوجودهم.. ان بقائهم خارج اسوار العاصمة، مشتتين، مجهوداتهم مبعثرة، تعاونهم قليل، ليس في مصلحتهم، لذا نجدهم داخل العاصمة قد اسسوا قلاعاً لهم اسموها (محلات).. وهكذا نجد في تجمعات سكانية من الفلاحين النازحين من قرى وارياف بغداد.

والبعض، قد يكونوا افرادا قلائل، يجدون في (الجاه) ملكاً يمنحهم علوا وليس فوقهم يد عالية.. ومن هؤلاء (البعض) يقفز (احدهم) لتحقيق الجاه - الحلم.. وياخذ بالاسراف باموال الناس.. ومثل هذه الطغمة، يكون المال خاصا بها وحاشيتها، بين بطانتها ورجالها، وتنفق بالثروات.

والملفت للنظر ان هذه الطغمة (تتفنن) بالمظاهر الاستقراطية اكثر من الارستقراطيين الحقيقيين وان الاستقراطية الريفية تكون اخطر بكثير من الارستقراطية العريقة على عموم الناس ولامانع لدى الطغمة وهي تسعى الى ذلك الى (افقار) جميع الناس عداها هي.. وتنشر الطغمة سلوكها الفاسد بين الناس، تمزق النسيج الاجتماعي، وتنثر قيمها الفاسدة بين طيات النسيج المثقوب ولذا نجدها تبصم مرحلة سياسية بكاملها ناهيك عن نشرها واجبار الناس على تداول قيمها، ويكثر في المجتمع بعد فترة ليست طويلة مظاهر الانحطاط الاجتماعي والاخلاقي.. ان فاقدي الجاه هم اكثر الفئات الوحشية فتكا بالمجتمع ومحاربة الحشمة فيه.

كيف تتمكن هذه الطغمة الطفيلية من الاستحواذ ؟ ومن اين لها هذه (السلطات) القوية؟ وكيف اصبحت متمكنة من اموال الناس واعمالهم ورقابهم ؟

ان التطور الاجتماعي يقود الى الدولة.. والمدينة متسامحة.. والعاصمة اولى ضحايا المدينة.. ان نوري سعيد وبموافقة النظام الملكي (سمح) لابناء الفلاحين والمهنيين والكسبة بالانخراط في صفوف الكلية العسكرية التي كانت حكرا على اولاد كبار ضباط الجيش والعوائل البرجوازية والاقطاعية فـ(تسلل) عبد الكريم قاسم ابن النجار وعبد السلام

عارف ابن البزاز وغيرهما الى هذه المؤسسة الراقية ثم صاروا من كبار الضباط ثم (انقلبوا) على الحكم.. واستحوذوا على الدولة.. ونستطيع ان نلمس امثلة آخرى من تاريخ الاحزاب السياسية في العراق حيث من يتسلل اليها للقفز الى.. الدولة.

ماهي القوة التي تستند اليها الاسر الحاكمة في استيلائها على السلطة ؟

هذا السؤال ملكنا جميعاً كما ملك ابن خلدون، ملك عليه نفسه وشغل تفكيره، وهو السؤال الذي تمليه ظروف معينة في حقبة معينة وربما هو السؤال الوحيد الذي يتكرر في الشرق.

المجتمع العراقي مجتمع عشائر وقبائل.. والعشيرة او القبيلة مازالت هي الوحدة الاجتماعية التي يقوم عليها كيان المجتمع في الشمال والجنوب والوسط ومن ثمة فلابد ان يكون الحاكم او الاسرة الحاكمة ذات طابع عشائري او قبلي، الحاكم من قبيلة ما، او من فرع منها، او من مجموعة عشائر وهذا يعني ضرورة ان تستند عليها هذه الاسرة في استيلائها على السلطة والقوة التي تملكها نابعة عن طبيعة المجتمع العشائري نفسه..

العصبية ليست ابتكاراً لابن خلدون فقد كانت كلمة شائعة الاستعمال في اللغة العربية بعد الاسلام وهي تدل على التنازع والفرقة والاعتداء بالانساب بينما الاسلام في مقابل ذلك يدعو الى التآخي وتآلف القلوب والوحدة والكلمة استقرت في الذهن الاسلامي على اساس انها دعوة تفرق وتذكي الفتنة بين القبائل وتناصر فريق ضد آخر وهذا مايرفضه الاسلام جملة وتفصيلا والدكتور الجابري يقترح استخدام كلمة (العصبة) بدلا من (العصبية) للدلالة على الرابطة القبلية والعصبة بتعريفه: الجماعة من اقارب الرجل الذين يلازمونه.. ان القرابة والملازمة شرطان ضروريان لوجود العصبة. وهذه الرابطة تقوم على اساس الرابطة الدموية النفسية التي تتعدى الزمان والمكان وان (أي ضرر يلحق الفرد تعتبره العصبة ضررا لها.. وان كل ما يحصل عليه الفرد من مال او جاه او سلطة بشكل من الاشكال تعتبره الجماعة من الناحية المبدئية على الاقل ملكا لها حق التصرف فيه او الاستفادة منه تماما كما لو ان العصبة كلها شاركت في تحصيل ذلك المال او الجاه.) وان (الامتياز الوحيد والمشروع الذي يحظى به الفرد داخل العصبة هو فقط ذلك الاعتبار الناجم من كونه قدم خدمات لصالح العصبة ككل وهو اعتبار له وزنه داخل المجتمع القبلي..).

والفرد لا يتمتع بكيانه الشخصي الا داخل عصبة، اية عصبة اما خارج هذا الاطار فلا يسأل: من انت ؟ بل: ابن من انت ؟

اذا العصبية -من وجهة نظر ابن خلدون- تعني اساسا القوة الجماعية التي تمنح القدرة على المواجهة سواء كانت هذه المواجهة مطالبة او دفاعا.

الطريف في تمسك العراقيين بالعصبية التي هي (ثمرة النسب) وليست (نتيجة للنسب نفسه)، ليس هناك دليل واحد يؤكد سلامة العراقيين من اختلاط دمائهم بدماء الغزاة والفاتحين عبر قرون من السنين حيث كان العراق ارضاً مكشوفا للغزوات الاجنبية واختلاط الاجانب بالعراقيين استمر سنيناً كثيرة تزاوجوا فيها ولن نعد نجد دماءا نقية صافية في انسابهم علما ان كل احتلال اجنبي انجب من العراقيين عشرات بل الآف السحنات والوجوه والاشكال والملامح المختلفة التي تؤشر بسهولة ان هذا الفرد من دماء فارسية او تركية او تركمانية او هندية او زنجية وحتى انكليزية ان اختلاط الانساب بين العراقيين هو الظاهرة السائدة.. والنسب بهذا المعنى خرج عن القاعدة التقليدية: الانتماء الى حد مشترك.. بل اصبح الانتماء الى هذه الجماعة او الى تلك العصبة القبلية، غير ان الانفة والمكابرة وهما الباعثان على التمسك الوهمي بهذه الرابطة التي افترقت عن الدم منذ زمن بعيد.

لعل من الواضح الان ان العشيرة في العراق في زماننا هذا ليست سوى تلك المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة.

في علم الاجتماع نكون امام ثلاثة نماذج كبرى لمصادر السلطة:

1- نموذج سلطة السلف

2- = = الزعيم (الزعامة الخارقة، التاريخية، القائمة على بطولات القائد او مزايا الرأس او خصال الزعيم ... الخ).

3- نموذج السلطة الشرعية (الشرع والتشريع هما مصدر السلطة ويكون الاعتراف بسلطة القوى المهيمنة).

من الانماط الاساسية لسلطة الزعيم او النموذج الثاني الذي اشرنا اليه كما يذكر ماكس فيبر:

النبي

القائد الحربي او المقاتل او الثائر.

الزعيم المصطفى شعبيا.

الدهماوي (الديماغوجي، السياسي المتملق).

زعيم / رئيس الحزب السياسي.

رئيس كتلة برلمانية / او حزب برلماني.

ان الصراع السياسي في المجتمع يدور حول امتلاك السلطة وانتزاعها لايكون الا بطرد الاخرين المنافسين او المعارضين وضمن هذه اللعبة يمكن تمييز السياسي المحترف (الذي يعتبر السياسة مهنته الحرة فيعيش منها واليها) والسياسي العرضي.

يلاحظ من وجهة نظر علم اجتماع القيادة ان انموذج (الزعيم الملهم او المهيب) تأتى من خلال:

1. السلطة وثيقة الارتباط بشخص الزعيم (او القائد او الرئيس).

2. قوة الرئيس او الزعيم غير خاضعة لاي ضابطا ورقيب.

3. تكون سلطته، في بداية الامر، صادرة عن التاييد الشعبي.

4. القائد او الرئيس القائد يتصرف كأنه هو الوحيد القادر على اختصار مصائر جماعته.

5. المجتمع الذي ينتج صورة (القائد المهيب او الملهم) يجسد عدة ادوار:

الدور الرحماني: آية الرحمة او سلطة الخلاص: آية الله مثلا.

الدور المعنوي: آية النجاح: القائد المنتصر، او الناصر، او الظافر..

الدور التغييري: قيادة الحرب: النبي، الفاتح، القائد

قيادة الرسالة: الثورة عادة وتوسيع الدولة

هتلر، نموذج الزعيم الساحر، وله مكوناته الاجتماعية والنفسية:

1- السمات الاسطورية للزعيم الملهم: طبيعة وصوله للسلطة.. وما اضفته الجماهير على شخصيته من قداسة اسطورية.

2- باعتباره (القائد المنتظر او الضرورة) الذي يظهر من خلال حركة سرية منتظمة او علنية تتنامى جماهيريا وتحمله في نهاية المطاف الى قمة السلطة كبطل منقذ وليس كرئيس عادي للدولة.

3- بعد تحول المنتظر الى قائد (مصطفى) يترتب عليه تأدية دوره الخارق في نظر مريديه، نعني دور المرشد او القطب او الحجة او الآية وهكذا تعتبره الجماهير متفوقا عليها بماله من صفات خارقة: الارادة الحديدية، العصمة، البطولة، قائد التحرير والخلاص، ويتحول هذا القائد الى مستبد.

كان هتلر، مثلا، بمثابة البطل والعشق: اتخذ في شخصيته صفتي البطل والعاشق: يعلن امام الناس انه هو البطل الذي تقرع فوقه تعاسة ثمانين مليون مواطن والذي ستؤدي قرعاته الى ايقاظهم من نومهم وقد تكاثرت انماط الزعامة بتكاثر الادوار المتنوعة التي يؤديها الاشخاص المركزيون في تكون الجماعات.. من انواع القيادات المعروفة:

1- القائد المؤسس (هو القائد او الزعيم المفروض على الجماعة اما بواسطة بنى اجتماعية قائمة او موروثة يتولى فيها مهام ادارية (مثل رئيس جامعة او مدير مصنع او قائد جيش..) واما بواسطة بنى جديدة من حيث التأسيس (حزب، دولة، طائفة..) وهنا تكون القيادة شكلا من اشكال التنظيم.

2- الشخص المركزي: وهو (الشخص الذي يسترعي الانتباه في الجماعة نظرا لكونه يمثل مركز الاهتمام السلوكي امام الافراد في الجماعة).. وتبرز انماط من الشخصية المركزية كما يلي:

السلطان الابوي، الطاغية، الزعيم المحبوب، الزعيم المكروه، القائد المنظم، القائد الفاتن، القائد البطل، القائد المؤذى، القائد الطيب..

3- المصطفى او الشخص المفضل: (هو نموذج القائد الاجتماعي.. الذي ينال اشد الاعجاب والحظوة داخل جماعته).

4- الملتزم بالاعمال القيادية: (هو الشخص الذي يستمد اهميته من قدرته على جعل جماعته تنجح في تحقيق اهدافها).

5- القائد النافذ: (هو الشخص الاكثر نفوذ اعلى مستويين: مستوى التاثير على الافراد ومستوى التاثير على التنظيم). الباحثون في علم الاجتماع القيادي المعاصر وضعوا لوائح بوظائف القائد:

لائحة (كرثرو كروتشفيلد) تتضمن (14) دورا قياديا يمكن للقائد تاديتها وهي:

المنفذ/ المخطط/ الضابط/ الخبير/ الوجه/ مراقب العلاقات الداخلية/ مقرر المكافآت والعقوبات/ الحكم/ القدوة/ رمز الجماعة/ بديل المسؤولية الفردية/ الآيدلوجي/ صورة الاب/ كبش المحرقة.

لائحة (هامفيل) انطلق من (1790) سمة من سمات سلوك القائد وانتخب منها (150) سمة رتبها في (9) فئات كما يلي: ترقية الافكار والممارسات الجديدة/ الانتماء للجماعة/ تمثيل الجماعة/ تدامج الاعضاء/ التنظيم/ الهيمنة/ ارسال المعلومات او قبولها/ الاعتراف بالفضائل والمآثر/ الانتاج.

يقول الدكتور خليل احمد خليل الباحث الاجتماعي المعروف: ربما لانجد نظرية جاهزة عن مفهوم القيادة في الفكر السياسي العربي الا ان تراثنا لا يخلو من تأملات في معنى السلطة والقيادة.. اتخذ مفهوم السلطة عدد من المعاني المختلفة باختلاف مرتكزاتها الاجتماعية: من السلطة داخل العشيرة والقبيلة الى سلطة الامارة والمملكة مرورا بسلطة الدولة التي كانت ملامحها تبرز في بعض مدن الجزيرة العربية قبل الاسلام وبعده ولكن هذه السلطة لم يتبلور مدلولها النظري.. الا مع القرآن الكريم.. فالقرآن بهذا المعنى مصدر اساسي لنظرية السلطة عند العرب والمسلمين.. والنبوة ظاهرة فريدة في تاريخ العرب والمسلمين.. والامامة معناها السياسي العام هو القيادة.. نقف امام نموذجين لرؤية السلطة الاساسية:

عمر بن الخطاب: قال: (يا معشر العرب انه لا اسلام بلا جماعة ولا جماعة بلا امارة ولا امارة بلا طاعة فمن سوده قومه على الفقه كان حياة له ولهم ومن سوده قومه على غير فقه كان هلاك له ولهم).

قول عمر يمكن ترسيمه على النحو التالي:

الاسلام - جماعة - امارة - فقه - حياة - غير فقه - هلاك - الجماعة - رحمة - طاعة - الجماعة .

ان رواية عمر هي رؤية واقعية لم تخل في الاشكال السياسي: لمن السلطة في الاسلام؟ ان رؤية عمر ترتبط بالجماعة، ربطا لسلطة بالجماعة.

علي بن ابي طالب: قال: (ان لا حكم الا لله.. ولكن لابد للناس من امير يعمل في امرته المؤمن ويستمتع بها الكافر.. ويجمع به الفئ ويقاتل به العدو وتأمن به السبل ويؤخذ به السبل ويؤخذ فيه الضعيف من القوى) يتضح من قول الامام علي:

- مصدر الحكم: هو الله اطلاقا ..

- ان هذا للمصدر: لايمارس الحكم مباشرة: اذ لابد من انعقاد الحكم على الناس لامير منهم / وهو الامام.. الذي من مواصفاته الاساسية:

تدبير امور الناس جميعا .

تدبير امن الناس ومعاشهم ومقاتلة اعدائهم.

تدبير العدل.

لا تنعقد القيادة (الامامة) حتى تحضرها عامة الناس.

الامامة، كما يبدو من تطورها في التاريخ السياسي للشيعة انها تحددت بثلاثة انماط:

1- الامام السياسي /الداخل معترك الصراع السياسي/ من الامام الاول الى الثالث.

2- الامام المستقل /المنعزل عن الخلافة والحكم/ من الامام الرابع حتى الحادي عشر.

3- الامام الغائب /امام الزمان او العصر او القائد المنتظر لدولة المستقبل.

في منطقتنا العربية، في العراق تحديدا تتعين ظروف (بيرز) خلالها المستبد:

- نتيجة انقلاب او مؤامرة او ثورة شعبية.

- تمتعه بقدرات خاصة تمكنه من التخلص من الاخرين وبالتمكين لسلطانه بلامنازع.

- الظروف المحلية.

- تفرضه الظروف الدولية او الخارجية.

تتظافر العوامل الداخلية والخارجية على حد سواء في التمهيد له وفي فرض حكمه ونظامه.

هذه اساليب الوصول الى السلطة، الى دور الزعيم، او الرئيس، او القائد، او الطاغية اخيرا .. نلاحظ ان الانظمة العراقية التي تعاقبت استمدت مصادرها القيادية مما يلي:

- العهد الملكي (1921- 1958) من التعاون مع سلطات الاحتلال البريطاني.

- عبد الكريم قاسم (1958- 1963) سلطة انقلابية ثورية.

- عبد السلام عارف (1963- 1966) سلطة انقلابية.

- عبد الرحمن عارف (1966- 1968) سلطة وراثية بدعم كبار الضباط في الجيش.

ونماذج (القادة) الذين تعاقبوا على حكم العراق للفترة من 1921 الى 1979:

نوري السعيد: سياسي عسكري محترف وواقعي، أي عملي في السياسة، تمكن من القفز من وزير الى رئيس وزراء لعدة مرات وكان حاكم العراق الفعلي بوجود الملك او أي رئيس وزراء آخر. حكم العراق بسلطات شبه دكتاتورية لكنه لم ينجح وخسر حياته في 14 تموز عام 1958.

عبد الكريم قاسم: عسكري سياسي، ارتبط باهداف اقليمية ضيقة، قليل الخبرة، لم ينجح بتحقيق التغيير الاجتماعي الجذري، يصنف مثالي ثوري حاكم، سعى الى ادارة البلد بالاساليب العسكرية، اضطلع بدور (المنقذ) عام 1958 ولم يتصرف كـ (زعيم) ثوري بل التصق بدور (البطل الشعبي) ولم ينتبه الى اهمية العلاقة بين الجماهير والحزب.

عبد السلام عارف: عسكري - سياسي، متهور، مندفع، ميوله تتراوح بين التعصب المذهبي والايمان بالقومية العربية باطارها الناصري، مستبد، تقليدي لصورة الحاكم العشائري منح السلطات للعسكريين في قيادة الحكم المدني، وسع من دائرة اعدائه حتى قتل في حادث طائرة عام 1966.

عبد الرحمن عارف: شقيق عبد السلام، جاء الى الحكم باسناد عسكري - عشائري، رتيب وتقليدي، اكثر مرونة من شقيقه في علاقاته مع الاحزاب وفئات الضباط الكبار، لم يستطيع الاحتفاظ بالسلطة اذ ازيح بثورة هادئة صبيحة 17 تموز عام 1968.

ان مسألة السلطة وحكم الفرد، من اكبر المعضلات الفلسفية والتاريخية منذ الازمنة القديمة حتى عصرنا الراهن وانشغل علماء النفس والاجتماع بدراسة هذه الظاهرة: الزعامة الفردية: التي بمقدورها ان تلخص وتختصر في سطوعها منظومة سياسية كاملة لحقبة تاريخية كاملة.

ربما نجد في خضم تلك الدراسات نموذج لـ(الشخصية المنوالية)، والمقصود بها تلك الشخصية المركزية، التي تلعب دورا مركزيا في السلطة داخل ادوار متعددة، شخصية منقادة

وطامحة للقيادة في آن واحد، ومن خلال تنقلها بين اكثر من موقع وموقع، ودور ودور، تاخذ بالاستقطاب والتمركز وتتضح ملامحها القيادية عندما تنجح في اداء (الدور القيادي) داخل (القيادة).. وفي العراق اشتهر نوري السعيد بهذا النموذج من القيادات المتوالية.

من النماذج الزعامات الحديثة في العراق خلال اكثر من نصف قرن على تأسيس الحكم الوطني عام 1921:

1- النموذج الحزبي.

2- النموذج العسكري.

3- النموذج العسكري الفردي.

4- النموذج التقليدي الديمقراطي ذو الصبغة الغربية.

السؤال المطروح: ماهو الاختلاف بين (الزعيم او القائد او الرئيس القائد) والملك ؟ ونعيد تركيب السؤال بصيغته آخرى: ترى بماذا يختلف عبد الكريم قاسم ونوري السعيد وعبد السلام عارف وعبد الرحمن، بشخوصهم الساطعة والقائدة والزعيمة، عن الملك العراقي، أي ملك ؟؟

ان فيصل الاول وغازي وفيصل الثاني، هم ملوك العراق للفترة من 1921 لغاية 1958، ملوك وارثون وموروثون، اما الزعيم او الرئيس او الرئيس القائد، فقد يكونوا زعماء ورؤوساء قادة لذاتهم ولا يورثون الزعامة لسواهم، عدا عبد الرحمن عارف الذي فرضه كبار ضباط الجيش بعد مصرع شقيقه عبد السلام رغم ان الاخير لم يوص بخليفة له كما ان قاسم لم يترك السلطة الا قتيلا وابعد عارف بالقوة.

في الواقع لم يحض حاكم من هؤلاء بظاهرة عبادة الشخصية ماعدا عبد الكريم قاسم ومهما حاولنا تجميل نموذجه فأنه بسلوكه السياسي العام يرشدنا الى مظهر عبادة الشخصية.. لكن ما ان غيب قاسم عن الناس وانفك عنهم (سحره) الاعلامي حتى عادوا مجددا الى حرية خيارهم.. ولاندري هل تختار هذه الامة - المشحونة بالرموز الدينية والصوفية والعبادية - الحرية دون عبادات جانبية ؟؟

الزعامة، او مفهوم الزعيم، في العراق قديم العهد.. وازلام الزعيم، موجودون في العراق منذ حقب طويلة.. والزلمة تعبير فلاحي للدلالة على البطولة والشجاعة والقوة والسطوة.. وهو تعبير دارج بين سكان المدن والعاصمة ايضا ويعطي نفس الدلالة ولكن

ليس بذات العمق.. وتعبير (الزلمة) ثمرة العلاقات والتجمعات القبلية والعشائرية في العراق.. من هذا المفهوم تولدت مفاهيم اخرى، اعطت ذات النتائج: بطولة فردية قدرة على القيادة، اشاعة الرعب والخوف في الوسط الاجتماعي المحلي، ثم نشوء (قيادات) اقتصادية معينة في نطاق جغرافي معين استندت الى (الازلام) والى (السركال) في الريف والى (الشقاوة) في العاصمة وبعض المدن العراقية الكبيرة في ازمان مختلفة، ثم نشوء (زعامات) عائلية يمارس مسؤولياتها (زعيم) العائلة القوي اقتصاديا، صاحب نفوذ في دوائر الشرطة والسراي والحكومة.. الخ.

في العهد العثماني، اصبحت (الشقاوات) ظاهرة اجتماعية الى جانب (زعامات عائلية) في الحياة اليومية وطغت على الحياة السياسية بفعل التدهور والانحطاط الاجتماعي والاقتصادي لكيان العراق ابان الاحتلال العثماني الذي امتد قرون طويلة.. ان منح العثمانيين (المقاطعات) الزراعية او الآف الدونمات من الاراضي لفئة دون اخرى، عامل قوي على نمو وانتعاش ظاهرة (الاستزلام).

اذ كيف نتوقع (نشوء) المقاطعات الكبيرة سواء في الارياف او داخل المدن وضواحيها من دون وجود رديفها: الاستزلام ؟؟ أي تحول الكائن البشري في ظل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة وقتذاك الى (زلمة) و(حرمة).. الزلمة او الحارس والوالي للزعامة المدنية او الاقطاعية والحرمة تحدد ولاؤها للزعامة المذكورة في نطاق ولاء الرجل لها.. هناك السيد يقابله الزلمة.. وهناك الخاتون او الست تقابلها الحرمة.. وقد ازداد دور (الازلام) بعد الاحتلال البريطاني.. ومن ثم بعد قيام الدولة العراقية الحديثة التي منحت الفرص لكثير من (ازلامها) لتولي المسؤوليات في الدولة الجديدة (؟).. ووجد صنف آخر من الازلام سلكوا دروبا مختلفة لتحديث وجودها: تكوين الاحزاب الرجعية اليمينية والعميلة للاجنبي.

البقاء بدون هوية حزبية واضحة.

الانخراط في صفوف احزاب ونقابات ومنظمات وجمعيات ذات صفة تقدمية.

الطريف في الامر ان (الزعم) في عرف العرب يعني الباطل والكذب. والزعامة مشتقة من (زعم) وهي اذا تتضمن الباطل والكذب وتتجاوز هذا المعنى الى الدلالة على النزل والسيطرة والتزعم على الناس أي بصريح العبارة: التآمر على الناس.. ومن الدلالات العربية لمفهوم الزعامة يعني: الشرف والرئاسة والهيمنة المالية والعسكرية.

قلنا في مرحلة السيطرة العثمانية على العراق، وجد هرم سلطوي ثقيل يتمثل بالشكل التالي:

السلطان: الخليفة العثماني.

الباشا الاول: الصدر الاعظم: رئيس الوزراء.

الوالي: وهو باشا ايضا.. وهو والي بغداد، او اية ولاية عراقية اخرى.

العسكري: الذي يحمل لقب باشا.

وبرزت (الاقطاعيات) و(الزعامات العائلية) في هذا العهد وعرفت في ولايات العراق ثمة زعامات عائلية تمتعت بنفوذ سياسي وعسكري وتجاري واجتماعي واضح جدا امتدت هذه الهرمية العراقية الى فترة الاحتلال البريطاني، وترسخت في العهد الملكي عندما اخذ الملك يعزز من مواقعها داخل الحكومة بتعيين الوجهاء، وزراء ورؤساء للوزارات المتعاقبة.. رغم ان عوائل اخرى كانت تعارض سياسة الحكومة ووقفت بوجهها والبعض منها اسست احزاب معارضة للحكومات المتعاقبة واستطاعت بعض العوائل من الحصول على القاب رسمية تميزها اجتماعيا وطبقيا.. كان هناك الباشا والبيك والاغا.. الخ.

وتميزت مرحلة الاحتلال البريطاني للعراق بوجود فئتين احدهما تساند بقوة المحتلين وفئة اخرى قاتلت الانكليز وقتلت منهم اعداد كبيرة، وبعد انتهاء فترة الانتداب البريطاني، استطاع الخبراء والمستشارين الانكليز بخبث ومكر شديدين ان (يوزعوا) مناطق العراق الجديد على (دوائر) الدولة وهذا ما يتضح من خلال (توزيع) المسؤولية الادارية على ابناء العراق، حيث جعلوا (الدوائر) المهمة والحساسة مثل الشرطة والامن والجنسية تحت هيمنة عشائر الانبار بينما زجوا بابناء الجنوب في الجيش كجنود وضباط صف معدمين ومرؤوسين وجعلوا ضباطهم من اهل الموصل.. وقد استمرت هذه اللعبة الانتقامية من العشائر العراقية التي قاتلت الانكليز عام 1921 طيلة العهد الملكي وبقيت دوائر مهمة كالشرطة والجنسية والامن حكرا لابناء مناطق معينة من العراق وبالتخصيص من المناطق ذات الاكثرية او الغالبية من (السنة) واهمل ابناء الطائفة الشيعية الذين يشكلون 70 ٪ من سكان العراق ويقطنون في الجنوب والوسط، اهمالا فظيعا ومقصودا ذلك انهم رفعوا السلاح في وجه قوات الاحتلال البريطاني وقاد علماء الشيعة ثورة حزيران 1921 وكبدوا الجيش البريطاني خسائر كبيرة بينما نجد ان المناطق

الغربية من العراق لم تبد ذلك الحماس والمواجهة الشاملة للقوات المحتلة فكافأها الانكليز باسناد المناصب الحساسة والخطيرة لابنائها، وهذه الحالة معروفة لدى العراقيين، وخاصة اهل الجنوب الذين ابتلعوها على مضض.

مع مرحلة قيام الحكم (الوطني) عام 1921، شهد العراق نظام الديقراطية المقيدة بدستور ورغم ذلك كان الحكم في الاغلب يتجاوز الدستور وكان رئيس الوزراء، في الاعم نوري السعيد، يمارس الحكم باساليب استبدادية رغم وجود مايسمى بمجلس الامة الذي تبين فيما بعد بانه لا يملك الحول ولا القوة وانما هو مجلس للنواب والاعيان المريدين للطاغية السعيد وازلامه وقد تحول مقر المجلس المزيف الى مقر للمحكمة العسكرية العليا الخاصة التي تولت محاكمة رموز النظام المباد.

لقد ظل النظام الطبقي الهرمي كما كان عليه في العهدين العثماني والاحتلال البريطاني وبرز الاقطاع في الجنوب العراقي بممارساته الوحشية التي يندر مثيلها في ارجاء اخرى من العراق وبدعم كامل من النظام الملكي الفاسد وبتوجيه مقصود من الخبراء والمستشارين والسفراء البريطانيين للامعان بالتنكيل بابناء المناطق الجنوبية والفرات الاوسط انتقاما منهم على ثورتهم الكبرى في عام 1921 لقد كان التحالف الطبقي بين الاقطاع في الجنوب والوسط والبرجوازية التجارية والعقارية في بغداد وبعض المدن قائما على دعم سلطات الملك ونظامه ومؤسساته العميلة للاجنبي والمعادية للمواطنين وقد تمكن هذا النظام الفاسد من العيش قرابة (37) سنة بفضل تعاطي رموزه العمالة للانكليز والتجسس والتجارة المحرمة والرشوة ناهيك عن سياسة القمع والارهاب والسجن والتشريد الذي مورس على مستوى واسع النطاق ضد الاحرار ومعارضي النظام وكان النظام لا يتوانى عن الصاق تهمة (الشيوعية) ضد أي معارض له وهي التهمة التي تعني القاء الشخص في السجن او فصله من عمله او قطع رزقه وتشريد عائلته.

بعد اشهر من قيام ثورة 14 تموز عام 1958، شهد العراق اضطرابا كبيرا بدأ من الرأس وانتهى الى اطراف النظام الجديد، ولسنا في مجال الخوض بالاسباب التي ادت الى هذا الوضع، لكننا ازاء حالة برزت بشكل خطير ابان الفترة 1958 - 1963 التي دعيت ب (ظاهرة الشقاوة).

لاشك ان (الشقاوة) في بغداد او غيرها من المدن العراقية لم تكن وليدة عهد عبد الكريم قاسم او ثمرة الاضطراب العام في ذلك العهد، انما كانت ظاهرة الشقاوة معروفة منذ العهد العثماني وربما هي امتداد للشطار والزعارين في العهد العباسي الثالث وكان

الشقاوة في العهد العثماني كما يقال (ابن حمولة) ينجد الضعيف ضد القوي ويعارك الجندرمة العثمانية ويسرق ويبتز من تجار زمانه ليوزع المال على الفقراء والمحتاجين وفي عهد نوري سعيد استثمرت ظاهرة الشقاوة كاداة لتصفية الحسابات مع الاعداء والخصوم وكان لـ (صباح) ابن نوري سعيد، شقاوة خاصة به يحرسونه ويحمونه ويستنجد بهم وكثيرا ما اثارت تصرفاته استياء المواطنين، اذ عرف عن صباح ادمانه على الخمر ومطارداته للنساء والسهر خارج البيت ليقضي ليال حمر في الملاهي، وكثيرا ما كان صباح يحتجز ملهى باكمله ويضع شقاواته لحراسته ومنع أي مواطن من الدخول الى الملهى وكانت اخبار فسقه على السنة المواطنين واشتهر أمره بين اعضاء الحكومة بكونه شابا متهورا فاسقا مدمنا على الخمر وزيرا للنساء وكان مصدرا سيئا لسمعة ابيه السياسية والاجتماعية. وقتل صباح، صبيحة 14 تموز واحرقت جثته في برميل فارغ مخصص لتعبئة الخمور وكان الرجل قد سهر ليلة الثورة ولما علم بقيامها هرع مذعورا من فراشه وبيده مسدسا راح يرمي منه عيارات نارية لكنه لم يستمر بالمقاومة فقتل حالا اذ كانت كراهية واحتقار الشعب له اكثر من كراهيته واحتقاره لسياسة ابيه.

وكان بعض وزراء نوري السعيد لا يتوانى عن استخدام الشقاوات ايضا كما استخدمهم بكر صدقي في قتل خصومه السياسيين، وللشقاوات في بغداد خاصة. عالمهم المعروف، واساليبهم الخاصة.. قلنا، حصل تطور خطير في عالم الشقاوات بعد المحاولات العديدة التي بذلتها بعض الاحزاب العراقية في السنوات الاخيرة من الحكم الملكي وفي العهد القاسمي، عندما كسبت الى صفوفها بعض الاسماء المعروفة في دنيا الشقاوات.. وبعض الاحزاب في محاولة منها لـ(تلطيف) التسمية اطلقت تسمية غريبة على بعض اعضائها ومؤيديها ممن يمارس الطبيعة الواقعية الحقيقية للشقاوة العادي، اطلقت عليهم عنوان كبير ومهيب: الصداميون.

والصدامي في تلك الاحزاب يعني (المناضل) المبلغ بدور (قتالي، صدامي، عراك، اشتباك) مع اعداء الحزب ويتميزون هؤلاء عادة بما يسميه البغداديون بـ (قلب ميت).. ولايشترط لهم ان يكونوا من اصحاب العضلات المفتولة او الاجسام الضخمة اذ ربما (مناضل) نحيف يقدر على الصدام بقلب قوي اكثر من شقاوة عادي بعضلات مفتولة... لقد (سيست) الاحزاب (الشقاوة) في السنة الاولى من قيام الجمهورية ودخلت الشقاوة السياسية معترك الاحتراب ابان تلك الفترة لمنافع حزبية تكتيكية ضيقة الافق لم يجني الشعب منها الا مزيد من الدماء والاحزان والالام.

جاء في مقدمة كتاب (تاريخ العراق السياسي الحديث) الجزء الاول، التي كتبها الملك

فيصل الاول: (ان البلاد العراقية هي من جملة البلدان التي ينقصها اهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية ذلك هو الوحدة الفكرية والمالية والدينية. فهي والحالة هذه مبعثرة القوى، غير مجلوبين لحسيات او اغراض شخصية او طائفية او متطرفة، يداومون على سياسة العدل والموازنة والقوة معا، على جانب كبير من الاحترام لتقاليد الاهالي، لا ينقادون الى تأثيرات رجعية او الى افكار متطرفة تستوجب رد الفعل.)

هذه مواصفات حاكم العراق في رأي الملك فيصل الاول، وهي مواصفات تكاد تكون معقولة جدا من جانب المحكومين على الاقل لكنها تبدو مثالية جدا في نفس الوقت من جانب الدكتاتوريين العراقيين العراق عام 1932، وهو التاريخ الذي يفصح عن زمن كتابة فيصل الاول لهذه الافكار المتقدمة في ذلك العهد.. كما يراه الملك الراحل، وهي رؤية سياسية - اجتماعية ناضجة: تكون وتحكم العراق افكار ومنازع متباينة جدا: الشباب المتجدد بما فيهم رجال الحكومة.. المتعصبون.. السنة.. الشيعة.. الاكراد.. الاقليات غير المسلمة.. العشائر.. الشيوخ.. السواد الاعظم الجاهل.. ويتعرف فيصل بصراحة عن نتيجة خطيرة قائلا: في اعتقادي لايوجد في العراق شعب عراقي بعد بل توجد كتلات بشرية خيالية من أي فكرة وطنية، متشبعة بتقاليد واباطيل دينية، لا تجمع بينهم جامعة..

يقول الحسني في (تاريخ الوزارات العراقية): قامت في العراق بين 25 تشرين الاول 1920م (وهو تاريخ تكون اول وزارة في البلاد) و14 تموز 1958م (وهو التاريخ الذي انتهى فيه نظام الحكم الملكي في العراق) قامت (59) وزارة، اشترك فيها (175) وزيرا بين كهل وشاب.

وسئل المؤرخ العراقي الكبير السيد عبد الرزاق الحسني، ذات مرة، عن السياسيين الذين كانوا مراكز قوى وحكموا العراق قبل ثورة 14 تموز؟ فاجاب الحسني وهو الخبير برجال ذلك العهد قائلا: ياسين الهاشمي ونوري السعيد وعبد المحسن السعدون..

يعتبر نوري السعيد من ابرز رجال العهد الملكي المباد وقد شارك في حكم العراق بطريق مباشر او غير مباشر اعتبارا من تأسيس الحكم الوطني حتى مصرعه في 15 تموز عام 1958 وهو طاغية العراق، بلا منازع طيلة الحكم الملكي وقد مارس السلطات بطريقة غريبة رغم وجود المؤسسات الدستورية في البلاد وعلى رأسها الملك.. ورغم ايمان نوري السعيد بحكمة الانكليز ومساعدتهم في حل مشكلات العراق الا انه سرعان ما فقد هذه المصداقية في اواخر عام 1957.

كتب (لونكريك) يصف احوال المجتمع العراقي، وهي وجهة نظره بالطبع قائلا: (فلم يكن العراق بلادا عربية من الوجهة العنصرية فقد اضافت موجة بعد اخرى من الفتوحات، من السومرية الى المغولية عناصر جديدة الى دمه.. واذا ما وجدنا جمهرة

تدعي الاصل الواحد فيكون ادعاؤها هذا لا اساس له في التاريخ.. كان العراقي في ذلك العصر (يقصد عصور الانحطاط التي اعقبت سقوط الدولة العباسية) كالعراقي في هذا العصر فلم يكن الا وارث شعوب عديدة.)

كان نوري السعيد، طاغية معروف باساليبه الملتوية ودسائسه في الحكم وكان على رجال الشرطة في قمع المعارضة، رغم تقيده الشكلي بالدستور العراقي، وكانت تحت قبضة السعيد في الخمسينات حوالي (20) الف شرطي من اصناف مختلفة كالشرطة السيارة المجهزة بالاليات وبلغ عددها عام 1950 حوالي (6) الاف رجل وكان السعيد يعتقد انها قوة كافية يمكن الوثوق بها في معالجة حالات الطوارئ من مظاهرات معادية ضد النظام او احتجاجات قد تكون مسلحة وبها يمكن السيطرة على الامن الداخلي.

معاوية، اول من استخدم (خبرات) السلطات الرومانية لتعزيز سلطانه وكان (البريد) الوسيلة الاكثر تقدما في مجال ضمان سلامة دولتهواستخدام الجواسيس والعيون بكثرة.. والبريد كان اما يسير بالبغال والطيور واما بالسعاة والنيران والدخان والطبول.. وفي ايام المهدي استعانت السلطة بالنساء في تقصي الاخبار وكانت الجواري الحسان هن عيون الخلفاء العباسيين فيما بعد.. وفي خلافة الهادي ازداد النشاط التجسسي على الناس حتى انهم كانوا يخشون الجدران. ان تسمعهم.. فكان هذا اصل المثل العراقي الشهير: يمعود للحيطان أذن.. ونشط الجواسيس والاخبار في زمن الرشيد وبلغ رؤساء الشرطة في عهده قرابة (12) رئيسا.. كما كانت للرشيد عيون وارصاد يقصرون الخطوة للقبض على خصومه السياسيين حتى انه يشكو شخصيا من ظاهرة استفحال التجسس داخل قصره.. (لكل واحد من ولدي علي رقيب فمسرور رقيب المأمون وجبريل بن بختيشوع رقيب الامين ونسيت الثالث رقيب المعتصم، مامنهم احد الا ويحصي انفاسي ويعد ايامي ويستطيل دهري..).. ووسع المأمون دائرة الاستخبار وهو اول خليفة يعلن توليه موظف علني وظيفة (صاحب الخبر) واعاد النساء الى الخدمة على هيئة جيش قوامه (1700) عجوز والمأمون اول من اتخذ الجواسيس من العجائز. وكان هو شخصيا يتجسس بنفسه على الناس.. وكان الناصر لدين الله مغرما بالقضايا الامنية ذات الطابع التجسسي الى حد الهوس ويرغب ان يعرف كل شئ عن اسرار الناس.. وبسبب هوسه الامني كان يتلاعب باعصاب ضيوفه من الامراء والسلاطين.. وكان يراقب المسؤولين ماذا يفعلون ليلا ونهارا بدقة وتفاصيل مملة حتى انه كان يامر عيونه بالتجسس على الاعراس والمآدب وتنقل اليه الاخبار.. واشيع عنه انه يعلم الغيب (؟) او مخدوما من الجن .

بغداد عاشت في قبضة خلفاء وولاة وملوك ورؤساء:

المنصور	712-775 م	مات
المهدي	775-785 م	قتلته دابته
موسى الهادي	785-786 م	قتل خنقا بيد جواريه بتحريض من الخيزران امه
الرشيد	786-809 م	مات
الامين	809-813 م	قتل باحتلال عسكري دبره اخيه المأمون
المأمون	813-833 م	مات
المعتصم	833-841 م	مات
الواثق	842-847 م	مات محترقا بالنار
المتوكل	847-861 م	قتل اغتيالا بتحريض من ابنه المنتصر
المنتصر	861-862 م	مات اغتيالا مسموما
المستعين	862-866 م	مات بالتعذيب باوامر من المعتز
المعتز	866-869 م	مات بالتعذيب
المهتدي	869-870 م	قتل بيد الترك
المعتمد	870-892 م	قتل في رصاص مذاب
المعتضد	892-902 م	مات
المكتفي	902-932 م	مات شابا
المقتدر	908-909 م	خلع من الخلافة مرتين ثم قتل
المرتضى	909-909 م	وهو ابن المعتز، سمي بخليفة يوم وليلة، قتله غلمان المقتدر
القاهر	932-933 م	كحل الجند الثائرون عينيه بالنار، بمسمار محمى، وهو اول من سملت عينيه من الخلفاء
الراضي	934-940 م	مات
المتقي	940-944 م	سملت عينيه ومات وهو اعمى
المستكفي	944-945 م	جذب من السرير وجعلت عمامته في رقبته واقتيد حيث سملت عيناه وعمى ومات .

المطيع	945-974 م	خلع نفسه
الطائع	974-991 م	مات سجينا
القادر	991-1031 م	مات
القائم	1031-1075 م	مات
المقتدي	1075-1094 م	مات في ظروف غامضة
المستظهر	1094-1118 م	مات منعزلا في حجرة له
المسترشد	1118- 1135 م	قتل ومثل به
الراشد	1134- 1135 م	مات اغتيالا
المقتفي	1136- 1160 م	مات
المستنجد	1160- 1170 م	مات مخنوقا في الحمام
المستضيئ	1170- 1180 م	مات
الناصر لدين الله	1180 1225 م	مات
الظاهر	1225- 1226 م	مات
المستنصر	1226- 1242 م	مات
المستعصم	1242- 1258 م	قتله المغول

ثم جاءت الفترة المظلمة التي حكم فيها (37) حاكما وواليا وفترة الحكم العثماني التي حكم فيها (26) واليا فترة الدولة الصفوية التي حكم فيها (2) شاه ثم فترة الحكم العثماني الثانية التي حكم خلالها (101) واليا حتى دخول الانكليز الى بغداد عام 1917 م وتولى فترة الاستعمار الانكليزي (1917- 1921) ثلاثة شخصيات هم: مود وولسن وبرسي كوكس وفي فترة الحكم الوطني تحت ظل الانتداب البريطاني كان هناك عبد الرحمن النقيب وجزء من عهد فيصل الاول (1920- 1921) م .

وفي العهد الملكي (1921- 1958 م) تولى الحكم:

فيصل الاول (1921- 1933 م) مات بالسكتة القلبية وأشيع ان نوري السعيد حرض على قتله .

غازي الاول (1933- 1939 م) مات قتيلا بحادث سيارة دبره الانكليز بالتعاون مع السعيد .

فيصل الثاني (1939- 1958 م) مات قتيلا بالرصاص .

عهد وصاية عبد الاله (1939- 1941 م)

(1941- 1953 م) قتل بالرصاص وسحل في الشوارع ولم يقبر

(1953- 1958 م)

عهد وصاية الشريف شرف (1941 م) عوقب بالحبس لثلاث سنوات

وفي العهد الجمهوري حكم العراق:

عبد الكريم قاسم (1958- 1963 م) مات مقتولا

عبد السلام عارف (1963- 1966 م) مات محترقا بحادث طائرة مروحية

عبد الرحمن عارف (1966- 1968 م) عزل

نوري السعيد في جذوره القديمة كان من الوطنيين الذين شاركوا في الكفاح القومي خلال الحكم العثماني، وبعد ان تدرج في الجيش، التحق بالثورة العربية التي اندلعت في الجزيرة، ورافق فيصل الاول، وبرزت مواهبه السياسية في وقت مبكر، ويرتبط اسم نوري السعيد ببداية العهد الملكي ونهايته، فهو قد عاصر ثلاثة ملوك وكان له دور في السياسة العراقية طيلة (37) عاما .. وعند احتلال البريطانيين للعراق كان السعيد مريضا يرقد في البصرة ولكن سنحت الفرصة ان يلتقي المس بل التي قالت عنه بعد مغادرته:

(اذا لم نكسبه الى جانبنا فسوف يسبب لنا متاعب جمة..)وعاش السعيد ومات وهو صديق وحليف مخلص للانكليز ويرعى مصالحهم في العراق اولا وعلى حساب مصالح شعبه وامته.. اتهم نوري السعيد بالتآمر على فيصل وقيل انه شارك وحرض بطريق خفي على قتل فيصل بالسم كما انه كان يحقد على الملك غازي لاتهامه بتشجيع انقلاب بكر صدقي الذي انهى حياة جعفر العسكري زوج اخته السيدة فخرية.. وسعى السعيد ليلا ونهارا للاطاحة بالانقلابيين وفعلا اغتيل بكر صدقي في 11 آب 1937.. واتهم بقتل غازي وهذا الاتهام الذي اكدته الوثائق البريطانية السرية التي سمح بالكشف عنها لمرور ثلاثين عاما عليها.. وافتعلت بحادثة السيارة لقتل غازي ليلة 4 نيسان 1939 والمناداة بطفله الوحيد ملكا على العراق وتم تنصيب خاله عبد الاله وصيا على الملك الصغير.

وكثيرا ما استخدم الانكليز عميلهم نوري السعيد في هدم البناء القومي وضرب المصالح القومية والوطنية للعراقيين وهذا ما حصل في 1941 وما تبع ذلك من عدوان

بريطاني غاشم واغتيال حركة مايس 1941 وعودة عبد الاله ونوري الى العراق بحماية البريطانيين.. لقد لعب السعيد دورا خطيرا في مضمار السياسة العراقية الخارجية والداخلية فهو لم يتوان عن استخدام البطش والرصاص في معالجة المظاهرات والاضطرابات كما لم يتردد في اقحام العراق في المعاهدات والاحلاف المشبوهة والمسيئة لمصالح العراق.. وشكل السعيد (14) وزارة قبل ان يتخلف عن منصبه في 14 آيار 1958 او مجئ أحمد مختار بابان رئيسا للوزراء في 19 آيار من نفس العام .

يقول الحسني: (كان نوري السعيد يعتقد ان الحكم في العراق بعد وفاة الملك فيصل المؤسس ينبغي ان يكون حكرا عليه وعلى صحبه ولنه يجب ان يؤخذ رأيه في كل حكومة تقام في العراق..)

وفعلا كان السعيد في كثير من الاحيان هو الذي يقترح تعيين رئيس الوزراء او ينصب وزارة باكملها او يزعل على استيزار فلان ويقترح اخر محله او يقيل وزارة وللسعيد مريديه وازلامه وكان يتمسك بقوة بالاقطاع ونفوذ رؤوساء العشائر ويتودد الى ضباط الجيش ومن الطريف انه كان على صلة طيبة بعبد الكريم قاسم الذي تولى تحطيم النظام الملكي وسبق للسعيد ان قابل قاسم عام 1956 اثر تسرب الاخبار الى رئاسة اركان الجيش بوجود جلسات سرية يعقدها الضباط في بستان يحضره قاسم، وقد اقتنع السعيد بدفاع قاسم امامه وطلب منه مازحا بالكف عن طلبات الاسمنت لصب ارضية معسكره.. ونشرت الصحف المصرية بعد ثورة 14 تموز صورة تجمع بين نوري السعيد وعبد الكريم قاسم اثناء زيارة الاول لمنصورية الجبل حيث مقر اللواء التاسع عشر الذي يقوده قاسم.. وعندما هرب السعيد صبيحة 14 تموز الاستريادي، قيل انه صعد الى سطح الدار لعله يلتقط طائرة بريطانية في السماء وكان كثيرا ما يردد اسم (كريم) منفعلا بعد ما سمع من الراديو ان قاسم هو مدبر الانقلاب وكان يقول بعصبية: (كريم، كريم، كريم، خدعنا، خدعنا، خدعنا ..).

ونوري السعيد، هو نوري بن سعيد بن الشيخ صالح افندي بن الشيخ طه افندي، احد وجوه عشيرة القرغول في بغداد ويقول عنه صلاح الدين الصباغ بأنه لم يكن عربيا وليس من بني سعيد ولامن آل سعيد بل تركيا من قونية والسعيد من مواليد بغداد عام 1888 والتحق بالكلية العسكرية في استانبول عام 1903 وتخرج عام 1906 ثم دخل كلية الاركان في استانبول عام 1910 واشترك مع الضباط العرب في جمعية العهد عام 1913-1914. وفي عام 1914 كان نوري السعيد في البصرة مريضا وعندما احتل الانكليز

البصرة نقلوه الى دار نقاهة في بومبي وفي عام 1915 نقل الى القاهرة واشترك مع العرب والبريطانيين للاعداد للثورة العربية ضد العثمانيين والتحق بالشريف حسين امير مكة وفي عام 1919/1918 اصبح رئيسا لاركان الامير فيصل وبقي مع فيصل في سورية وعاد الى العراق في 1920 يطلب من جعفر العسكري والتقى بمس بيل سكرتيرة المندوب السامي البريطاني التي رأته لاول مرة فسجلت عنه انطباعاتها في عام 1920 فقالت: (في اللحظة التي رايته ادركت بان امامنا قوة متينة مرنة فاما ان نستعملها او نشغل انفسنا بخصومات صعبة معها ..) ومنذ البداية اصغى المسؤولين البريطانيين الى هذه النصيحة فاستغلوا نوري لصالحهم واصبح نوري منذ ذلك الوقت رجل بريطانيا القوي في العراق او مندوب بريطانيا المتجول في الشرق الاوسط كما اسماه اسماعيل الغانم في جريدة الاستقلال.

كان نوري السعيد رجلا ذو ثقافة عسكرية، بعيدا عن المشاكل الاجتماعية والاقتصادية لكن عمله مع فيصل جعله يدرك في السياسة الدولية وشؤنها وشجونها .. واستوزر لاول مرة في 1922/11/18 في وزارة عبد المحسن السعدون كوزير للدفاع، وخلال الفترة من 1930-1958 شكل السعيد (14) وزارة.. وفي عام 1930 اسس حزبا سياسيا باسم (حزب العهد) وارتفع نجمه بعد الاحتلال البريطاني للعراق عام 1941 وكان متحمسا جدا ومتطرفا في تعاونه مع البريطانيين ومعارضته للاماني الوطنية والقومية لشعبه بل كان على الضد منها تماما وفي 1949/11/24 اسس (حزب الاتحاد الدستوري) .

وصفه التقرير البريطاني السري الصادر من السفارة البريطانية لعام 1936: بانه بغدادي وابن محاسب ومن اصل موصلي، ستراتيجي جيد، كبير التقبل للافكار، ذكي، كان يرغب دائما في التفاهم الودي المعقول مع الغرب والفرنسيين .

وصفه العقيد جرالدي غورى، الملحق العسكري في السفارة البريطانية: طاقة من الاعصاب كاملة.. يحب اللهو والمرح.. وكانت تلك المتع تضم سلسلة من الفتيات الراقصات والممثلين.. يحب الموسيقى وتأسره.. المعروف عن نوري: انه لا يقرأ الاضابير ويطرح الاسئلة كثيرا ليصل الى المسألة التي يريد معرفتها .

كان نوري السعيد بغدادياً بسيطاً، لكنه ضعيف الايمان بالدين.. له ولد واحد هو صباح الذي قتل في 14 تموز.. يحب القطط والكلاب ويكره الحلاقة، يكسب كثيرا.. متواضعا .. عرف عنه ضعفه امام الجمال وكان يركب في بغداد ثلاث سيارات مختلفة كلها تحمل رقما واحداً هو (20 بغداد) وسياراته الثلاث كلها سوداء.

قال عنه خليل كنه، المحسوب عليه: كان نوري السعيد ينظر الى العراق كما ينظر الولد الى طفله القاصر ولذلك اعتبر من مسؤوليته تربية الطفل ورعاية مصالحه وتأديبه اذا الزم الامر فلم يلتفت الى راي عام ولا حرص على كسبه الى جانبه او اهتم في افهامه سياسته.. اعتداد بالنفس وعناد في الراي.. حبه للسلطة وهذا ما اضعفه او اضطر للمساومة مع انه في مركز لايحتاج الى مساومة.. جموده على اساليبه ومناوراته التي تهتم بارضاء الاشخاص وتهمل العقيدة.. اطلاق يد الطامعين في استغلال ضعفهم واخضاعهم الى سياسته مع انه عرف بالاستقامة والامانة.. قناعته بما يمكن عمله بدلا مما يجب عمله وشجبه للثورة مع انه بدأ ثائرا.. ثقته ببريطانيا، قناعته بان سلامة العراق لا يمكن ضمانها الا مع حليف قوي واصراره على هذه السياسة.. مما حمل الراي العام على اتهامه بالمسايرة الطيعة لبريطانية.. اهماله للشباب بصورة عامة واخفاقه في تقرير دورهم الفعال في توجيه الراي العام مما حملهم على اليأس من الاصلاح الدستوري.

نوري السعيد شخصيا اشتكى قبيل شهر واحد فقط من مصرعه من خذلان بريطانيا له قائلا للسفير البريطاني الذي حضر الى دار نوري السعيد وعقد اجتماع بينهما دام ثلاث ساعات: (اني اقول لكم وانا المعروف بصداقتي لكم ان سياستكم في البلاد العربية قد فشلت فشلا ذريعا.. اني متأكد انكم باستمراركم على هذه السياسة الخاطئة سوف تخسرون جميع البلاد العربية وكل نفوذ وصداقة لكم فيها واذا بقي صديق لكم من العرب فأنه سيكون متهما بالخيانة، يطارد ويتعرض للقتل والسحل في الشوارع.. تجاوزت السبعين من عمري وقد ثابرت طيلة هذه المدة على سياسة واحدة لم انحرف عنها وهي سياسة الصداقة المتينة معكم لاعتقادي ان مصلحة بلدي تستوجب صداقتكم ومساندتكم له كدولة عظمى في خضم هذا الصراع العالمي الرهيب غير اني اجد انكم تعاملون خصومكم افضل بكثير مما تعاملون اصدقائكم وأؤكد لكم ايها السفير ان في وسعي ان اصبح بطلا وطنيا يرفع على الاعناق ببذل محاولة يائسة سواء اكانت ناجحة او فاشلة وقد تكون على الاغلب فاشلة لارغامكم على التسليم بمطالب العراق ارضاء ومسايرة للراي العام العراقي والعربي ولكن ليس من السهل على شخص مثلي تقدم به العمر وبلغ من الكبر عتيا ان يغير الطريق الذي دأب على السير فيه طوال حياته ولذلك فاني افضل ان انسحب من الميدان السياسي وانزوي في قرية صغيرة في اوربا لكي لا توجه الى اية تهمة بتحريك عناصر او تيارات ضدكم واني على يقين ان اشخاصا آخرين سيظهرون في الميدان ويعطونكم درسا ويرغمونكم على تغيير هذه السياسة الخاطئة او التسليم بالمطالب المشروعة لهذه البلاد).

اختفى نوري السعيد (4) مرات في حياته لكنه لم ينجح في المرة الرابعة حيث لقي حتفه بشكل لامثيل له اذ لم يذكر التاريخ ان سياسيا عراقيا لاقى المصير الذي لاقاه السعيد وربما لن يكون الاخير.. في المرة الاولى اختفى في نيسان عام 1914 في استنبول وظهر في القاهرة ثم رجع الى البصرة بعد اعتقال عزيز المصري وفي 1936/10/29 بعد مصرع صهره جعفر العسكري اثر انقلاب بكر صدقي، اختفى في المفوضية المصرية وتوجه الى القاهرة في 10/31 على متن طائرة حربية بريطانية ثم رجع الى بغداد بعد مصرع صدقي وفي المرة الثالثة اختفى في 1941/1/30 في مزرعة رضا العسكري في المحمودية اثر الازمة بينه وبين الكيلاني والعقداء الاربعة واختفى في المرة الرابعة في صبيحة 14 تموز 1958 وكان اختفاؤه الاخير الذي انتهى بمصرعه برصاصات مسدس نائب ضابط في القوة الجوية في منطقة البتاوين .

وانتهى نوري السعيد طاغية العراق في العهد الملكي، نهاية كوميدية - درامية في ان واحد .. كوميدية لان الطاغية قتل وهو جبار العراق المرعب متنكرا بعباءة نسائية ووضع حجاب على وجهه، (بوشية من التول الخفيف الازرق)، وينتعل نعالا نسائيا اسود اللون ويحمل حقيبة نسائية ايضا، سوداء اللون، اخفى فيها مسدسه الابيض النيكل من نوع (ابو البكره الاقجم) وميتة درامية حيث قتل بالرصاص ثم سحل بدراجة وقطعت جثته الى قطع وقيل ان البعض ازدرد لحم (الباشا) نيئا انتقاما من ظلمه وحقدا عليه ثم تركت بقايا قليلة جدا من جثته طعما للكلاب.

نوري السعيد عاش محنة حقيقية يومي 14 و15 تموز.. في الطريق من الكاظمية الى البتاوين نقلته سيارة الاسترياذي متنكرا ولما تعرف سائق السيارة، كاظم عمارة، على نوري من خلال مرايا السيارة وقد تنبه نوري لذلك قال له متوسلا: اسمع ابني كاظم، انا عندي ولد واحد اسمه صباح، اذا نجوت من هذه المحنة فسيكون لي ولدان: صباح وكاظم .

اسدل الستار على حياة هذا الطاغية في حوالي الساعة الخامسة من عصر يوم 15 تموز 1958.

الخاتمة

الاستبداد وظيفة والمستبد ليس عبقريا مهما زعم ذلك لنفسه والحكم بالنسبة اليه حرفة او مهنة وهو ليس مختارا من الله ولا يمثل ارادته على الارض وان الله لم يخصه بعبقرية او هبة خارقة الا اللهم بما زرع في قلبه من شرور شيطانية لاحدود لها .

لقد اشترط ارسطو (3) مواهب فيمن يتولى شئون امته:

1. ان يحقق الترابط الوثيق بين ما للامة من حقوق تحفظ كرامة افرادها وكرامة جماعتها .

2. ان يكون ذا حس لا يخطئ لكي يحقق العدالة بين الافراد لاحترام حقوقهم .

3. ان يمتلك من الطاقات الضرورية ما يجعله اقدر على تحمل مسئولية الحكم .

باختصار ان ارسطو اراد ان يقول يجب على الذي يتولى مسئولية الحكم ان يكون ينبوعا لا ينضب من الفضائل الاخلاقية التي تشكل لديه الاحساس العميق برسالة ينهض بها .

والمستبد لا يبغي من السلطان الا حكما وسيطرة ولا يهتم للفضائل الاخلاقية وان وجدت فهي (وسيلة) لتحقيق اغراضه الانانية واطماعه الشريرة وشهوته الى بسط نفوذه.

كتب الزعيم الالماني بسمارك: (ان الناس جميعا يقاسون صراعا مزدوجا داخل كيانهم ولكني لا اعاني اثار نفسيتين تتصارعان كغيري من ابناء ادم بل انني اواجه حربا داخلية في قرارة نفسي واحيانا اشعر كأن جيشين يقتتلان بين جنبي ويصارع بعضهما بعضا وان نفسي عامرة بالتناقضات وطالما احسست بان حب السلطان يصارع في داخلي الاحساس بالواجب وميلي الى الهدوء والسكينة كانت تقاومه دائما نزعتي الى الحركة والايجابيات العملية. وكنت دائما في حيرة بين حب الانتقام وفضيلة الرحمة الانسانية كما كنت دائما في صراع بين اعلان نقدي لما اراه من اخطاء ومساوئ وبين الاتجاه نحو الاصلاح والبناء والخلق كما كنت اقاوم رغباتي الحادة في ان احقق متع الحياة لذاتي كبقية الادميين وبين الترفع عن الصغائر وتحمل الشدائد بثبات وجلد).

من طرائف التاريخ ان يوليوس قيصر كان في بداياته من اكثر انصار الديمقراطية في روما وكان شديد الانتقاد لديكتاتورية مجلس الشيوع الروماني فلما تسلم السلطة واتيحت له السيطرة الكاملة على الدولة ما لبث ان صار حاكما مستبدا يسوم الرومان الظلم والطغيان .

يرى المفكرون: ان الطريق من الديمقراطية الى الديكتاتورية قصير معبد جدا ومغر وان الذي يملك تقييد سلطة الحاكم هو نمو الوعي وادراك الشعب لحقوقه وان نابليون كان شديد الاعجاب بنزاهة روبسبير وارائه المتطرفة المناهضة للاستبداد ولما تهيأت لنابليون الظروف وقع في كل ما عابه على غيره .

يسجل التاريخ تحول كثير من الزعماء والحكام عن مبادئهم وعقائدهم الاجتماعية والسياسية فمنهم من بدأ حياته مكافحا الاستبداد والديكتاتورية ثم مايلبث ان يتحول الى مستبد ودكتاتور خطير ومنهم من يبدأ حياته اشتراكيا ثم ينقلب ضدها ... الخ واعتبرت هذه التحولات انحرافا وامراضا تسئ الى الحاكم والشعب لكنها جميعا تنتهي الى الفشل والاندثار.

المستبد يركز المبادئ والاهداف ومصير الوطن في شخصه بالذات مما يعرضها جميعا بسبب عامل عدم الاستقرار الى التغيير والتبديل.. وتتحكم في المستبد غالبا الغرائز العمياء لتوفر المجال الواسع لاشباع الشهوات الجامحة مما يترتب عليها من عواقب وخيمة. ومن صور استهتار المستبد استخدامه العبارات والاشارات والحركات التي تجرح كرامة المواطنين او تحط من اقدارهم .

والمستبد هو اول الافراد السلبيين في نظرتهم الدونية للقوانين ويعتبر القانون مجرد قصاصة ورق.

كان موسوليني قبل دخوله القصر الرئاسي دائم القول بانه جاء من كوخ حقير وبانه مستعد للعودة اليه في أي وقت ولكنه في ذروة استبداده وطغيانه نسي كل شئ قاله وانتهت حياته ان علقه الثوار من رجليه بعد رميه بالرصاص.

والمستبد يرى في ارهاب المواطنين هو أفعل في نفوسهم لخلق احترامها وهيبتها وهو قد ينجح في زرع الخوف من اجل (الاحترام) لكنه يخلق هوة واسعة بينه وبين الجماهير وهذه النزعة لدى الطغاة مردها الى الغرور واعتقادهم انهم بما امتلكوا من نجاح ساحق في الحكم فوق جميع الطبقات ويعتقد هذا الصنف من المستبدين بان باستطاعتهم فرض

التغيير والاوامر على الجماهير بما يمتلكون من سلطان توجب على الشعب الاذعان لهم معتقدين ان مالهم من احترام مفروض بالقوة والخوف كفيل بتنفيذ اوامرهم وتذليل العقبات وقد اصطلح المؤرخون على تسمية هذا النوع من المستبدين بـ(المستبد الذي يفرض نفسه بالتعالي): وهو نوع ينجح الى حد ما لما يفرضه على شخصه وما يحيطها بهالة من الهيبة لا يأخذ بها الا ضعاف العقول اما بقية طبقات الشعب فتكون بينها وبينه هوة سحيقة. ويتخذ هذا الصنف اعوانه من الكسالى فكريا وممن نجح في اختراقهم اخلاقيا وقد ينقلب على اعوانه اذا وجهوا اليه نقدا او اعتراضا وربما تتسرب الى ذهنه ان الناقدين له ينافسونه في النفوذ خصوصا اذا بدت على بعضهم مظاهر الذكاء والتفوق والفضائل الاخلاقية.. وهذا النوع من المستبدين سرعان ما تخفت اضواءه ولكن بعد ان يكون قد دمر كل القيم وقضى على كل الكفاءات .

وهناك صنف من المستبدين ذو ميول شريرة بطبعها. لكن هذا المستبد امكنه ان يتحكم في كبحها فترة الا انه حين يلاقي عواصف تهدد وجوده او يصطدم بعقبات تهز كيانه وامنه الشخصي ينقلب الى طاغية يحطم كل ما يقاومه او يبدي رايا يخالف رأيه واصبح كل ما لدى به من مثل واهداف اثرا بعيدا عنه وعاد الى طبعه القديم الاصيل: مستبدا عنيفا ظهر ليحقق اهدافا ذاتية تشبع مطامعه وتحقق له الفوز بالسيطرة والتسلط وجمع السلطة والجاه . وقد قيل ان هذا الطراز من المستبدين اوتي نصيبا من المقدرة على ضبط النفس واخفاء المشاعر التي دفعته الى الزعامة الى ان يحقق ما رسمه من اهداف ومغانم فاذا اتسق له كل ما قام من اجله انكشف للناس حقيقته وبدا لهم بلا خفاء او تمويه وتجلى حقده على المنافسين وكراهيته لخصومه الاقوياء وقد يفكر في التخلص منهم بادنى الوسائل وارخص السبل ويقضي عليهم وهو في كل ذلك يلتزم في طريقته اسلوبين: الاول يساير فيه طبيعته وميوله الفطرية ويشبعها بمختلف الوسائل والطرق والثاني يلتزم فيه التجرد الواضح من المطامح والاهواء فاذا تعرض بسبب تصرفاته للمخاطر والنكسات مثل امام شعبه دور المجني عليه. ليست هناك احكاما حاسمة واجوبة دقيقة بشأن تحول الداعية الى الحرية والديمقراطية الى مستبد عاتي وطاغية مقلوب على المبادئ التي كافح من اجلها وهذا القبيل من الحكام لا يهتم بمشاعر الجماهير الحقيقية نحوه بل كل ما يشغله هو الخضوع التام لسلطانه وارادته ولا يهتم بعد ذلك باعجاب الجماهير بسلوكه واصلاحاته بقدر ما يعنيه ماله من قدرة على فرض سلطاته والتصرف في مصائرهم وانه في هذه الحالة التي يركز جهوده في فرض سلطانه على الاخرين يفقد جزأ كبيرا من هذا السلطان دون ان يدري او لا يدري .

والمستبد لا يخضع للمبادئ الاخلاقية في ممارسة الحكم لقد قيل ان الحاكم اذا اصبح رحيما يتجاوب مع المبادئ الاخلاقية والمثل الانسانية ويتأثر بما يتأثر به الانسان الورع الذي تضئ قلبه الرحمة والشفقة يصبح فريسة لخصومه وحطاما للاشرار والمغامرين والافاقين الطامعين بالسلطة باي ثمن لان هؤلاء يرون فيه ان فطرته المجبولة على الاخلاق والرحمة تجعله يؤثر الاستسلام على الانتقام والردع ولهذا قيل ايضا ان الحاكم الذي لايستخدم القوة كمعيار لحلقة السياسي مآله الفشل وربما كان الى حدما عبد الكريم قاسم مثالا واضحا للحاكم الذي سقط ضحية لمبادئه الاخلاقية ورحمته المفرطة مع خصومه.

المستبد لا يقيم للمثل الانسانية وزنا ولا للاخلاق الفاضلة وزنا ولا للدين وزنا. ان كل الذين تجاهلوا مشاعر وثقة شعوبهم وساروا دون حساب لكرامة الشعب وارضوا مطامعهم في الدرجة الاولى سرعان ما ينتهون الى النسيان عند سقوطهم ويذوقون أسوأ مصير في التاريخ وقد يكون نوري السعيد مثالا صارخا لنموذج المستبد المتجاهل لمشاعر شعبه واحتقاره له كرد على احتقار الشعب له شخصيا وسياسيا واخلاقيا .

والمستبد الذي يتعمد تجاهل ارادة وثقة شعبه يفقد الصلة الروحية والنفسية مع شعبه مهما بذل من جهود لتقوية جسور المودة الكاذبة مع شعبه ولشهوة الحكم عند المستبد تنمو وتزداد وتتفاقم كما يتطور المرض العضال: تنقلب الزعامة الى حالة مرضية خطيرة يتخلص من المنافسين واصحاب المؤهلات والكفاءات والامكانيات من اعوانه واصدقائه ويقرب ذوي القدرات المحدودة الذين يفتقرون في حياتهم للاراء المستقلة وقلما تدوم صلة المستبد بالشخصيات القوية العاملة معه رغم تأكده من اخلاصها وتفانيها له وان حب المستبد للسلطان هو الذي يعدم الكفاءات في المجتمع ويمنع بلوغهم مراكز اصدار القرار لان الذي تستبديه النزعة الفردية يتوقع من كل ما حوله الخضوع والطاعة والاستسلام لارادته وقراراته وتوجيهاته.

يقول (شوبنهاور) في هذا الصدد : ان الاعتداد بالنفس.. حين يتحول الى غرور حين تحقق الزعامة نجاحا وتوفيقا في كفاحها ففي هذه الحالة تبدأ اعراض معينة تظهر في سلوك الزعامة وتصرفاتها وتكون اول اعراضها الانطواء الانعزالي وتقبل كل ما يقال عنها من تمجيد واطراء بصرف النظر عن الاشخاص الذين يصدر منهم هذا المدح وهذا الثناء بعد ان كانت في اول عهدها بالحكم تزهد في الثناء وتصد اكثر الناس عن المديح والاطراء وتحرص اشد الحرص على الا يصدر اليها هذا التقدير الامن لهم وزن واعتبار

ثم تنهج منهاجا مخالفا لما درجت عليه فتاخذ في ابعاد من يعارضونها في الرأي وهم الذين ترحب بافكارهم وارائهم وتعتبرها نظرة بناءة لا يصدرونها الا لصالح الامة..) .

عندما تدرك الجماهير ان زعيمها انقلب على مصالحها الاساسية انها تجعل من (بطل) الامس (خائن) اليوم وهي ذاتها التي يمكنها ان تسحق الذي مجدته في يوم ما .

المستبد هو المواطن الاول في بلده الذي يرتكب اولى المخالفات القانونية في حين يفرض على مواطنيه احترام القوانين التي يسنها . لقد كان روبسبير يرى ان تأديب المواطنين لا يتحقق الا بالقضاء عليهم بالمقصلة بتهمة خيانة الوطن والثورة .

المصـــادر

1- رائحة الجوافة. الموسوعة الصغيرة، 1990.

2-الدهان، سامي. عبد الرحمن الكواكبي، دار المعارف، نوابغ الفكر العربي، 23، ط5.

3- مجلة المنار. باريس، ع 22-23.

4- مجلة المنار. باريس، ع7.

5- مجلة (الحرب المصورة). بلا رقم، بلا تاريخ، بيروت.

6- احمد امين. الصعلكة والفتوة في الاسلام، دار المعارف، ط2، 1986.

7- الحنفي، محمد بن احمد بن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطبعة الراية، بغداد، 1990.

8- التراث الشعبي. ع 5 و6، س7، 1956.

9- الاحمد، سامي سعيد. السومريون، نوابغ الفكر العربي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1990.

10- الكيلاني، الشيخ نجم الدين محي الدين. سير ومناقب كبار الصحابة، مكتبة النهضة، بغداد، ط10، 1989.

11- السيوطي، الامام الحافظ جلال الدين. تاريخ الخلفاء، مكتبة الشرق الجديد، ط3، 1978.

12- الجومرد، محمود. الحجاج رجل الدولة المفترى عليه، ط1، 1985، منشورات شركة مطبعة الاديب البغدادية المحدودة.

13- العسلي، بسام. معاوية بين ابي سفيان، دار النقاش، ط3، بيروت، 1982.

14- نايف مردف. الخوارج في العصر الاموي، ط3، بيروت، دار الطليعة، 1986.

15- الدينوري، ابن قتيبة. الامامة والسياسة، تحقيق د. طه محمد الزيني، ج1، النجف، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع.

16- جميل ابراهيم صبية. سيرة الامام الشهيد، بغداد، مكتبة المريد، ط1، 1990.

17- الامامة والسياسة. ج2.

18- عبد الواحد ذنون طه. العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي،الموصل، منشورات مكتبة بسام، ط1، 1985.

19- عبد العزيز الحلفي. ادباء السجون، دار الكاتب العربي، بيروت.

20- اليوزبكي، توفيق سلطان. مؤسسة الوزارة في الدولة السياسية، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1، 1988.

21- التراث الشعبي، العدد الفصلي الثاني، 1987.

22- القريشي، باقر شريف. حياة الامام موسى بن جعفر؛ دراسة وتحليل، ج1، ط2، مطبعة، الاداب، النجف 1970.

23- وهاب رزاق شريف. لمحات من سيرة الامام الكاظم، مكتبة دار الكتب العلمية، ط1، ج1.

24- العباسي، محفوظ. العباسيون بعد احتلال بغداد، مطبعة الجامعة، بغداد، ط1، 1982.

25- النعيمي، عماد اسماعيل. الخليفة المتوكل في العصر العباسي، دار الشؤون الثقافية، ط1، بغداد، 1990.

26- العاني، نوري عبد الحميد. العراق في العهد الجلائري، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1، 1986.

27- علي شاكر علي. تاريخ العراق في العهد العثماني، منشورات 30 تموز، ط1، 1984.

28- لجنة من ادباء الاقطار العربية. الهجاء، دار المعارف، مصر، ج6، ط2.

29- عائشة عبد الرحمن. دار السلام في حياة ابي العلاء، ط2، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1989.

30- الدوري، قحطان عبد الرحمن. الحركات الهدامة في الاسلام، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1989.

31- الحلفي، عبد العزيز. ادباء السجون، دار الكاتب العربي، بيروت.

32- الاندلسي، ابن عبد ربه. العقد الفريد، مخاطبة الملوك، ج15، دار المسيرة، بيروت، ط1، 1981.

33- العزيز، حسين قاسم. دراسة في الشعر، مجلة الثقافة العربية، ع81، 1976.

34- القيرواني، المرادي ابو بكر محمد. الاشارة الى ادب الامارة، دراسة وتحقيق د. رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1987.

35- الجابري، محمد عابد. فكر ابن خلدون (العصبية والدولة)، ط3، دار الطليعة، بيروت، 1982.

36- خليل احمد خليل. العرب والقيادة، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1981.

37- الحسني، عبد الرزاق. تاريخ العراق السياسي الحديث، ج1، بغداد، ط7، 1989.

38- المطبعي، حميد. المؤرخ عبد الرزاق الحسني، دار الشؤون الثقافية، ط1، بغداد، 1989.

39- لونكريك، س.هـ. اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، ط6، مكتبة اليقظة العربية، 1985.

40- التكريتي، سليم طه (مترجم). العراق الحديث، منشورات الفجر، بغداد، ط1، 1988.

41- الشبيبي، كامل مصطفى. طبقات الشرط. افاق عربية، ع4.

42- الورد، باقر امين. بغداد، دار التربية، بغداد.

43- الحسني، عبد الرزاق. نظام الحكم الملكي في العراق.

44- افاق عربية، جوانب حقيقية من مصرع نوري السعيد، هادي حسن عليوي، شباط، 1989.

45- زهير خضر ياسين. الساعات الاخيرة من حياة نوري السعيد، افاق عربية، س13، 1988.

46- الزعيم، دار الشعب، القاهرة، 1975.

الفهرس

الطاغية والطغيان في تاريخ العراق القديم والحديث

الطغاة يزرعون قيم الاستبداد الجائرة في المجتمع محل القيم الأصيلة والشريفة ومن بعد أن يتلوث المجتمع برمته يأخذ الطاغية بشتم شعبه واحتقاره باعتباره شعباً ناكراً للجميل، متقلب، متجنب للمخاطر، شديد الطمع، يتمسكون بالحاكم ما دام الأخير يفيدهم ويبذلون الدماء والحياة من أجل الطاغية مادامت يد الطاغية في فم الشعب.. يلجأ بعض الطغاة إلى عقد الصداقة مع صنف من الشعب ليوسع من دائرة الولاءات له.. صداقة قائمة على أساس المال والطمع، وهي بالتأكيد صداقة لا أساس لها من النبل وعظمة الروح الإنسانية.. صداقة زائفة، مرحلية، تعقد بالمال وحده وليست أمنية موثوقة.. رغم أن هذه الصداقة من وجهة نظر الطاغية ترتبط بسلسلة من الالتزامات.. ثمة ثلاثة شروط يلتزم بها الدكتاتور ويطلب توفرها لكي يقبض على السلطة المطلقة:

1- الإخلاص لنظام الدولة.

2- الكفاءة لأداء مهام الوظائف بعد اختياره العناصر المخلصة له.

3- العدالة في المعنى الذي يتفق مع نظام حكمه.

ويناضل الديكتاتور من أجل تعليم شعبه (حب) دولته..

مشكلة الدكتاتور أنه يفترض – وهذا صحيح - أن غالبيه الناس ليسوا من المرائين والمنافقين والكذابين والمخادعين وأنهم تبعا لذلك لا يشكَون في نواياه.. وعندما يمارس الطامع بالسلطة المراء والنفاق والكذب والخدعة والحيلة ضد شعبه ورفاقه وأنصاره وأعوانه بدرجة عالية من الذكاء والبراعة، تتوقف هذه الجهود عند نتائج معينة وهي الحصول على سلطان مطلق، ولكن سرعان ما يفقد الدكتاتور (خيوط) لعبته عندما يلجأ أنصاره وأعوانه وشعبه كله إلى نفس أساليبه ويستخدموها بنجاح.. تلك معضلة الطاغية.

لوحة الغلاف: يوسف عبدلكي

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح










